

صَوْنٌ وَمَحْجُوثٌ مِنَ النَّبْلِ وَالْأَسْلا

عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس

تأليف

عبد الحميد القباري

[الطبعة الأولى]

١٩٥٣

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصيرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

2262.076.389
al-'Abbadi
Suwar wa-buhuth

DATE _____

18 '57

ISSUED TO

Bindery

[illegible]

Princeton University Library



32101 073830018

صَوْنٌ فِي مَحْثِ النَّبِيِّ الْأَمْلَأِ

عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس

Suwar wa-buḥūth

تأليف

عبد الحميد القباري

العميد السابق لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ،
وعضو مجمع اللغة العربية ، وأستاذ التاريخ العربي
بمعهد الدراسات العربية العالية

[الطبعة الأولى]

١٩٥٣

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

كتاب في الفقه الإسلامي

كتاب في الفقه الإسلامي

كتاب في الفقه الإسلامي

كتاب في الفقه الإسلامي

كتاب في الفقه الإسلامي

7681

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتاب في الفقه الإسلامي

كتاب في الفقه الإسلامي



تقدمة وإهداء

من خمس سنوات مضت نشرت لى الجمعية التاريخية لخريجي كليات الآداب بجامعة الإسكندرية مجموعة من المقالات تقصّل بالعصر العربى الإسلامى القديم ، وكان ذلك فى كتاب عنوانه « صور من التاريخ الإسلامى : العصر العربى » .

واليوم تنشر لى مكتبة الأنجلو المصرية مجموعة أخرى من مقالات وبحوث نشر بعضها مفرداً وبعضها الآخر لم يسبق نشره ، وذلك فى كتاب عنوانه « صور وبحوث من التاريخ الإسلامى : عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس » .

والمقالات والبحوث المنشورة فى الكتاب الجديد يدور أغلبها على بعض أعلام الإسلام فى العصر المذكور فى العنوان ومسائل أخرى علمية ، إلا أن الناظر المتوسم لا يعدم أن يلمح فيها إشارات تكشف عن بعض جوانب الحياة الإسلامية القديمة من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية . فهى من أجل ذلك لا تخلو من الفائدة للجيل الجديد من طلاب التاريخ والتاريخ الإسلامى بوجه خاص . ولعل هذا المغزى هو الباعث الأول على جمعها ونشرها فى كتاب .

وقد جرت عادة كثير من الكتاب والمؤلفين أن يهدوا تأليفهم إلى بعض من يحبون أو يجلون ، فجزىا على هذا السنن اللطيف والعرف المألوف أهدى هذا الكتاب إلى الذين أهديت إليهم كتابى السابق : أهديه إلى أصحابى من خريجي مدرسة القضاء الشرعى والأزهر الشريف ، ودار العلوم وكلية الآداب بجامعة القاهرة والإسكندرية ، ودار المعلمين العالية ببغداد . فالحق أن الكتابين كليهما من وحي الدروس والمحاضرات التى سعدت بالقاء عليها عليهم ؟

عبد الحميد العبادى

رمل الإسكندرية فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥٣
١٠ المحرم سنة ١٣٧٣

2262

٠٠٧٦

389

القسم الأول
عصر الدولة العباسية

أبو العباس «السفاح»*

هل تلقب بالسفاح وهل كان سفاحاً للدماء حقاً؟

كان أبو العباس الملقب بالسفّاح أوّل خلفاء بني العباس ؛ ولى الخلافة عام ١٣٢ ، وتوفى عام ١٣٦ ، وكان شاباً لم تزد سنه وقت أن توفى على ست وثلاثين سنة على أكثر تقدير . جميل الخلقة ، وسيم الطلعة ؛ يقول فيه الطبرى إنه « كان ذا شعرة جعدة ، طويلاً أبيض ، أفتى الأنف ، حسن الوجه والهيئة » . ويروى ابن الأثير أنه « نظر يوماً فى المرأة ، وكان من أجمل الناس وجهاً ، فقال : اللهم إني لا أقول كما قال سليمان ابن عبد الملك : أنا الملك الشاب ، ولكنى أقول : اللهم عمرنى طويلاً فى طاعتك ممتعاً بالعافية ! »

وكان أبو العباس مقصوناً غنياً ، حسن المعاشرة لأهل بيته . روى المسعودى أنه كان قبل الخلافة فقيراً مملقاً ، واتفق أن رآته أم سلمة الخزومية ، أرملة سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فأعجبت به ، ورامت التزوج منه ، فاعتذر بضيق ذات يده ، فأرسلت إليه من المال ما وفى بحق الصداق والهدية . وقد حلف لها ألا يتزوج عليها ولا يتسرى . فلما صارت إليه الخلافة ، وسقيت إليه الدنيا ، وفى لها كأشد ما يكون الوفاء ، والبر بالعهد .

وكان أبو العباس مقصداً فى معيشته ، لم تخرجه أبهة الملك وعظمة السلطان عن حد البساطة فى مأكله ومشربه وملبسه ؛ وقد أحصوا ما خلف من الثياب ، فإذا هى تسع جباب ، وأربعة أقمصة ، وخمسة سراويلات ، وأربعة طيالس ، وثلاثة مطارف خز . تلك ثياب رجل ملك مشارق الأرض ومغاربها نحو خمس سنوات !!

* الثقافة : عدد ٤٧ سنة ١٩٣٩ أثار هذا المقال جدلاً وتقاشاً فى الموضوع وقد سجل كل ذلك فى مجلتي الثقافة والرسالة فى السنة المذكورة .

وكان أبو العباس كريماً معطاءً ، يقول فيه السعدي : « وكان إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً » ، ويقول فيه : « وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة ، ويقول لا يكون سرورنا معجلاً ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلاً » .

وكان طروباً « يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ! فأعد هذا الصوت ! » . (السعدي) .

وكان أشد الخلفاء حباً لمسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : « إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً » ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً ويروي نقصاً » . (السعدي في مروج الذهب) .

* * *

فهل صحيح أن هذا الخليفة الشاب الجميل العفيف ، الوفي ، الكريم ، الطروب ، المقتصد الحريص على مسامرة الرجال ، كان قتّالاً للناس سفاكاً لدماء البشر ؟ وهل صحيح أنه إنما لقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء وأزهد من أرواح ؟ وهل صحيح أن الطبيعة البشرية تتسع للتناقض والتباين إلى هذا الحد ؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة بالإيجاب ليميز الدهش ويستنفذ العجب ؛ ومع ذلك فهذا ما أجابت به روايات تاريخية كثيرة متأخرة وحديثة . وقبل أن نعرض لتلك الروايات التي تصور أول خلفاء بني العباس في تلك الصورة البشعة ، نبين المعنى الاصطلاحي واللغوي للفظ « السفاح » ، ثم نعرض للروايات القديمة والمعاصرة لأبي العباس ، لنرى كيف تصور شخصية هذا الخليفة .

إن لفظ « السفاح » وصف عربي قديم جرى مجرى العلم ؛ فتم السفاح التغلبي الذي كان رئيس تغلب في يوم الكلاب الأول . ويقول فيه ابن دريد في كتاب الاشتقاق : « وإنما سمي السفّاح لأنه سفح المزاد أي صلبها يوم كاظمة ، وقال لأصحابه : قاتلوا فإنكم إن هُزمتُم مُّت عطشاً . قال الشاعر :

وأخوها السفاح ظمأ خيله حتى وردن جبا الكلاب نهالا »

وهناك السفاح بن عبد مناة الشاعر ، ويعلق ابن دريد على اسمه بقوله : « والسفاح
فقال من سفتحت الماء سفتحاً إذا صببته » . فالعرب إذا لم تطلق هذا الوصف اصطلاحاً
على من يسفك الدماء كما يقبدر إلى الذهن ، وإنما لحظت في إطلاقه معنى آخر
منصوصاً عليه .

وأما لغة فهذا الوصف يقع على جملة معان ، منها السفاك للدماء ، ومنها المعطاء ، ومنها
الفصيح القادر على الكلام . (اللسان مادة سفتح) . فعلى أى هذه المعانى نحمل لقب أبي
العباس ؟ إن الرواية التاريخية وخدها ، هي التي تعين هذا المعنى . فهم يقولون إن أبا العباس
لقب بالسفاح أخذاً من قوله في خطبته المشهورة التي خطبها أهل الكوفة غداة
بويح بالخلافة .

« يا أهل الكوفة ! أنتم أهل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تنفروا عن ذلك ،
ولم يثبكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وآناكم الله بدولتنا ،
فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتمكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا
السفاح المبيح والناثر المبير ! » فنلاحظ من هذه العبارة أنه يخاطب أهل الكوفة الذين أفاض
عليهم من الأوصاف الكريمة ما أفاض ، وأنه قد زاد في أعطياتهم ؛ فهل يتأتى له أن يقول
لهم بعقب ذلك إنه سفاك للدماء ؟ هذا بعيد ، والأقرب إلى البيان والبلاغة أنه إنما أراد أن
يقول لهم إنه لأولياؤه كريم معطاء ولأعدائه ناثر مبير . والعارف بأساليب العرب الخطابية يعلم
أنهم في مثل هذا المقام ، مقام الترغيب والترهيب ، كثيراً ما يوردون المعانى المتقابلة ؛ وهذا
من قبيل قوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » أضف
إلى ذلك أنه لا يحمل بخليفة إسلامي يقول إنه تحدر من أكرم أرومة ، واشتق من أشرف
نبعة ، أن يصور نفسه تصويراً جاهلياً منفراً دون محاشاة ولا تحفظ . وعهدنا باللقاب
الخلفاء الإسلاميين كلها أنها ألقاب جميلة ، وأسماء حسنة توحى بمعاني الإيمان واليمن والهداية
والرشاد .

ولكن هذا التمدليل البياني لا يكون شيئاً إذا كانت الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة

تسند إلى أبي العباس من الحوادث الفظيعة ما يسوِّغ أن يوصف بالسفاح على معنى السفاك للدماء . والواقع أن الرواية التاريخية القديمة والمعاصرة لا تكاد تفعل شيئاً من ذلك . بل هي لا تذكر لفظ السفاح مطلقاً عندما تتكلم على أول الخلفاء العباسيين ؛ ومن شاء أن يتحقق ذلك فليرجع إلى كتاب « الأخبار الطوال » لأبي حنيفة الدينوري المتوفى عام ٢٨٢ هـ ، وتاريخ الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ ، فسيجد أن كلا المؤرخين لا يزيد عند الإشارة إلى أبي العباس على قوله : « أمير المؤمنين أبو العباس » وأكثر من ذلك أن رواية هذين المؤرخين ، وكلها من حيث الإسناد تكاد تصعد إلى عصر أبي العباس نفسه ، لا تضيف إليه من حوادث القتل والمثلة التي تمت في عهده شيئاً والمراد بحوادث القتل والمثلة التي حفل بها ذلك العصر قتل العباسيين الأوائل بنى أمية غدرًا وصبراً . بل تولى كثير ذلك رجال غير أبي العباس . فيقول الطبري : « وفيها (أى سنة ١٣٢) قتل عبد الله بن علي من قتل بنهر أبي فطرس من بنى أمية ، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً » وعبد الله بن علي هذا عم للخليفة ، وكان على الشام ، ونهر أبي فطرس بفلسطين . ويقول الطبري كذلك : « وفيها (أى سنة ١٣٣) قتل دواد بن علي من كان أخذ من بنى أمية بمكة والمدينة » ودواد هذا عم آخر لأبي العباس ، وكان على الحجاز واليمن . فأنت ترى أن الرواية التاريخية القديمة تعصب بكل بساطة جرائم قتل الأمويين برجلين اثنين هما عبد الله بن علي ودواد بن علي . فإذا رجعنا إلى الرواية المعاصرة لأبي العباس نفسه وجدناها مؤيدة للرواية التاريخية . وهذه الرواية المعاصرة هي تلك القصيدة المؤثرة البليغة التي رثى بها ابن أبي شبة العبلى مواليه من بنى أمية ، والتي يقول في مطلعها :

تقول أمامة لما رأت نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نوى على مضجعى لدى هجمة الأعين النعس
أبي! ماعراك؟ فقلت الموم عروّن أباك فلا تبلى!

ويقول فيها معدداً المواضع التي قتل فيها بنو أمية :

أفاض اللداعم قتلى كذا وقتلى بكثوة لم ترمس
وقتلى بوج وباللاتية بن من يثرب خير ما أنفس

وبالزائيين نفوس نوت وأخرى بنهر أبي فطرس
أولئك قومي أناخت بهم نواب من زمن متعس

وكذا وكثوة ووجّ واللابتان أمكنة بالحجاز ، وهي التي قتل عندها داود بن علي من
قتل من بني أمية . والزايان موضع واقعة الزاب التي قاد الجيش العباسي فيها عبد الله بن علي
ونهر أبي فطرس بفلسطين وهو الذي قتل عنده عبد الله بن علي الأمويين غدرًا وصبرًا كما
ذكرنا . ولا يذكر الشاعر وهو يعدد مصارع قومه الحيرة ولا الكوفة ولا الأنبار وهي
المواضع التي نزلها أبو العباس في خلافته ؛ فالرواية للمعاصرة والرواية القديمة تنطقان ببراءة
أبي العباس من دماء الأمويين وتحملان غيره وزرها .

* * *

ولنعرض الآن بالإيجاز للروايات المتأخرة والحديثة . ونريد بها الروايات التي ظهرت
منذ القرن الرابع إلى أيامنا . فنلاحظ قبل كل شيء أن تلك الروايات على وجه العموم تلقب
أبا العباس بالسفاح ، مخالفة في ذلك الرواية القديمة . وهي تنعت ذلك الخليفة بالسفاح على
أنه سفك قتال ، فصاحب كتاب الأغاني الذي ينسب إلى بني أمية والمتوفى عام ٣٥٦
يعنون فصلًا في كتابه (ج ٤ ص ٩٢ — ٩٦) بقوله : « ذكر من قتل أبو العباس السفاح
من بني أمية » ، ويدير أبو الفرج فصله هذا على قصة سديف الشاعر ، فيزعم أنه دخل على
أبي العباس بالحيرة وعنده بنو هاشم وبنو أمية فأنشده قصيدته :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباس
ويقول فيها محرضًا الخليفة على الأمويين :

لا تقيّلن عبد شمس عِثاراً واقطن كل رقلة وغراس
خوفهم أظهر التودد منهم وبهم منكم كحز المواسي

قال فتغبر لون أبي العباس ، وأمر بمن في مجلسه من الأمويين فأهمدوا ، وتزيد رواية
أبي الفرج أن الخليفة أمر ببساط فبسط على جسوم الأمويين وجلس فوقه يأكل ، فلما
فرغ من الأكل أمر بهم فألقوا في الطريق ، فكانت الكلاب تجرم بأرجلهم ، إلى آخر
ما روى رحمه الله . ويورد ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ نفس الشعر والحادثة ، ولكنه يضيف

الشعر إلى شاعر آخر هو شبيل بن عبد الله والحادثة إلى عبد الله بن علي ، إلا أنه يعقب على ذلك بقوله : « وقيل إن سديفاً أنشد هذا الشعر للسفاح ومعه كانت الحادثة وهو الذي قتلهم » .

فأنت ترى أن ما نصت عليه الرواية القديمة بكل وضوح وجلاء ، وعزته إلى عبد الله ابن علي في يوم نهر أبي فطرس قد عزاه أبو الفرج إلى أبي العباس ، وتردد فيه ابن الأثير بين النفي والإثبات . على هذا الخلط والاضطراب تقوم الرواية المتأخرة التي تصور أبا العباس شخصية قتالة بشعة تذكركنا بشخصيات جنكزخان وهولاكو وتيمورلنك . وقد اتبع المؤرخون المحدثون هاتين الروایتين ؛ فمنهم من أخذ برواية أبي الفرج مثل فايل الألمانى في كتابه « تاريخ الخلفاء » ، وميور الإنكليزى في كتابه « تاريخ الخلافة » ، والرحوم الخطيرى بك في تاريخ الدولة العباسية ؛ ومنهم من أخذ برواية ابن الأثير مثل المرحوم جورجى زيدان بك في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامى .

أما بعد ، فإننا لم نقصد إلى الدفاع عن أبي العباس دفاعاً مطلقاً ، ولكننا أردنا إنصافه من طريق البحث العلمى . وعفدنا أنه إذا كانت يده قد برئت من دماء الأمويين فإنها لم تبرأ من دم ابن هبيرة الذى استقره أخوه أبو جعفر من معقله بواسطة على الأمان . فإن أبا العباس لم يُجز أمان أبي جعفر ، وقتل ابن هبيرة غدراً ، ناسياً قول صاحب الشريعة الحمديّة : إن ذمة المؤمنين واحدة يحير عليهم أديانهم . ولم يكن أبو جعفر فى الحق أدنى المؤمنين ، بل من أعلام وأشرفهم . والرواية القديمة تعزو إلى أبي العباس هذا الحادث دون أية موارد ، ولكن ذلك لعمري لا يسوّغ أن يوصف بأنه سفاح للدماء ، وهو ما نصبنا أنفسنا لنفيه عنه .

بقى أن يقال إن أبا العباس كان الخليفة وهو المسئول الأول عن جرائم عماله . ولكن يردُّ على ذلك بأن العصر كان عصر زعازع وهزاهز ، وأن أبا العباس كان مغلوباً على أمره لعمه عبد الله بن علي بالمغرب ، ولأبي مسلم بالشرق ، ولم تصفُ الخلافة والسلطان لأخيه

أبي جعفر من بعده إلا بعد أن تخلص من هذين الجبارين وقد انتقم الله منهما على يديه
أشد الانتقام .

ترى هل ثبت أبو العباس على هذا التمهيص ؟ وهل خرج منه كما دخله ، فكان أولاً
وآخرأ ذلك الخليفة الشاب الوسيم العنيف ، الوفي الكريم الطروب المقتصد الحرّيس على
محادثة الرجال ذوى العقول ؟
أكبر الظن أن قد فعل مـ

هارون الرشيد^(١)

بين التاريخ والقصص

هارون الرشيد شخصية من أشهر شخصيات التاريخ الإسلامي ، وأكثرها تداولاً على الألسنة ، وأشدها شيوعاً في الأدب العام . ومع أنه شخصية تاريخية بحجة قد أسبغ عليه القصص ثوباً ضافياً من زخرفه ورونقه ، وتعاوره الوضع والانتحال من نواح عدة ؛ فالتبس وجه الحق فيه على جمهور المتأدين ؛ ولم يسلم من الوهم في أمره غير واحد من الخاصة أنفسهم وزيد في هذا البحث أن نعرض لتلك الشخصية بقدر ما يسع المقام كما يصورها التاريخ الثابت أولاً ، ثم كما يصورها القصص ثانياً ، وأن نبين بعد ذلك مدى الاتصال بين التصويرين .

— ١ —

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، ينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . أما أمه فأم ولد اسمها الخيزران . وكما كان أبوه وجده من أقوى الرجال إرادة وأشدّهم شكيمّة ، فقد كانت أمه جموح النفس وكانت إلى ذلك موفورة الحظ من العلم ؛ أخذته كما يروى الطبري عن الأوزاعي إمام أهل الشام . ولد هارون بالري سنة ١٤٨ هـ وذلك أيام كان أبوه والياً على خراسان من قبل المنصور . فلما جاوز عهد الطفولة دفع به أبوه إلى يحيى بن خالد البرمكي ليتولى الإشراف على تعليمه وتثقيفه فأنشأه يحيى على آداب ملوك الفرس من بني ساسان ؛ فكان هارون يحب الصيد والقنص ؛ ويلعب بالدبوس والصولجان والشطرنج ، ويشهد سباق الخيل في ميادين السباق . أما تعليمه فلعل وصيته هو إلى الأحمر النحوي مؤدب ولده الأمين تريّا كيف علم ؛ وكيف كان يعلم ولاية العهد في ذلك الزمان ، فهو يقول فيها « يا أحرار ! إن أمير المؤمنين

قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه . فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ؛ أقرئه القرآن ؛ وعرفه الآثار ؛ وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدءه ، وامنعه الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا إليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحرق به فتميت ذهنه ، ولا تمنع في مساححته فيستحلى الفراغ ويألفه . وخوفه ما استيطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

فلما ترعرع واشتد ساعده أخذ أبوه يدر به على فنون الإدارة والحرب ، فأغزاه الروم مرتين في سنتي ١٦٣ هـ ، ١٦٥ هـ وفي سنة ١٦٣ هـ ولده على المقرب كله وجعل على رسائله يحيى بن خالد . وفي سنة ١٦٦ هـ أخذ له البيعة بولاية العهد بعد أخيه موسى الهادي ولقبه (الرشيد) ثم لم بأن يقدمه على الهادي في الخلافة لما رأى من مخايل كفايته ومقدرته ؛ ولكن موته فجأة في عام ١٦٩ هـ عاقه عن إنفاذ ما أراد .

فلما تولى الهادي حاول أن يخلع هارون ويبيع لابن له صغير ، ولكن هارون أبى أن ينزل عن حقه ، وشد أزره في ذلك مربييه وكاتبه يحيى بن خالد . فعرضهما الهادي لألوان من الاضطهاد ، حتى طاب هارون نفساً بالخلع وأخيراً لم ينج يحيى من الهلاك ، وحق هارون من الضياع ، إلا موت الهادي غيلة في الحرم من عام ١٨٠ هـ وبذلك أصبح هارون خليفة على الدولة العباسية .

كان الرشيد عندما آلت إليه الخلافة شاباً في مقتبل العمر ، موفور الثقافة ، تام الفروسية جم الحياء ، رقيق العاطفة . هذا إلى ملاحظة يوصف بها ، فقد كان أبيض طويلاً وسمياً فصيحاً . فهو بذلك قابل لفعل الخير إذا وجد ما يوجهه إليه ، ولفعل الشر إذا صادفه ما يصرفه إلى الشر ، والتوجيه لمن يكون في مثل حاله إنما يصدر عن نظام الحكم الذي تكون الدولة خاضعة له ومحكومة بموجبه . ذلك بأن لأنظمة الحكم تأثيراً في أخلاق الناس حكماً كانوا أو محكومين . وقد لحظ هذه الحقيقة كل من كتب في السياسة والأخلاق من لدن الإغريق

القدماء حتى وقتنا الحاضر . فما النظام الذى كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل . خلافة العباسيين تختلف عن خلافة أبى بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادى عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهى فى الحكم ولكى يعطوا هذه النظرية الصفة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبى صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الميراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها . وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثته الأعمام ؟

ويقول أول خلفائهم فى خطبته التى خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة « وأعلموا أن هذا الأمر فىنا ، وليس بخارج منا حتى نسله إلى عيسى بن مريم عليه السلام » ويقول المنصور من خطبة له « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوقيفه وتأيده . وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه ؛ فقد جعلنى الله عليه قفلا ؛ إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ... » ولكى ندرك مدى التغيير الذى أصاب الخلافة على عهد العباسيين نكتفى بأن نورد بعض خطبة أبى بكر التى خطبها على إثر بيعته ، فقد قال « أيها الناس ! قد وليت أمركم ولست بخيركم فإن أحسنتم فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ... أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ... » كما نورد الشعر الذى خاطب به الخطيئة عمر بن الخطاب بعد أن بويع ، قال :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر

لم يؤثرك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

وكما ورث الرشيد الحكم بموجب النظرية المذكورة ، فقد ورث بالإضافة إليها ما يصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسى للدولة ؛ ذلك نظام البلاط وهو شئ أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجبين عن الرعية فى بلاطهم ، يحف بهم جم غفير من الحاشية والحجاب والحراس والعلمان والنساء والجوارى . وكثيراً ما كان

بلاط فارس بهذا الخليط مبعث الدسائس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ المتأخرين من الساسانيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السىء فى الشئون العامة لأول ظهوره ، فقد ذهب المهدي والمهادي ضخمة مكاييد دبرت لهم فى نفس بلاطهم . حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ وبلاط يحكم تكوينه ذو جو صالح للدسائس والمكاييد . ذلك هو النظام السيامى الذى أصبح الرشيد خليفة بمقتضاه وفى حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذى يحكم فى ظله قويا كان من أقوى أسباب الاستبداد والطغيان . وإذا كان ضعيفاً كان من أقوى بواعث الفتن والاضطراب .

وهذا بالدقة ما يثبت به تاريخ الدولة العباسية ، فالمتقدمون من خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالمصور والمهدي والرشيد والمتوكل كانوا جبارة طغاة . أما المتأخرون الذى يوسمون بالضعف فقد كانوا الأعيب فى أيدي أهل البلاط ونساء القصر ، يصرفونهم كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم .

— ٣ —

على أن الرشيد لم يقبل دفعة واحدة أثر هذا النظام ، فصغر سنه وحدثه عهده بالحكم يحولان بطبيعة الحال دون هذا التقبل السريع . لذلك نجده كالمعترف بأنه لم يبلغ بعد أن يضطلع بشئون تلك الدولة العظيمة ، يفوض الأمر كله إلى أستاذه ووزيره يحيى بن خالد البرمكى ، وقد بلغ من تحفيمه به وإعظامه له أنه كان لا يناديه إلا « بيا أبت ! » .

ويحيى هذا هو يحيى بن خالد بن برمك . وكان برمك فى مبدأ أمره سادن معبد بوذى قديم بمدينة بلخ يقال له (النوبهار) ثم اعتنق الإسلام فى أواسط الدولة الأموية واتصل بعبد الملك بن مروان وابنه هشام ، ويقال إنه شفى هشاماً من مرض كان به . وقد اشترك ابنه خالد فى أمر الدعوة العباسية وأبلى فيها ثم استوزره المنصور لأصالة رأيه وكفايته وإن كان ذا ميول أمجمية لم تحف على المنصور . وقد ورث ابنه يحيى فضائله وكان لذلك أثيراً لدى المهدي . فلما تولى الرشيد أطلق يده فى شئون الدولة فاستعان يحيى فى إدارتها بأولاده الأربعة الفضل وجعفر وموسى ومحمد وكلهم كافقدير . وقسم أمور الدولة بينهم وصار يعول عليهم فى معالجة الحوادث الخطيرة . فالفضل هو الذى استصلح يحيى بن عبد الله العلوى الذى ثار

بطرستان ، وإلى موسى وجعفر يرجع الفضل في القضاء على فتنة العرب بالشام .
والخلاصة أن البرامكة غلبوا على كل شيء في الدولة وأداروها إدارة حسنة ، ولكنهم
إلى جانب ذلك قد شلوا سلطان الرشيد حتى كادت شخصيته تفنى فيهم .
وبلو البرامكة وهم أسرة فارسية كما تقدم القول ، علا شأن العنصر الفارسي عامة ،
وتحقق ما كانت موالى الفرس ترمى إليه من إسقاط الدولة الأموية العربية ، وإقامة الدولة
العباسية التي كانوا عدتها ومحل عصبيتها .

وقد أدرك العرب بواذر هذا الانقلاب منذ قامت الدولة العباسية فكانوا يعبرون عن
معارضتهم لها وسخطهم عليها بالثورة حيث يكثر عددهم وخاصة بالجزيرة والشام ومصر .
فكان الخلفاء العباسيون الأوائل يلقون ثوراتهم بالعنف وتفريق الكلمة جهد استطاعتهم
لعلهم أن العرب أنصار الدولة الأموية الزاهية . لذلك نجد قادة العرب يعدلون عن الثورة
إلى الدهاء واصطناع الحذر .

كان بنو هاشم على رأس الحزب العربي ببغداد ، وكان يمثل هذا الحزب ببلاط الخليفة
شخصان الفضل بن الربيع والسيدة زبيدة .

أما الفضل فكان رجلاً واسع المطامع ، جم الدهاء ، قادراً على الدس والوقعة ، حاقداً
على البرامكة ، والذي يقرأ مدائح أبي نواس فيه يرى أنه كان يستعين بالشعراء على لفت نظر
الرشيد إليه .

من ذلك قول أبي نواس مخاطباً الرشيد :

قولا له — ارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على مابك من قدرة فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وكان من وراء ذلك أن استعجبه الرشيد في عام ١٧٩ م كان محمد بن يحيى البرمكي .
أما الزعيم العربي الثاني إذا صح هذا الوصف فلم يكن غير السيدة زبيدة حفيدة أبي
جعفر المنصور وزوج الرشيد وأم ولده محمد الأمين .

وهي امرأة عظيمة المواهب موفورة الثقافة شديدة المباهاة بنسبها الهاشمي وكان الرشيد يحلمها ويعرف لها مكانتها الممتازة . وكانت هي أيضاً مباحدة للبرامكة متغيرة على يحيى وكان إليه أمر القصر فكان بذلك يضيّق عليها ويتعمد عدم إنفاذ أوامرها حتى إنها شكته إلى الرشيد فلم يزد الرشيد على أن عتب على يحيى في ذلك .

ومهما يكن من شيء فقد تركزت المنافسة بين العرب والعجم إذ ذاك في أمر ولاية العهد فأما العرب فكانوا يحرصون أشد الحرص على أن يعقد الرشيد البيعة بولاية العهد لمحمد الأمين العربي الأبوين ، في حين أن الفرس كانوا يحرصون على أن يكون الذي يلي الرشيد في الخلافة عبد الله المأمون الفارسي الأم .

وقد حار الرشيد في الأمر حيرة شديدة . وأخيراً غلب عليه النفوذ العربي فعقد البيعة بولاية العهد لمحمد في سنة ١٧٥ ولقبه « الأمين » فكان ذلك سبباً في أن جسد الفرس في الأمر حتى اضطر إلى أن يبائع بولاية العهد لابنه عبد الله في سنة ١٨٣ على أن يلي بعد الأمين ولقبه « المأمون » ثم أوعز إلى الشعراء وإلى عمه عبد الملك بن صالح أن يطلبوا إليه البيعة بولاية العهد لابنه القاسم ففعلوا فعقدوها له في سنة ١٨٦ على أن يلي بعد الأمين والمأمون ولقبه « المؤتمن » . قالوا ولم يمنعهم من البيعة لابنه المعتصم إلا كونه أمياً وغير متعلم بخلاف إخوته المذكورين .

ثم بدا له تفوق المأمون على الأمين فهم بأن يقدمه عليه في ولاية العهد ، ولكنه لم يفعل وكل الذي صنع أن قسم الدولة بين أبنائه الثلاثة المذكورين ، فجعل للمأمون الأقاليم الشرقية التي يغلب عليها العنصر الفارسي وللأمين الأقاليم الغربية التي يغلب عليها العنصر العربي . وجعل الجزيرة والنفور لابنه المؤتمن .

ثم لحظ الخطر الذي يتهدد الأقاليم الشرقية فأوصى للمأمون بمال وسلاح كثير تقوية له وجعل إليه أسر المؤتمن إذا آلت إليه الخلافة ، إن شاء أمضى عقد بيعته وإن شاء نقضه وجعل الخلافة بعده لمن شاء . ولكي يؤكد هذا النظام حجج في سنة ١٨٦ واستصحب ابنه الأمين والمأمون . فلما كان بمكة كتب عهداً ثلاثة أخذ فيها الميثاق على ابنه أن يرعى كل منهما حق أخيه عليه ، كما أخذ العهد على رجال الدولة أن يكونوا على من بدل وغير في

عهده . ثم أمر فعلق العهدان الأولان في جوف الكعبة توكيداً لهما وتعظيماً لسانهما .
 لاشك في أن ذلك النظام الذي وضعه الرشيد لأمر الخلافة من بعده لا يشرف مقدرته
 السياسية كثيراً فهو منتهى خطأ الرأي وفساد التدبير . وإن الفتنة التي وقعت بعد بين
 الأمين والمأمون ، والتي صدعت وحدة الدولة العباسية حيناً من الزمن لتقع تبعاتها على عاتق
 الرشيد نفسه . لقد حرص الرشيد في وضع النظام المذكور على إرضاء الأهواء المختلفة بدلا
 من أن يصطنع الحزم ويتوخى مصلحة الجماعة . ولقد لحظ ذلك معاصرو الرشيد نفسه .
 قال شاعر من شعراء ذلك العصر :

رأى الملك المذهب شر رأى	بقسمته الخلافة والبلاد
رأى ما لو تعقبه بعلم	لشيب من مفارقة السواد
أراد به ليقطع عن بنيهِ	خلافهم ويبتدلو الوداد
فقد غمس العداوة غير آل	وأورث شمل ألفتهم بداد
فويل للرعية عن قليل	لقد أهدى لها الكرب الشداد
ستجرى من دماهم بحور	زواجر لا يرون لها نفاد
فوزر بلائهم أبداً عليه	أغياً كان ذلك أم رشاد

وعلى أثر انصراف الرشيد من حجه المذكور راع العالم الإسلامي بحادث لا تزال
 أسبابه على الرغم من كثرة ما كتب وقيل فيها مبهمة غامضة ، ذلك إيقاعه بالبرامكة في
 عام ١٨٧ . لقد تعددت الروايات الواردة في تعليل هذا الحادث الحزن ولكنها كلها لا تشفى
 غلة الباحث . فالرشيد لم يصرح لفرط دهائه بسبب نكبتة للبرامكة ، وترك الأمر ينحدر
 إلى الأجيال من بعده لفرأ غامضاً . ومن جهة أخرى فإن البرامكة لم يرتكبوا جرماً واضحاً
 ثابتاً عليهم يمكن أن يعتبر السبب المباشر في نكبتهم . قالوا إن السبب في الفتك بالبرامكة
 استئثارهم بالأموال واحتيازهم الضياع العائرة ، وهو سبب غير وجيه لأن من يقدر على انتزاع
 المهج والأرواح أقدر من باب أولى على انتزاع الأموال . وقالوا إنه الزندقة وعدم النصح

للإسلام ، وهو أمر لو صح لأعلنه الرشيد إقامة للحجة على البرامكة واستشارة للرأى العام الإسلامي عليهم . وقالوا إن السبب تشيعهم للعلويين وسعيهم في نقل الدولة إليهم وإعانتهم يحيى ابن عبد الله العلوى على الثورة بالرشيد . وهو سبب غير وحيه لأن البرامكة إنما عزوا بالدولة العباسية وبلغوا ذروة المجد في ظلها فإذا يحملهم على التضحية بذلك والمخاطرة في أمر قد يتحقق وقد لا يتحقق ! ثم هو على فرض تحققه لن ينيلهم شيئاً غير حاصل في أيديهم بالفعل . وقالوا إن زواج جعفر بن يحيى من العباسة أخت الرشيد واتصاله بها سرّاً برغم حظر الرشيد ذلك عليهما ، وهذا السبب عندنا خرافة شعوبية زيفها ابن خلدون في مقدمته . وسنعرض لها في موضع آخر من هذا البحث .

إن الذى نرجحه ، ولا سبيل في هذا الموضوع سوى الترجيح ، ونرى أنه السبب الجوهرى في إيقاع الرشيد بالبرامكة إنما هو استثمارهم بالسلطان حتى كادوا يخلعون الرشيد . وقد قدمنا أن حكومة الرشيد حكومة استبدادية مدعومة بفكرة فقهية اجتلبها العباسيون اجتلاباً ليتمكنوا لأنفسهم . والمستبد لا يطبق أن يشاركه إنسان في السلطان الذى يراه حقه المشروع . ولا سيما إذا كان في مثل دهاء الرشيد وشدة اعتداده بنفسه ، ولم يصبر الرشيد في مبدأ الأمر على نفوذ البرامكة إلا لصغر سنه وقلة تجاربه . فلما صلب عوده واتسعت خبرته وشعر بحقه لم يعد للصبر عنده موضع ولا مساع .

وقد وجد خصوم البرامكة من العرب وعلى رأسهم الفضل بن ربيع وكاتب البرامكة إسماعيل بن صبيح ، مجال السعاية واسعاً ، فأقبلوا يخبون فيه ويوضعون فأوهما الرشيد بما يصح أن نعتبره السبب المباشر في إيقاعه بهم ، أوهموه أن البرامكة على اتصال بخراسان التى انبعثت منها الثورة بالأمويين ، وأن الجيش الضخم الذى حشده الفضل بن يحيى هناك لتأمين الحدود الشرقية في الظاهر إنما هو في الواقع لأمر أجل وغرض أعظم . وأن موسى بن يحيى على اتصال بخراسان وأنه يكاتب أهلها ليسير إليهم ويخرجهم عن طاعة الخليفة . وصارت الكتيب ترد على الرشيد غفلاً من توقيع أصحابها كالسهم المسمومة يرى بها في الظلام ، وكلها تحذر الرشيد من البرامكة وتريه أنهم على وشك أن يدفخوا به في هاوية بعيدة القرار . كل ذلك أثار هواجس الرشيد ، وجعله يعتقد أن الأمر بينه وبين البرامكة هو عين

الجد ، وأنه أمر حياة أو موت . وإذ بلغت الحال ذلك المدى فالويل كل الويل لأولئك الذين جزوه إساءة بإحسان وغدراً بوفاء . لقد نبهوا منه من لا ينام ولا ينيم .

لا شيء أدل على أن الرشيد قد استكمل الدهاء والحزم والتصميم وأن نظام الحكم الذي وصفناه قد عمل فيه عمله فصاغ منه جباراً عنيداً ، من سعيه في استرداد سلطته والتقكيل بالبرامكة . فقد سار في الأمر بحذر شديد فاتصل بالجمهور مباشرة وجعل يعنى بما يعجبه ، من إصلاح للنظام المالى استعان فيه بقاضيه أبى يوسف ، وتوفر على الغزو والحج في المواكب الفاخرة راكباً وماشياً ، واصطفاع للطبقة المفكرة من فقهاء وعلماء وشعراء ، وإغداق للأموال على الناس وبخاصة في حجته التي حجها عام ١٨٦ ، وبالأخذ الشديد لنفسه مقتدياً في ذلك بحده المنصور . وقد تم له ما أراد فعلت مكائنه في النفوس واشتدت هيبة الناس له . عند ذلك تنكر للبرامكة ولكن في حيطة واحتراس ، فلما عاد من الحج وكان بمكان يقال له (العمر) قريب من الأنبار أنفذ أوامره في ليلة واحدة بقتل جعفر بن يحيى واعتقال سائر البرامكة واستيصفاء أموالهم . ثم إنه أمر بتقطيع جثة جعفر ونصبها على جسور بغداد الثلاث ، وببسط العذاب على يحيى والفضل حتى ماتا في السجن ، ونهى الشعراء عن أن يرثوا البرامكة أو يذكروهم في شعرهم ، وتوعد من يفعل منهم ذلك . وتقول المصادر الفارسية إن الرشيد قتل البرامكة نحو ١٢٠٠ نفس ، ولكن المصادر العربية وهى الأوثق لا يؤخذ منها ذلك والحق أن البرامكة إنما نكبوا في سلطانهم وأموالهم بدليل أن ذريتهم بقيت بعد هذه الكارثة أجيالاً طوالاً .

وقد ظلت جثة جعفر منصوبة على جسور بغداد حتى مر بها الرشيد وهو متوجه إلى خراسان عام ١٩٢ فأمر بإزالتها وإحراقها . يقول صاحب الفخرى في كتابة رواية عن بعض معاصرى الرشيد « دخلت الديوان فنظرت في بعض تذاكر النواب ، فرأيت فيها أربعائة ألف دينار (!) ثمن خلع جعفر بن يحيى الوزير ، ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبوارى لإحراق جثة جعفر ويحيى فعجبت من ذلك » .

لقد شفى الرشيد نفسه بنكبة البرامكة ولكنه اشترى ذلك بالثمن الغالى ، فإن الاضطراب الذى أصاب دولاب الإدارة العامة وعدم كفاية آل الربيع الذين خلفوا البرامكة

كل ذلك اضطر الرشيد إلى دوام الحركة غربا وشرقا لإخماد الثورات التي كان يعهد من قبل بإطفاء نائرتها إلى البرامكة ، وقد أدرك الرشيد خطأه ولكن بعد أن سبق السيف العدل فاشقذ به الندم وتوبيخ الضمير وأخذت صحته تضعحل ، وسلط عليه الأرق ؛ فإذا نام فنوم مروع بالأحلام المفزعة . وغدا محتاجاً إلى من يسامره في جوف الليل لينفي عنه الوحشة كما أصبح محتاجاً إلى من يدخل السرور على قلبه الوجل ، فانخذ مضحكا اسمه ابن أبي مريم المديني ، وصار يرتاح إلى الوعظ والتزهيد في الدنيا ، فإذا وعظه ابن السماك أو أشده أبو العتاهية خشع قلبه وفاضت دموعه . على أن شر ما ابتلى به الرشيد بعد ذهاب البرامكة فتور الملاقة بينه وبين رعيته ، فقد أصبح مخوفاً مرهوباً بعد أن كان مهيباً محبوباً . وصاروا يشبهونه بالدهر في تقلبه وتخونه . قال أبو نواس وقد مر بعد ذهاب البرامكة بدور آل الربيع :

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهر لم يرع عهداً ليحيى غير راع ذمام آل الربيع

حتى أبنائه ، فإنهم أصبحوا يستطيعون حياته ويتمنون زوالها . قالوا إنه لما سار سنة ١٩٢ إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الصفار «سايره الصباح الطبرى فقال له يا صباح ! ما أظنك ترانى أبدا ! فدعا له . فقال ما أظنك تدري ما أجد ، قال الصباح : لا والله . فعدل عن الطريق ، واستظل بشجرة ، وأسر خواصه بالبعد فكشف عن بطنه فإذا عليه عصاة حرير ، فقال هذه علة أكتمها الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدى على رقيب ، فسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا ويحصى أنفاسي ويستطيل دهرى . وإن أردت أن تعلم ذلك فالساعة أَدعو بداية فيأتوننى ببردون أعجف قطوف ليزيد علتي . فأكتم على ذلك . فدعا له بالبقاء . ثم طلب الرشيد دابة فجاءوا بها على ما وصف ، فنظر إلى الصباح وركبها .»

ولم تطل حياة الرشيد ، فقد اشتدت به العلة في خرجته هذه وساء خلقه حتى إنه لما جيء بأخى رافع بن الليث قتله شر قتلة وهم بأن يفعل مثل ذلك بطيبيه جبرائيل بن بختيشوع لأنه أخطأ في علاجه لولا أن الموت عاجله بمدينة طوس فدفن بها ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من عام ١٩٣ هـ .

إذا كان الرشيد لم يوفق بوجه عام في مجال السياسة الداخلية ، فإنه كان على عكس ذلك في ميدان السياسة الخارجية ، فقد أظهر فيه نشاطا ومرونة وكياسة تشهد له بالبراعة الدبلوماسية . كما يؤخذ من المصادر العربية التي تعرضت لعلاقته بالدولة البيزنطية ومن المصادر الأوربية التي تعرضت لعلاقته بشرلمان ملك الدولة الفرنجية . لقد كان في العالم الإسلامي والعالم المسيحي إذ ذاك أربع دول كبيرة : اثنتان إسلاميتان متعاديتان هما الدولة العباسية والدولة الأموية بالأندلس واثنتان مسيحييتان متعاديتان كذلك هما الدولة البيزنطية والدولة الفرنجية وكانت الحرب متصلة بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ؛ من أجل ذلك نجد الرشيد يحصن النفور الشامية والجزرية ويتولى بنفسه غزو الروم ويفرض الجزية على ملكتهم إيريني وملكهم نففور الذي جاء بعدها . وكذلك كانت العلاقة مقطوعة في الغرب بين شرلمان وأموي الأندلس . وقد أسفرت هذه الحال عن تقارب بين بيزنطة والأندلس وتقارب مثله بين الدولة العباسية والدولة الفرنجية . ولكن لم يتم اتفاق بين بيزنطة والأندلس ، في حين أن الرشيد وشرلمان تبادلوا السفارة والهدية ، وأبرم بينهما اتفاق لا ندرى مضمونه بالدقة . غير أن قرائن الأحوال تدل على أن الرشيد تعهد بحماية حجاج أوربا الغربية من عدوان البيزنطيين عليهم ببيت المقدس ، وكانوا يخالفون في مذهبهم الديني أهل أوربا الغربية ، كما تعهد شرلمان ألا يعين بيزنطة على الرشيد ، وأن يغير على الأندلس ، فما غلب عليه منها تولى حكمه باسم الرشيد . قالوا : ومن أجل ذلك بعث إليه الرشيد بخمسة وعلم عباسي .

وقد انتفع الرشيد وشرلمان كلاهما بهذا الاتفاق ، فأوغل الرشيد في أرض الروم ، كما أوغل شرلمان في شمال الأندلس وشرقها مع إقراره العمال المسلمين على ما غلب عليه . ويذهب المؤرخ الإنجليزي بكل إلى أن الرشيد أصبح بقلبه على نففور البيزنطي بالحرب ، وبتغلبه على شرلمان بالسياسة قد حاز من سعة الملك ما يفوق ملك الإسكندر المقدوني .

ومع ذلك لم تكن السياسة بمعناها المزدوج المجال الذى ظهرت فيه براعة الرشيد ومقدرته الإنشائية . إنما سطعت النواحي النيرة من نفس الرشيد فى مجال العلم والفن ، وهو فى ذلك يشارك غير واحد من عظماء المستبدين المستنيرين أمثال الإسكندر وفردريك الأكبر و نابليون ولويس الرابع عشر وكبار سلاطين آل عثمان . وكان الرشيد نفسه من أوحد رجال عصره علماً وفقهاً وأدباً . كان لا يبنى فى تحصيل العلم حتى بعد أن استخلف . يقول السيوطى : إن المأمون أخذ الحديث عن أبيه ، ويقول رواية عن القاضى الفاضل : « ما أعلم أن للملك رحلة قط فى طلب العلم إلا للرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله . قال وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى خزانة المصريين ، قال ثم رحل بسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف ولا أعلم ثالثاً لهما » وللرشيد شعر رقيق وصل إلينا بعضه . فمن ذلك قوله يرثى جارية له اسمها هيلانة :

فأرفت عيشى حين فارقتها فما أبالى كيفما كانا
كانت هى الدنيا فلما ثوت فى قبرها فارت دنيانا
قد كثر الناس ولكننى لست أرى بعدك إنسانا

على أن فخر الرشيد فى هذا المجال ليس بآثاره الشخصية ، ولكن بإقباله على العلماء والفقهاء والشعراء والموسيقيين واجتذابه إياهم إلى العاصمة بما كان يرفدهم به من العطايا الجسام ليكونوا هالة هو بدرها ، وعقداً هو واسطيقه . وقد حفلت بغداد فى عهده بأقطاب العلم والأدب والفن ، حتى كان الرشيد لا يعدم على بابه واحداً أو جملة منهم ليلاً ونهاراً . من هؤلاء الأصمعى وأبو عبيدة الراوى تان اللغويان ، والكسائى النحوى ، والواقدى المؤرخ ، وأبو يوسف الفقيه ومروان بن أبى حفصة ، ومسلم بن الوليد ، وأبو العتاهية وأبو نواس والعباس بن الأحنف وكلهم من فحول الشعراء . وقد نافست النساء الرجال فى ذلك الميدان فكثرت الجوارى الأدبيات وكان للسيدة زبيدة مائة جارية كلهن يجدن حفظ القرآن .

وكان الرشيد يعقد لكل طبقة من هؤلاء مجلساً خاصاً ، فالعلماء مجلس يتبسط معهم فيه ولا يأنف أن يعلم فيه منهم ، وللشعراء مجلس يسمع فيه أشعارهم وينقدها ويحيزهم عليها بالجوائز السنية . والمغنين مجلس يسمع فيه الرشيد غنائهم من وراء حجاب ، فإذا سُرَّ بما يسمع وطرب أمر فرفعت الستارة المضروبة بينه وبينهم واستأنس به أهل المجلس : ومن كبار معنى ذلك العصر إبراهيم وإسحق الموصليان وابن جامع .

وكان للبرامكة ولآل الربيع مجالس من هذا القبيل . قال المسعودي : كان يحيى بن خالد ذا بحث ونظر وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الفحل . فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده « قد أكرتم الكلام في السكون والظهور ، والقدم والحدوث ، والإثبات والنفي ، والحركة والسكون ، والمماس والمباينة ، والوجود والعدم ، والجر والظفرة ، والأجسام والأعراض ، والتعديل والتحرير ، والكمية والكيفية ، والمصاف والإمامة أنص هي أم اختيار ، وسائر ما يورد من الكلام في الأصول والفروع ؛ فقولوا الآن في العشق على غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ما سنفح له فيه وخطر بباله . فقال . . . » كان لهذه المجالس العلمية أثر بعيد في تكوين اللغة العربية وتهذيبها وبعث النهضة العلمية الإسلامية ، وقد اقتدى المأمون بالرشيد في عقدها . ثم سرت عادة عقدها إلى الأندلس فكانت من دواعي رقة الأدب الأندلسي وعذوبته .

تلك شخصية الرشيد كما يعرفها التاريخ أو كما تصورها لنا الصفحات الكثيرة التي أفردتها لتاريخه وأخباره كبار المؤرخين وأصحاب التراجم كالطبري والمسعودي وأبي الفرج الأصفهاني . فهي في جملتها شخصية حاكم مستبد مستنير ، فيه ضعف الاستبداد وقوة الاستنفار ، فهو حريص على الأبهة والعظمة ، قليل الاتزان في تصرفاته ، إن رضى بلغ غاية الرضا وإن سخط كان طائش السيف ، مفرط العقوبة ، لا يعرف العفو عند المقدرة ؛ حقوقه غير قادر على الحب الصحيح والولاء الصادق ، ولكنه مع ذلك سياسي ماهر قد ترك دولته وهي أقوى وأغنى دول الأرض ؛ ثم هو فوق ذلك كله من أكثر ملوك الأرض حبا للعلم والفن والأدب وأشداهم تشجيعاً للعلماء والأدباء والفنانين .

ذلك هو الرشيد في التاريخ ، أما الرشيد في القصص فإنسان آخر ، هناك طائفة من الملح والنوادر والقصص منشورة في بعض كتب التاريخ والأدب ، وفي كتاب « أعلام الناس » للأتليدي وفي كتاب (ألف ليلة وليلة) وهي في مجلتها تصور لنا الرشيد رجلاً صاحب رسالة وتهاون ؛ ضعيف الفخوة والغيرة على عرضه ، يشتهي محارمه ويفتيه قاضيه أبو يوسف بما ينيله بغيته ؛ قد اصطنع أبانواس ، وصبر على عبثه ومجونه وأذن له في أن يدخل على حرمة وشغف بجعفر البرمكي حتى أصبح لا يطيق فراقه وحتى كان يجلس معه في قباء يضمهما معاً ، وحتى عقد له على أخته العباسة التي كان لا يطيق فراقها هي أيضاً بعد أن حظر عليهما أن يتامسا ! الحق أن هذه الأخبار كلها مفقولة موضوعة وأنها أثر من آثار الشعوبية التي حاولت الخط من قدر الخليفة الذي أوقع بالبرامكة ومن أقدار رجاله النابيهين ؛ وإلا فما بال ديوان أبي نواس نفسه وما بال كتاب الأغاني لا يكادان يشتملان على خبر واحد يفيد انقطاع أبي نواس إلى الرشيد وجراءته عليه بمثل ما ترويه الملح والنوادر الآنفة الذكر ؟ يقول ابن منظور صاحب لسان العرب في كتابه « أخبار أبي نواس » وقال بعض المترجمين ممن يحيط علماً بأحوال أبي نواس : إن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات ؛ وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين « ولا شك أن في هذه الرواية مبالغة كما يرى من يتصفح شعر أبي نواس . فقد مدح أبو نواس الرشيد واعتذر إليه ، ورثاه .

وهناك حكايات أخرى واردة في (ألف ليلة وليلة) تصور لنا الرشيد في صورة ثالثة : تصوره أبا لرعيته رحماً محباً للفنون والآداب ، يستدعي الرواة والشعراء فيقصون عليه طرائف الأخبار وينشدونه روائع الأشعار فيجيزهم بالجوائز السنوية ؛ كما تصوره حاكماً عادلاً قوياً مبسوط السلطان على الإنس والجن ، ساهراً على مصلحة رعيته يتخفى هو وجعفر البرمكي ومسروور السياف في زى تجار غرباء وينزلون إلى شوارع بغداد وأحيائها يتعرفون أحوال الناس وعمال الحكومة ، فيطلعون على أمور عجيبة وشئون غريبة ، فإذا كان الغد واستوى الخليفة في مجلسه أرسل في طلب من يكون قد أثار في الليلة الماضية عجبه أو غضبه فيعاقب المفسد ويثيب المحسن ، ويزوج المتعاشقين ، ويصلح بين المتخاصمين .

هذه الحكايات كتيب أغلبها في بغداد ومصر في العصور الإسلامية المتأخرة عن عصر الرشيد أى إبان اضطراب الدولة الإسلامية وانحطاطها . فكان هم القصاص أن يشيدوا بالعصر الإسلامي الذهبي عصر الدولة العباسية الأول . فصوروه عصر حكومة أبوية قوية عادلة ، وعصر حرية شخصية يجد فيه كل من الصالح والطالح حاجته وأربه . وقد اختاروا الرشيد دعامة لقصصهم دون غيره من الخلفاء لأن الرشيد قد أصبح بمحاسنه ومساوئه أشهر الخلفاء على الإطلاق . فشخصية الرشيد هنا شخصية عصر أكثر مما هي شخصية إنسان .

وبما تستريح إليه نفس المؤرخ في هذا المقام أن شخصية الرشيد الذى تصوره الحكايات المذكورة ، لا تتعارض في جوهرها مع الناحية الطيبة من حياة الرشيد التاريخي ، ناحية الجود والكرم وحب العلم والفن . هنا فقط تلتقى شخصية الرشيد التاريخية بشخصيته القصصية فتدخل الثانية على الأولى مقدارا غير قليل مما كتيب لها من الرءاء والروعة والخلود .

أم الحسين

السيدة زبيدة *

هي زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية . واسمها في الأصل « أمة العزيز » ، وكثيراً ما تكنى بأُم جعفر ؛ وإنما لقبت بزبيدة لأن جدها المنصور كان يرقصها وهي صغيرة ويقول : يا زبيدة ! يا زبيدة ! وذلك لسمها وبضاختها ، فلزمها هذا اللقب وغلب عليها .

ولدت سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت في مدينة المنصور نشأة الأميرات العباسيات في ذلك العصر ، فتفقت أحسن ثقافة ، وأدبت أكمل تأديب ؛ هذا إلى عقل راجح ، وذكاء متوقد ، وإرادة قوية ؛ ومن أجل هذه الخلال كلها اختارها الخليفة المهدي زوجاً لابنه هارون ، فأعرس بها في عام ١٦٥ هـ . ومن ذلك الوقت إلى أن توفيت في سنة ٢١٦ هـ ، كانت السيدة زبيدة ألمع شخصية نسوية في العالم الإسلامي كله ؛ ولعلها من حيث الشهرة والمكانة التاريخية لا تقل عن زوجها الرشيد . وما أمر سخريه الأقدار بهذا العاهل الجبار الذي قارع القياصرة ، وأذل الجبابرة ، عند ما تضع يازائه في النفوذ والسلطان والشهرة في الحياة وبعد الموت امرأة هي زوجته السيدة زبيدة . ولقد شهدت زبيدة في مدى خمسين عاماً من الأحداث الجسام ما شهدت ، وذاقت من إقبال السعد وإدباره ما ذاقته ؛ ومع ذلك بقيت هي هي ، سيدة جليلة ، وملكة عظيمة .

لعل أول مشكلة واجهتها زبيدة بعد زواجها من الرشيد ، هي نفس المشكلة التي تواجهها كل امرأة تكون في مثل حالها ، وعند مثل زوجها . لقد كانت قصور بغداد عامة

والرشيد خاصة عاصرة بالجمال الأنشوى الجلوب من كافة أقطار العالم الإسلامى المتنوع الأجناس والألوان واللغات ؛ ففيها ما شاءت العين من نساء جميلات لا حصر لهن ، من بين عربيات ، وفارسيات ، وروميات ، ومغربيات ، وصقلبيات ، جهن بل كلهن ملك يعين للخليفة نفسه ، وهو بعد شاب فى ميعة الصبا وعنفوان الشباب ، فوق ما كان فيه من تجرؤ ونزوع إلى الإستبداد بكل شىء فى سلطانه ؛ فكانت زبيدة تخشى بطبيعة الحال أن تغلبها على قلب الرشيد من عساها تكون من هؤلاء النساء أربع منها جمالا ، وأكثر خلابة ، وأشد ذكاء ؛ ولكنها مع ذلك عرفت كيف تروض زوجها الشاب المرح الطروب ، وكيف تحل نفسها من قلبه بالحل الأول . كل ذلك فى رفق ، ولطف ، وكياسة ، وحسن تأت للأمور ، وبصر تام بمدخلها ، ومخارجها . روى صاحب « الأغانى » أنه كانت ليحيى بن خالد البرمكى جارية فائقة الحسن بارعة الأدب والغناء تسمى دنانير ، وكان الرشيد يكثر من المسير إلى دار يحيى ليسمعها ، حتى ألفها واشتد إعجابه بها . وعلمت زبيدة بالخبر فشكته إلى عمومته ، فصاروا جميعاً إليه فعاتبوه ؛ فقال : مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، وإنما أربى فى غناها ، فاسمعوها فإن استحققت أن يؤلف غناؤها ، وإلا فقولوا ما شئتم ! ونقلهم إلى دار يحيى حتى سمعوها عنده ، فعذروه وعادوا إلى السيدة زبيدة فأشاروا عليها ألا تلج فى الأمر ، فقبلت ذلك وأهدت إلى الرشيد عشر جواز منهن أمهات أولاده المأمون والمعتصم وصالح . ومن هذا القبيل ما يروى من أن الرشيد غضب عليها يوماً ، ثم رضاه ، فأبت أن ترضى عنه ، فأرق ليلته ؛ ثم قال : افرشوا لى على دجلة ! ففعلوا ، فقعده ينظر إلى الماء وقد رأى فيه زيادة عجيبه ، فسمع من بعيد مغنياً يعنى بهذه الأبيات :

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك إلا حين خبرت أنه يمر بواد أنت منه قريب
يكون أجاجاً ماؤه فإذا انتهى إليكم تلقى طيبيكم فيطيب
فيما ساكني شرق دجلة كلهم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

فسأل الرشيد عن الناحية التى فيها الغناء ، فقيل دار ابن المسيب ، فبعث إليه : أن ابعث بالمغنى ، فإذا هو الزبير بن دحمان ، فسأله عن الشعر ، فقال : هو للعباس بن

الأحف ، فأحضر واستنشد فأنشده إياه . وجعل الزبير يغميه ، والعباس ينشده حتى أصبح الصباح ؛ وقام فدخل إلى السيدة زبيدة ، فسألت عن سبب دخوله فعرفته ، فوجهت إلى الشاعر بألف دينار ، وإلى الغني بمثلها . ولا شك أن الأمر كله كان مدبراً ، وأن زبيدة كانت صاحبة هذا التدبير اللطيف .

بهذه المهارة وتلك اللباقة عرفت زبيدة كيف تروض مليكها الشاب وتطامن من جماحه وكيف تضمن ولاءه لها وإخلاصه لحبها . ولو أنها تملكها الغيرة الطائشة وساورها الجزع ممن كن يغالبها على قلب الرشيد ، فأكبر الظن أنها كانت هي التي تخرج من الميدان مهزومة مغلوبة على أمرها . على أن زبيدة لم تشأ أن تكون منزلتها من قلب زوجها مؤسسة على ما أوتيت من جمال وحسب ونسب فحسب ، بل أحببت أن تكون عديلتها في الثقافة والفن والأدب ؛ فإذا كان الرشيد تعجبه بلاغة العبارة فليكن بليغة قادرة على أن تذيل الكتب التي ترفع إليها بتوقيعات حسان . روى الجاحظ قال : « خبرني جعفر بن سعيد قال : ذكرت لعمر بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى ، فقال قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع للمعاني » وناهيك بجعفر بن يحيى وعمر بن مسعدة ، فالأول ممن يضرب بهم المثل في البلاغة والثاني من أبلغ كتاب المأمون . وإذا كان الرشيد شاعراً بطبعه ، أو على أقل تقدير عالماً بالشعر عارفاً بحمده ورديئه ، فليكن هي كذلك ، وليأذن لسكبار شعراء العصر أمثال أبي العتاهية ونصيب وسلم الخاسر وأشجع السلي بالإنشاد في حضرتها ، ولينقد شعرهم نقد خبير عارف بالشعر . ولتجز الحسن منهم ، ولتدل المقصر على موضع قصيره . وفي كتاب « الأغاني » أخبار كثيرة تدل على قبول هؤلاء الشعراء لنقدها ونزولهم على حكمها .

وإذا كان الرشيد مولعاً بسماع الموسيقى والغناء ، شديد الإقبال على كبار المشتغلين بهذين الفنون الجميلين فليقتد به زبيدة في ذلك . والحق أنها بلغ من عنايتها بالموسيقى والغناء أن أنشأت في قصورها ما يشبه أن يكون معهداً موسيقياً ؛ فكان عندها مئات الجوارى يأخذن الصناعة عن أكبر شيوخها أمثال إسحاق الموصلي ، وعلاوية ، ومخارق ، وأضرابهم . وكانت

إذا بلغها أن مغنياً مشهوراً وضع لحناً جديداً أمرت جواريتها فأخذنه عنه . ولقد دفعت ذات مرة ثلاثمائة ألف درهم ثمناً لعبد أسود يحيد الغناء . وكثيراً ما كانت تعرض بضاعتها في هذا المجال على زوجها في حفلات تجيد ترتيبها وتنسيقها فيعجب بها أيما إعجاب .

وإذا فقد أصبحت السيدة زبيدة مملوكة على الرشيد مالكة لزمانه ، تصرفه كيفما شئت فينقاد لها كل انقياد . لقد غزت قلبه من جميع أقطاره ، والويل لرجل يلي مصالح أمة إذا غزت المرأة قلبه وملكت عليه زمام أمره : إنها لا تلبث أن تجعله مطيتها إلى السيطرة على مصالح الأمة نفسها ، توجهها على حسب أهوائها ووفق أغراضها ، لا على وفق ما تقتضيه المصلحة العامة نفسها . والسياسة من الأمور التي تستهوي أفئدة النساء الجميلات الموهوبات الطموحات ، وهن لا يحبجن عن التورط في مآزقها إذا ما وجدن السبيل إلى ذلك سهلة ميسرة . وسهامهن في مجال السياسة ، كسهامهن في مجال الحب ، مصميات قاتلات ... ولله در أبي فراس حيث يقول :

ولا تملك الحسناء قلبي كله وإن ملكتها روقة وشباب

ولقد وجدت زبيدة سبيل العرض لسياسة الدولة ممهدة ميسرة ، فركبتها غير هيابة ولا مترددة ، ولقد تعرضت لأدق أمور هذه السياسة وأشدّها خطراً ؛ ونعني بذلك ولاية العهد أولاً والأخذ بناصر الحزب العربي ثانياً .

لقد رزقت زبيدة من زوجها ولدها محمداً الأمين ، ومع أنه لم يكن أكبر أبناء الرشيد ولا أنجبهم ، فإن أمه كانت حريصة على أن يكون الخليفة بعد أبيه . وقد أخذت تسعى إلى ذلك سعيّاً حثيثاً ؛ فهي آناء تدفع الشعراء إلى مدح محمد والإشادة بذكره ؛ وآناً تستغل سلطانها على الرشيد لمصلحة ولدها . وما زالت كذلك لا تفتر لها همة ، حتى نزل الرشيد على مشيئتها وعقد البيعة بولاية العهد لمحمد ، على أن تكون الخلافة لأخيه عبد الله المأمون من بعده . وقسم الدولة بينهما ، وكتب بذلك وثائق أودعها جوف الكعبة توكيداً لما فيها من عهود أخذت على الأخوين وعلى رجال الدولة أجمعين .

على أن الأمين هاشمي الأبوين ، وهو بذلك يمثل الحزب العربي في الدولة العباسية

لذلك العهد . أما أخوه المأمون قفارسى الأم ، وهو بذلك يمثل خؤولته من الفرس الذين أقاموا الدولة العباسية ، وكانوا المصرفين الحقيقيين لأموها . فينبغى أن يحد من نفوذهم ، وأن يرفع من شأن العرب ، ليكون خليفة المستقبل عصبية عربية قوية يستند إليها ويشيد بها أزره . وهنا نجد زبيدة تعمل على تنحية العنصر الفارسى عن إدارة الدولة العليا ، بادئة فى ذلك بالبرامكة بطبيعة الحال . ويظهر أنها كانت لا تريد أكثر من ذلك ، ولكن الرشيد بالغ فى فهم ما أوحى به إليه ، وذهب فى الأمر إلى أبعد من الغاية التى كانت ترمى إليها زبيدة وبنوهاشم ، فنكس البرامكة نكبتهم المشهورة فى عام ١٨٧ . والتبعة فى ذلك واقعة لا على السيدة زبيدة ، ولكن على الرشيد ، فهو الذى لم يحسن تقدير الأمور ، ولا وضعها فى مواضعها .



بلغت السيدة زبيدة ذروة مجدها فى أخريات عهد الرشيد . فلما توفى سنة ١٩٣ بكيته أحر بكاء ؛ فلقد كان زوجها ومصدر عزها وسلطانها ، ولكن عزاها عن فقدته أن أصبح ولدها الأمين الخليفة من بعده ، فامتدت أسباب سلطانها أياما آخر ، كانت قصارا لسوء حظها .

لقد دب ديب الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون ، وتفاقم الشر بينهما . ولقد حرصت زبيدة على أن يصفوا الجو بين الأخوين ، ولكن المقادير جرت بغير ذلك ، فانقصر المأمون ، وقيل الأمين على شر حال ، فكان رزء زبيدة فادحا وخطبها جليلا ، إلا أنها تماسكت وتجلدت وجعلت تروض نفسها على أن تنظر إلى الأمور نظرا هادئا ، فهل المأمون إلا مقبناها ، إن فاته أن يكون ابنها حقاً ، فليتنزله من نفسها هذه المنزلة ، وليعامله على هذا الاعتبار . وينتقل المأمون من خراسان إلى بغداد ، ويعرف لها حقها أول الأمر ، ويتعهدا ببره وصلته ، ثم لا تلبث أن تلبث أن تعرف فى وجهه الجفوة والنفور منها . فتتلف للأسر على عاداتها القديمة فى معالجة الخلاف الذى كان ينشأ بينها وبين الرشيد ، فتطلب إلى أبى العتاهية الشاعر أن يقول شعراً على لسانها فيه عتاب للمأمون على جفائه لها ، ويضع الشاعر هذه الأبيات المملوءة تفجهاً وتوجها :

ألا إن ريب الدهر يدنى ويبعد ويؤنس بالألاف طوراً ويبعد
أصابته لريب الدهر منى يدي فسلمت للأقدار والله أحمد
وقلت لريب الدهر إن ذهب يد فقد بقيت والحمد لله لى يد
إذا بقي المأمون لى فرشيد لى ولى جعفر لم يفقدا ومحمد

ثم أسرت مخارقا المغنى أن يغنى المأمون بهذه الأبيات ، فسأل المأمون عن الخبر فعرفه ،
فبكى ورق لها ، وقام من وقته ودخل إليها ، فأكب عليها يقبل يديها ، وقال لها : يا أمه !
ما جفوتك تعمدا ، ولكن شغلت عنك بما لا يمكن إغفاله . فقالت : يا أمير المؤمنين إذا
حسن رأيك ، لم يوحشنى شغلك . وأتم يومه عندها .

ومهما يكن من تلمظ المأمون لها ، فقد أدركت زبيدة أن قد انقضى زمانها ، ودالت
دولتها ، ولم تعد تفكر إلا فى كيف تخرج من الحياة العامة سالمة موفورة الكرامة . وسرعان
ما سنحت لها فرصة ذلك . فعند ما بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل نرى السيدة
زبيدة تشتبك فى العرس ، وتنفق فى ذلك أموالا ضخمة ، ولكنها فى الوقت نفسه توغى إلى
العروس أن تستأذن لها المأمون فى الخروج للحج ، فلم يتردد المأمون فى إجابة هذا الطلب .

من الناس من إذا تفكر لهم الزمان ضعفوا واستكانوا وعراهم اليأس من كل شيء فى
الدنيا ، فيصبحون أمواتاً وهم أحياء ؛ ومنهم من يحاول أن يثأر لنفسه من جده الماثرفيعيش
لنفسه ولنفسه فقط ، فيصبح بذلك أنانياً أثراً مستهلكاً غير منتج . أما النفوس القوية الكبيرة
فهى التى ترى فرص العمل الصالح غير محدودة ؛ فهم أشبه بالسيل الدافع إذا اعترضته عقبة
استدار حولها ومضى فى طريقه . من هذه النفوس الكبيرة نفس السيدة زبيدة ، فإنها لما
أدركت أن حياة الملك والسلطان قد آذنت بالزوال أو زالت بالفعل ، توجهت نحو عمل الخير
فانفتحت أمامها آفاق لعمل الخير لا حد لها . ولقد اندفعت فى اتجاهها الجديد بنفس
الحمية التى كانت تندفع بها فى صدر حياتها نحو أبهة الملك ومجد الدنيا ؛ فهجرت السياسة
بتاتاً ، وكذلك تركت حياة الفن والأدب اللذين لم تعد ظروفها الجديدة مواتية لها ، واستبدلت
بكل ذلك صنع البر والمعروف ، وقد تعمدت أن تكون فى برها ملكة مسلمة حقاً . فهو لاء

الجوارى المغنيات أصبحن يرتلن القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، حتى لقد كان يسمع من قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن . وهناك على حدود الدولة الإسلامية غزاة مرابطون للدفاع عن الدولة بمهجم وأرواحهم ، فلترفه عنهم ولتتشىء لهم الربط والحصون يقيمون فيها . من ذلك رباط بذخشان ، أنشأته على حدود بلاد الترك في آسيا الوسطى ، وأنشأت عنده حصناً عجيباً ، يقول ياقوت : إن الناس لم يروا مثله . ثم ها هم أولاء حجاج بيت الله الحرام يلقون أعظم المشاق في اجتيازهم بلاد العرب ، فلتتشىء على حافى هذا الطريق الآبار المطوية والبرك العظيمة التى تحتزن فيها المياه ليستقى منها الحجاج . وقد حجت السيدة زبيدة وشهدت موقع مكة بين جبال سود عاليات عاريات من الماء والعشب ، وعانيت ما يلقاه الحجاج من العنت في الحصول على الماء ، حتى إن الراوية لتباع في موسم الحج بدينار ذهباً ، فرأت السيدة أن من أقرب القرب إلى الله أن تيسر وصول الماء من الحل إلى الحرم ، وعلمت أن بأرض الحل عينا تنبع من جبل شاهق يقال له طاديبعد عن مكة بنحو ثلاثين ميلاً . فأمرت السيدة المهندسين بنقب الجبال وإيصال مياه هذه العين إلى مكة ، فتم ذلك ؛ وأنفقت على عمل هذه العين ما يزيد على سبعمائة ألف دينار ذهباً ، وهو عمل هندسى عظيم هائل كما يصفه المؤرخون . ومن طريف ما يتصل بذلك من الأخبار أنه لما تم عمل العين اجتمع المباشرون والعمال لديها ، وأخرجوا دفاترهم لإخراج حساب ما صرفوه ، وكانت في قصر عال مشرف على دجلة ، فأخذت الدفاتر منهم ورمتها في النهر وقالت تركنا الحساب ليوم الحساب . فمن بقى عنده شيء من المال فهو له ، ومن بقى له شيء عندنا أعطيناه » ، وألبستهم الخلع والتشاريف ، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين .

هذه العين هى عين زبيدة التى لا تزال تعرف بهذا الاسم ، والتى تستقى منها جموع الحجاج حتى يومنا هذا . لقد ذهب ملك السيدة زبيدة ، وذهب حسبها ونسبها وجمالها ومجدها الدنيوى . أما مبرتها العظمى فباقية على وجه الدهر يذكرها بها الذاكرون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

بين هرون الرشيد وشارلمان*

رجلا العالم في أخريات القرن الثامن والقرن التاسع — كيف حدثت السفارة بينهما — اختلاف المؤرخين في علاقات الرشيد بشارلمان — الاعتبار الشرعى الإسلامى لهذه العلاقات .

ليس من شك في أن هرون الرشيد وشارل الكبير هما رجلا العالم في أخريات القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع . فالرشيد يمثل الشرق بمدنيته المزهرة أيامئذ وعظمته التى بلغت أوجها ، وشارل الكبير ، أو شارلمان كما درج المؤرخون على تسميته ، يمثل الغرب الآخذ إذ ذاك في الاستقرار على أثر نزوح القبائل الجرمانية من مجالاتها في أوربا الوسطى إلى أملاك الدولة الرومانية الغربية ، والآخذ بتلك الأسباب التى جعلت منه فى النهاية باعث دول أوربا الوسطى والغربية الحديثة بأوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية المعروفة .

وليس من شك في أن كلا من العاهلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تقدير . فقد كانت بغداد منتجع السياح والتجار الوافدين إليها من مختلف الأقطار ، وكان لا يخلو الأمر من أن يجرى على لسان هؤلاء الوافدين في أسواقها وأنديتها وبلاطها ذكر العاهل الفرنجى الكبير . وكانت مدينة آخن هى كذلك مقصد السياح والتجار واللاجئين السياسيين الواردين من الشرق ومن قسطنطينية ورومية والأندلس فكان لا يخلو الأمر من أن يتحدث هؤلاء وهم بعاصمة الدولة الفرنجية عن الحروب الناشبة بين بيزنطة والعباسيين وعن أخبار الأمويين المتغلبين على الجزيرة الإسبانية ، وعن النصر المؤزر الذى أحرزه الرشيد على الجيوش البيزنطية في هضاب آسيا الصغرى وأوديتها وسهولها .

كل ذلك كان من شأنه أن ينقل إلى كل من العاهلين عن الآخر صورة مبهمة غامضة ،

ولكن ترى هل كان الأمر مقصوراً على مجرد السماع أم هل تعداه إلى قيام علاقات سياسية أو ودية بينهما كما ينتظر أن تكون الحال بين رجلين توزعا بينهما أمر المشرق وأخرب لعهدهما ؟

أما المصادر العربية فتسكت عن ذكر أية علاقة بين الرشيد وشرلمان سكوتا مطلقاً ، في حين أن المصادر الفرنجية القديمة تشير صراحة إلى اشتباك العلاقة السياسية والودية بينهما وتبدى القول في ذلك وتعيده ، في تاريخ المملكة الفرنجية *Annales Regni Francorum* وسيرة الإمبراطور شرلمان *Vita Caroli Magni Imperatoris* والمنظومة المعروفة بـ *Poeta Saxo* كلها تروى نبأ ثلاث سفارات وهدايا تبودلت بين شرلمان والرشيد ، وكان شرلمان هو البادىء في كل منها بالاستفسار ، ولم يزد الرشيد على أن كان يرد على السفارة بسفارة وعلى الهدية بهدية مثلها .

* * *

وكانت السفارات طويلة الأمد لبعدها ما بين المشرق والمغرب وصعوبة الانتقال بينهما في ذلك الزمان ؛ فالسفارة الأولى استغرقت ما بين عامى ٧٩٧ و ٨٠١ ، وذلك أن شرلمان بعث في أواخر عام ٧٩٧ وفداً مؤلفاً من سفيرين فرنجهيين يقال لأحدهما سيجسمند وللآخر لنشفرد ومعهما ترجمان يهودى يجيد العربية اسمه إسحق ، وبعث شرلمان إلى الرشيد على لسان الوفد يلتمس أمورا يغلب على الظن أنها ثلاثة :

(١) أن يعهد الرشيد إلى شرلمان بالقيام على المصالح العباسية فيما يغلب عليه شرلمان من أرض الأندلس ، وأن يشد شرلمان أزر الحزب القائم بالدعوة العباسية في تلك البلاد التى أقطعها بنو أمية عن ملك بنى العباس .

(٢) أن ينعتد بين العاهلين حلف وتعاون من شأنه أن يطلق يد شرلمان فى ملك بنى أمية بالأندلس ويطلق يد الرشيد فى ملك الدولة البيزنطية بالمشرق .

(٣) أن يسهل الرشيد لزوار بيت المقدس وحجاجه من الفرنجة وأتباع الكنيسة الكاثوليكية سبيل زيارته وحجه ، وأن يعفيهم من القيود والتكاليف التى وضعها الرشيد

إذ ذاك على أهل الذمة ، وأن يحى أولئك الزوار والحجاج من عدوان الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية .

وتقول المصادر الفرنجية المتقدمة الذكر : إن الوفد عاد من بغداد يحمل موافقة الرشيد على ما طلب شرلمان ، وأن سبجسمند ونشغرد توفيا أثناء العودة ، فعاد اليهودى وحده . على أن الرشيد لم يكثف بصرف وفد شرلمان مكرما بل رد على السفارة بسفارة مثلها ، فأوفد إلى شرلمان سفيرين أحدهما إبراهيم بن الأغلب الذى صار إليه أمر إفريقية ، وبعث معهما إلى شرلمان بهدية تليق بمقام المهدي والمهدي إليه . فيها عطور وتحف شرقية نفيسة وفيها ساعة مائئة دقاقة وفيل عظيم الخلق يكنى بأبى العباس . وتقول المصادر الفرنجية إن بطرك بيت المقدس أوفد فى نفس الوقت إلى شرلمان راهبا يحمل إليه علما ومفتاح القبر المقدس ومفاتيح مدينة أورشليم نفسها ، واعتبرت المصادر ذلك بمنزلة نقل للسلطة على بيت المقدس وحمايته إلى العاهل الفرنجى .

أما السفارة الثانية فابتدأت عقب انتهاء السفارة الأولى ، فقد أوفد شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٢ (١٨٦ هـ) وفداً كان من بين أعضائه رجل اسمه راد برت ، ولا نعلم بالدقة الغرض من إيفاد هذا الوفد ، ولكننا نعلم أن راد برت المذكور توفى أثناء عودة الوفد إلى مدينة آخن ، وأن الوفد بلغ هذه العاصمة عام ٨٠٦ ، وأن الرشيد قابل هذه السفارة بسفارة مثلها بأن أوفد رسولا تسميه المصادر عبد الله ووجه معه إلى شرلمان بخلعة نفيسة من القصب وبخيمة فاخرة الصنع . ويقال إن الخلعة المذكورة هى التى أدرج فيها بعد جثمان القديس كوثبرت المدفون فى كاتدرائية درهام ، وأنها لا تزال موجودة ، وأنها قد طرزت عليها صور سمك شرقية كما طرزت على حاشيتها بالخط الكوفى الجميل عبارة « لا إله إلا الله » .

وتذكر المصادر الفرنجية سفارة ثالثة بعث بها شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٧ ، ولكن الرشيد لم يعيش حتى يرد عليها بسفارة من قبله فقد توفى بعد ذلك بعامين ، فتولى الرد عليها ابنه المأمون عندما استتب له أمر الخلافة وذلك حوالى عام ٨١٣ .

ولقد أحصى المؤرخ الروسى بارتولد ما تبقى حتى يومنا من التحف والهدايا التى وجه بها الرشيد إلى صديقه شرلمان فإذا هى تشتمل على الأشياء الآتية : بوق من العاج محفوظ

في مدينة آخن ، وسيف محفوظ بمدينة ويانة ، وصينية من الذهب محلاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان وعليها صورة لحسرو الأول مصنوعة من البللور . وهذه الصينية محفوظة في دير سنت دينس ، وقطع من قطع شطرنج شرقى محفوظة في الدير المذكور ، وأبريق من الذهب محفوظ في دير كنتون فليس ، وثمان شوكات من القاج الشوكى الذى يقال إنهم ألبسوه رأس السيد المسيح عند صلبه .

هذه خلاصة ما ترويه المصادر الفرنجية عن العلاقات السياسية والودية بين الرشيد وشرلمان . وقد اختلف المؤرخون الأوربيون المحدثون من أوائل القرن التاسع عشر حتى وقتنا هذا في شأن هذه الرواية اختلافا شديداً ، فمن مصدق لها ومكذب . فيوكفيل وبارتولد أميل إلى تكذيبها إلا في القليل مما أتت به . وريغو وبرهيميه وبكلر يصدقونها وإن اختلفوا في تأويلها . ولكل من الفريقين حجة يدلى بها في الدفاع عن رأيه . وأهم ما يحتاج به الفريق الأول سكوت المصادر العربية المطلق عن ذكر أى شيء يتصل بهذه العلاقات . ويذهب هذا الفريق إلى أن الهدايا التي يقال إن الرشيد بعث بها إلى شرلمان إنما افترضها اليهودى إسحق ، وإن من المستحيل أن ينزل الرشيد عن شيء من حقوقه السياسية لشرلمان . وأهم ما يحتاج به الفريق الثانى انسجام الرواية المذكورة مع الأحوال الدولية العامة في ختام القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع . ويلاحظ بعضهم في هذه العلاقة الهداية التاريخية لعلاقة فرنسا بالشرق الأدنى ، تلك العلاقة التي تمت وتطورت حتى انتهت بالانتداب الفرنسى على سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ونحن على وجه العموم نرى رأى الفريق الثانى الذى يعتمد بالرواية الفرنجية ، ونراها تؤرخ علاقة سياسية نشأت فعلا بين الدولتين العباسية والفرنجية . ولا عبرة بسكوت المصادر العربية ، فالمصادر العربية تكاد تهمل ذكر علاقات الدولة الإسلامية الخارجية إجمالا تاما . وليس يصح في مقام التبدليل التاريخى أن يرفض دليل إيجابى ممكن ومقبول عقلا من أجل دليل سلبى أو ظنى . ثم إن سياق الحوادث العامة في أواخر القرن الثامن يؤيد الرواية الفرنجية إلى حد بعيد ويظهر الرواية العربية في مظهر التقصير . فالمستعرض لحوادث الشرق

والغرب لذلك العهد والمتتبع لملاقة دولها بعضها ببعض يرى أن الدولتين الإسلاميةين العباسية والأموية الأندلسية كانتا أبداً في مكيدة وخصام مكتم ، ولكن تدل عليه أدلة كثيرة لا يتسع المقام لسردها ؛ كما يلاحظ أن الدولتين النصرانيتين الكبيرتين البيزنطية والفرنجية ، كانتا تقفان بعضهما من بعض نفس الموقف الذي كانت تقفه الدولتان الإسلاميتان بعضهما من بعض . وكانت البابوية منحازة إلى جانب الدولة الفرنجية ، وذلك بسبب الخلاف المذهبي بين كنيسة القسطنطينية ورومية ، وبسبب الثورة التي بعثها أباطرة بيزنطة على عبادة الصور ، وسخط البابوات على هذه الثورة . ثم إن الحروب التي كانت تقع بين الدولتين العباسية والبيزنطية في الشرق كان يقع ما يشبهها ويشاكلها في الغرب بين الدولتين الأموية والفرنجية . فطبيعي والحالة هذه أن يتم نوع من التفاهم على أقل تقدير بين أموي الأندلس وأباطرة بيزنطة ، وهو ما تصرح بمحصوله المصادر العربية الأندلسية وبخاصة كتاب « نفع الطيب » للمقري . وطبيعي كذلك أن يبعث هذا التفاهم تقاهما مثله على أقل تقدير بين ملوك الدولة الفرنجية وخلفاء الدولة العباسية ، وهو ما تصرح به المصادر الفرنجية التي سبق ذكرها . فقد ظهر إذن أن سكوت المصادر العربية عن أمر العلاقة بين شرلمان والرشيد لا ينهض دليلاً على انتفاء هذه العلاقة .

ثم إن الأحداث الدولية التي وقعت في الشرق والغرب في ختام القرن الثامن وبداية التاسع مما يؤيد الرواية الفرنجية . فقد حمل شرلمان من حيث هو « حليف » للرشيد على شمال شرق الأندلس ، وأنشأ الثغور الأسباني على الحد الجنوبي الغربي لفرنسا ، واستبقى عليه عماله من المسلمين ، واستولى على برشلونة عام ٨٠٢ ، وأنشأ علاقات سياسية بينه وبين عمال الثغور الأسبانية مثل مرقسطة وغيرها . كل ذلك في نفس الوقت الذي شد فيه الرشيد الوطأة على ملك الدولة البيزنطية براً وبحراً ، وحمل نفقور على طلب الصلح والرضا بأداء الجزية وذلك عام ٨٠٤ .

بقى أن نوضح للقارئ الاعتبار الشرعى أو « التكليف القانونى » للعلاقة بين الرشيد وشرلمان ، وهو الأمر الذى أشكل على بعض المؤرخين المحدثين مثل برهيهيه ، ففهم من نصوص الرواية الفرنجية أن الرشيد قد نزل لشرلمان عن حقوقه على الأندلس وبيت المقدس ، غير أن الكاتب الإنجليزى بككر قد وفق إلى فهم الأمر على حقيقة ، فقد أدرك أن الخلافة هى الولاية الكبرى فى الدولة الإسلامية ، وأن ما سواها من الولايات متفرع عنها وتابع لها ، فمن حيث الولايات الأندلسية لم يزد الرشيد على أن جعل شرلمان « والياً » عليها من قبله . ولا يعترض على ذلك بنصرانية شرلمان ، فقد جوز الفقهاء (كلما وردى فى الأحكام السلطانية) للخليفة إقراره أمانة الغصب والاستيلاء ولو كان الغاصب غير مسلم نزولاً على حكم الضرورة و بشرط أن يرعى الغاصب مصلحة من فى إمرته من المسلمين . وأما شرلمان على الولايات الأندلسية فى واقع الأمر من قبيل إمارة الغصب والاستيلاء المذكورة . أما مسألة بيت المقدس فالباحث الخبير بأنظمة الدولة الإسلامية لا يرى فيها أكثر من أن الرشيد عهد إلى شرلمان فى رعاية الشؤون الدينية لهذا البلد بدلاً من ولاية الأمر البيزنطيين ، وهو أمر يتفق وما جرى عليه المسلمون منذ قامت الدولة الإسلامية حتى وقتنا هذا ، فقد جروا على أن يسندوا إدارة شؤون أهل الذمة الدينية إلى رجال من أهل الذمة أنفسهم . وإذن فلم يكن ثم نقل لسلطان الرشيد على بيت المقدس إلى شرلمان ولا إنشاء لحماية فرنجية على ذلك البلد تقلدها شرلمان . بل إن حقيقة الأمر أن شرلمان قد وضع نفسه فى الحالين موضع تابع من أتباع الرشيد وعامل من عماله . وربما كانت الخلعة الفاخرة التى بعث بها الرشيد إليه هى الرمز المادى لتلك السيادة وذلك الخضوع .

فإذا عرفنا أن العلاقة السياسية التى وصفناها قد استقرت حوالى عام ٨٠٠ ، وأن البابا قد توج فى العام المذكور شرلمان امبراطوراً على الدولة الرومانية الغربية — على أن يستمد منه العون المادى — وأن الإمبراطور ثقفور البيزنطى قد رضى فى عام ٨٠٤ بحمل الجزية

إلى الرشيد ، استبان لنا أن الرشيد لم يعد في عام ٨٠٤ (١٨٨٨ هـ) خليفة المسلمين فحسب ، بل لقد أصبح من الوجهة النظرية على أقل تقدير السيد الأعلى للعالم المسيحي ، وتلك لعمر الحق منزلة لم ينلها مملك قبله ولا بعده على الإطلاق .

وقد يكون طريفاً أن نلاحظ أن العلاقة بين الرشيد وشرلمان قد نمت وازدهرت وأثمرت في أواخر القرن الثامن الميلادي ، فهي بذلك تتضمن رداً بليغاً صادراً من أعماق الزمن على دعوى المدعين بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا . لقد التقيا وتصافحا منذ أكثر من ألف عام على نحو قد يعجب له أبرع ساسة القرن العشرين .

الرشيد وأبو نواس*

شخصيتان معروفتان مألوفتان عند الخاص والعام ، ومعدودتان من وجوه كثيرة أعجب شخصيات العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري : الأولى شخصية شاعر عربي أعجى الأصل تنافت فيه فلسفة الأعاجم الإباحية القائمة على الاستهزاء بالمواضعات والمقائد ، وعلى الاستمتاع باللذة ، مشروعا وغير مشروعا ، مقبولا ومردوها ، ثم راح يصوغ هذه الفلسفة البائرة المبيرة في شعر سهل بليغ لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . فغدا بحق إمام شعراء مذهب اللذة في العربية وحامل لوائهم على الإطلاق . أما الشخصية الثانية فشخصية ملك عربي تنافت فيه فلسفة سياسة ذلك الزمان القائمة على الاستبداد ، والجبروت والعصبية ، والعقيدة الجامدة ، مع ما يمتاز به العربي المترف عادة من رقي الذوق ، ودقة الإحساس ، ولطف المزاج .

وإذا كانت فلسفة أبي نواس قد عادت عليه بتعرق الخلق ، وشذوذ الشهوة ، فقد عادت على الرشيد فلسفته بصلاصة الرأي وجود العقيدة والتهالك على كل ما يمسك عليه سلطانه خيراً كان أو شراً . من أجل ذلك نستجيز أن نستعير تعبيراً فرنسياً شاع في أوروبا في أواخر القرن الماضي Fin. desiécle وأعطاها الكاتب الألماني الأشهر ما كس نوردوباغا علمياً خاصاً^(١) فنسمى أبا نواس « شاعر آخر الزمان » والرشيد « ملك آخر الزمان » كذلك . ولأمر ما شاءت الأقدار أن يفارق كل منهما هذه الدنيا في العقد الأخير من القرن الثاني الهجري .

جمعت بين هاتين الشخصيتين العجيبتين جوامع الزمان والمكان والفن ، ولكن باعدت بينهما مقتضيات فلسفة كل منهما . فترددت الصلة بينهما بين السلب والإيجاب ، والوجود والعدم ، وهذا هو المؤلف مع فلسفة الرجلين والمتفق مع الثابت المستيقن من

(*) مجلة الهلال أغسطس ١٩٣٦ .

(١) في كتابه « الانحلال » Degeneration : الباب الأول ومؤداه التحلل من قيود العرف والأخلاق .

أخبارها . بيد أن أخباراً محرفة منحولة تؤكد توثق الصلة بينهما إلى المدى الذى يكون عادة بين الأوداء والخلطاء ، غير مبالغة ما بين الرجلين من تفاوت فى فلسفة الحياة واختلاف فى المزاج . كما أن طائفة عظيمة أخرى من الحكايات أبدعها خيال القصاص فى شتى العصور الإسلامية قد ذهبت فى تصوير الصلة بين أبي نواس والرشيد كل مذهب مطرحة كل اعتبار ، اللهم إلا اعتبار الرغبة فى تفسكه القارىء وإمتاعه . . . والآن فلنعرض لكل ذلك بشيء من التفصيل .

ولد أبو نواس بالأهواز حوالى عام ١٤٠ ونشأ وتعلم بالبصرة . ثم ارتحل إلى البادية فى طلب اللغة وفصاحة اللسان . ثم انتقل إلى الكوفة للأخذ عن علمائها . فلما اكتملت مواهبه ونضج شعره ارتحل إلى بغداد بلد العلم والأدب والسياسة العليا فى ذلك الزمان كما كانت بلد الحياة الماحنة الخليعة التى يؤثرها من كان مثل أبي نواس . فاتخذها الشاعر مهاجراً ولزمها حتى آخر حياته إذا استثنينا رحلته القصيرة إلى مصر . والظاهر أن مجرته إلى بغداد كانت حوالى عام ١٧٩^(١) على أكثر تقدير ، أى فى الوقت الذى كان البرامكة فيه قابضين على زمام الأمر فى الدولة الإسلامية ، فكان طبعياً أن يتوجه إليهم أبو نواس بشعره وقد مدحهم ونال جوائزهم السنية . وكان آخر شعر مدحهم به قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أربع البلى إن الخشوع لباد عليك ، وإنى لم أخنك ودادى

قالوا ولما سمعها الفضل بن يحيى تطير منها تطيراً شديداً . ولم يمض أسبوع على سماعها لها حتى نكب ونكب معه قومه . ونحن نعرف أن نكبة البرامكة كانت عام ١٨٧ ، وإذاً يمكن القول أن أبا نواس منذ دخوله بغداد عام ١٧٩ إلى عام ١٨٧ كان يخص البرامكة من بين رجال الدولة بشعره ، وأنه لم يتوجه إلى الرشيد بمدح فى تلك السنوات الثمان . والحق أننا لنجد فى ديوانه شعراً قاله فى الرشيد ويمكن رده إلى تلك الفترة ، ولا عبرة ب تلك الأبيات التى قالها أبو نواس فى عام ١٧٩ يحث الرشيد على استئجاب الفضل بن الربيع^(٢) :

قولاً لهارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد

(١) وذلك مستفاد من قوله يخاطب جعفر بن الربيع :

ولا تجعدوا بى ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

(٢) ذكر الطبرى أن الرشيد عزل فى عام ١٧٩ محمد بن خالد برمك عن الحجة وولاه الفضل بن الربيع .

أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
فهى فى الواقع مدح فى الفضل بن الربيع ، وقد أوردها جامع ديوان أبى نواس على أنها كذلك .

فلما دالت دولة البرامكة وقامت دولة آل الربيع واستبد الرشيد بالأسر دار أبو نواس مع الفلك الدوار وأقبل يمدح رجال العهد الجديد وعلى رأسهم الخليفة نفسه ، وكان ذلك بدء اتصاله الأدبى بالرشيد . ومن أوائل ما مدحه به قوله من قصيدة :

إني حلفت عليك جهد ألية قسما بكل مقصر ومخلق
لقد اتقيت الله حتى تقاته وجهدت نفسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وصناعة الشعراء إن أنفقتها نفقت وإن أكسبتها لم تنفق

وقوله من قصيدة أخرى :

تبارك من ساس الأمور بعلمه وفضل هارونا على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمناء
إمام يخاف الله حتى كأنما يؤمل رؤياه صباح مساء

وقوله من قصيدة ثالثة :

هارون ألقنا إئتلاف مودة ماتت لها الأحقاد والأضغان
فى كل عام غـزوة ووفادة تقبت بين نواها الأقران
حج وغزو مات بينهما الكرى باليعملات شعارها الوخدان

وهذا الشعر كله يدل على أن أبا نواس إنما مدح به الرشيد عند ما ظهر الرشيد بمظهر البأس والجبروت ، وعند ما غدا مخوفا مرهوبا لا تؤمن بوائقه ، وعند ما جد فى جهد الروم وأذل عاقلهم ، وعند ما أصبحت بضاعة الشعراء رهن مشيئته ، إن شاء نفقت وإن شاء كسدت . والرشيد إنما ظهر بكل ذلك بعقب إيقاعه بالبرامكة . بل إن المصادر التاريخية نفسها تعيننا على تاريخ القصائد الثلاث المذكورة . فالراجع أن القصيدة الأولى مدح بها

أبو نواس الرشيد عام ١٨٧ عند ما انتصر الرشيد على نقفور البيزنطى انتصاره المشهور^(١)
أما القصيدة الثانية فثبت أن الشاعر نظمها عام ١٨٩ عند ما أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد
لابنه القاسم ولقبه بالموثق^(٢)، وأما القصيدة الثالثة فقلما عام ١٩٠ عند ما اتخذ الرشيد
قلنسوة مكتوباً عليها « غاز حاج »^(٣).

على أن هذه المدائح وغيرها من شعر أبى نواس فى الرشيد لم تعد أن تكون من قبيل
الشعر الرسمى الذى يقال فى الظروف والمناسبات الخاصة . وليس فيها ولا فى عامة شعر
أبى نواس ما يفيد أن أبى نواس تجاوز فى علاقته بالرشيد هذه الحالة إلى أن يكون من شعراء
البلاط فضلاً عن أن يكون من جلساء الرشيد وندمائىه . بل ليس فى شعر أبى نواس ولا فى
الثبت من أخباره ما يفيد أنه كان ينشد الرشيد شعره إنشاداً على نحو ما كان يفعل بعض
معاصريه أمثال أبى العتاهية و مروان بن أبى حفصة مثلاً^(٤) . لقد كان ثم أمور تحول بين
أبى نواس وبين هذه الغاية . لقد كان أبو نواس قبيح السيرة ، ماجناً ، سكيراً متهماً فى نفسه
مقياً بحانات الكرخ ومواخيرته يشرب الخمر ويعبث بالفلان ، وكان يصرح بكل ذلك فى
شعره وخاصة خمرياته حتى شاع أمره فى بغداد . ثم إنه قد خاض فى أمر العصبية العربية
وتقلب فيها تقلباً منكراً ، فادعى أول الأمر نسب النزارية وهما اليمن ثم عاد فادعى نسب
اليمن وهما النزارية بقصيدة قوية أولها :

ليست بدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها

ثم صار شعوبياً وبرئ من العرب قاطبة وهجاء وادعى الأعجمية^(٥) . وسبب ثالث قد
به عن الاتصال بالرشيد ، هو فساد عقيدته وزندقته ومجاهرته فى شعره بأراء الثنوية . فهذه
الأمر كلها لم تكن لتجعل الرشيد يقبل على أبى نواس ويأذن له فى غشيان حضرته وإنشاده ،
وهو بعد الحريص على مظهره الإسلامى ، المتزمت فى أمر العرض والشرف ، الفخور بنسبه
العربى النزارى القرشى . والحق أن الرشيد من حيث هو خليفة المسلمين وحارس الدين
والآداب ، لم يتردد فى الضرب على يد أبى نواس ، وفى أن يمسه من حين لآخر ببعض

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ . (٢) ج ١٠ ص ٩٦ . (٣) الطبرى ج ١٠ ص ٩٩

(٤) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ .

(٥) أخبار أبى نواس الورقة ٨٥ من النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية .

العقاب ؛ فقد روي أنه حبسه في شرب الخمر^(١) وأنه حبسه طويلا بسبب قصيدته التي هجا بها
الزارية ، وأنه حبسه كذلك من أجل جهره بالزندقة وعقائد الثنوية ، وكان حساده وأعداؤه
من جلساء الرشيد يقعون فيه عند الخليفة من هذه الناحية الدقيقة الحساسة . روي^(٢) أن
الرشيد جلس مجلسا وأفاض من حضره في المطبوعين من شعراء المحدثين ، إلى أن اتصل
الذكر بالحسن بن هانيء فغمز عليه سايان بن جعفر ، فقال : يا أمير المؤمنين ! كافر بالله .
لا يرعوى عن منكر ولا يأنف من فاحشة . وقد نمي إلى أمير المؤمنين خبره . فقال :
يا أبا عمر ! هل تروى عنه من ذلك شيئا ؟ قال : نعم ! قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظراً في الدين ما الأمر لا قدر صـح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي يذكر إلا الموت والقبر
ثم أنشده قوله أيضا :

باح لـســـــــــــــــــاني بمضمر السر وذاك أنى أقول بالدهر
وليس بهـــــــــــــــــد المات مرتجع وإنما الموت بيضة العقر

فاستشاط الرشيد غضبا . وقال : على بابن الفاعلة . يا فضل ! لا يفوتك الزنديق !
ونعى إلى أبي نواس الخبر فساخ في الأرض ، فلم يقدر عليه أحد . فقال رجل من جلساء
الرشيد : إن أذن أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع مما سمع . قال :
هات ! قال : قوله في غلام نصراني :

تمر فاستحييك أن أتكلما وينثيك زهو الحسن عن أن تسلم
ويهتز في ثوبيك كل عشيية قضيب من الريحان شب منعا
بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى وأن جنوني فيك قد ذرفت دما
أليس عظيماً عند كل موحد غزال مسيحي يعذب مسلما
فلولا دخول النار بعد مصيره عبدت مكان الله عيسى بن مريما

(١) أخبار أبي نواس ص ١٠٩ من الجزء الأول المطبوع .

(٢) أخبار أبي نواس الورقة ١٠١ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية .

فازداد حنق الرشيد عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ! وأشنع من ذلك ، قال : هات !
فأنشده قوله في غلام نصراني :

وملحة بالمدل ذات نصيحة ترجو إجابة ذى مجون مارق
بكرت تبصرنى الرشاد وهمتى غير الرشاد ومذهبي وخلائقي
فأجبتها كفى ملائك إننى مختار دين أفسه وجناتق
والله لولا أننى متخوف أن أبطل

وقطع الإنشاد ، فقال له الرشيد : بماذا ، وبلك ! فاستعفاه ، فقال : وبلك !
بماذا ؟ فقال :

..... . بإمام جور فاسق

قال فضج المجلس بأهله . وأنكر الرشيد نفسه . ثم قال : امض ! فقال :

لتبعته فى دينه ودخلته ببصيرة منى دخول الوامق
إنى لأعلم أن ربي لم يكن ليخصهم إلا بدين صادق

فقال الرشيد للفضل بن يزيد بن المنصور : إن لم يبت هذا السكب فى المطبق لفنكرن
قولاً وفعلاً . فوجه الفضل (فى طلبه) من ساعته ، فأخذ وأودع المطبق ثم أعانه الفضل بن
الربيع إلى أن أطلق ، فقال فى ذلك :

الله فرج لى برأى ال فضل من حلق الكبول
وأقالنى عفت العنا ر وقد أيست من القميل

والظاهر أن أبا نواس قال فى ورطته هذه يستعطف الرشيد قصيدته التى يقول فيها :

بعفوك لا بجودك عدت لا بل بفضلك يا أمير المؤمنين
فلا يتمذرن على عفو وسعت به جميع العالمينا

على أن الرشيد لم يكن بالرجل الذى يخفى عليه مكان أبى نواس من الأدب والشعر
خاصة . لقد كان الرشيد نفسه ذا بصر بالشعر علماً بمراتب الشعراء شديد العطف عليهم
والرعاية لهم . وكان فى قرارة نفسه عظيم الإعجاب بفن أبى نواس مؤمناً بأنه أمام شعراء زمانه

غير مدافع . قال إسماعيل بن صبيح^(١) قال لى الرشيد : يا إسماعيل ! ابنى وصيفة مليحة
فطنة شكلة حلوة متكلمة ظريفة عالمة تسقىنى ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها . قال : فقلت
يا سيدى ! على الجهد . فقال : اجعل قول هذا العيار أمامك — يريد أبا نواس — وامثل
فيها ما حد فى مثلها . فقلت يا سيدى ! وما قوله ؟ قال :

من كف ساقية ناهيك ساقية	فى حسن قد وفى ظرف وفى أدب
كانت لرب قيان ذى معاينة	بالكشع محترف بالكشع مكتسب
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها	وأفعمت فى تمام الجسم والعصب
وجمشت بخفى اللحظ فأجمشت	وجرت الوعد بين الصدق والكذب
تمت فلم ير إنسان لها شهباً	فيمين برا الله من عجم ومن عرب
تلك التى لو خلت من عين قيمها	لم أقض منها ولا من حبها أربى

من أجل هذا التقدير الفنى المحض كان الرشيد لا يبلغ من عقوبة أبى نواس المبلغ الذى
يقتضيه نص الشرع . فكان يجازيه على مجونه ، واستهقاره ، ومجاهرته بالمعاصى فى شعره ،
بمجرد الحبس . ومع ذلك كان إذا كتب إليه أبو نواس من السجن يستعطفه ، أو شفع عنده
شفيعاً ذا خطر ، أقال عثرته وقبل شفاعته فيه وأمر بتخليته سبيله . بل لقد بلغ الأمر بالرشيد
أن انزعج عندما أرجف أهل بغداد بأن أبا نواس قد قتل . قال يوسف بن الداية^(٢) : غاب
أبو نواس عنا وعن إخوانه غيبة طويلة ، فلم نعلم له خبراً وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له
أثراً . حتى مضت له سنة فظنوا أنه قتل ، وبلغ ذلك الرشيد فقال : والله إن صح أنه قتل
لأقتلن قاتله ولو كان محمداً (يريد ابنه الأمين) انظروا كل من هجاه من الناس فاكتموا
اسمه وارفعوه إلى ؟ فارتجت بذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول إذا نحن به قد واثى .
فقلنا له : يا أبا على ! قد غبت هذه الغيبة عنا فعممتنا وظفنا بك الظنون . قال : كنت فى
بيتى . قلنا : ألم تسمع بغمنا لك وقول الرشيد فيك ؟ فلم يبق أحد من إخوانه إلا عدله ،
وقالوا : إن فى هذا تعريضاً لنفسك للآفات ، فأنشأ يقول :

(١) أخبار أبى نواس الورقة ٦٩ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية .

(٢) أخبار أبى نواس : الورقة ٩٨ من النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية .

إني لفي شغل عن العالمين بالروح والريحان والياسمين
إلى آخر القصيدة :

* * *

وجلة القول أن أبا نواس كان يحرص على أن يخلد بعض شعره بنظمه في تلك الشخصية الساطعة المتألثة ، شخصية الخليفة هارون الرشيد . ولكنه كان يعلم ألا سبيل له إلى الانصال بتلك الشخصية فوق هذا القدر . فكان يمدح الرشيد ويستعطفه ولكن « من بعيد » . أما الرشيد فكان يقدر فن أبي نواس ويعجب به أشد الإعجاب ، ولكنه للأسباب التي سبق ذكرها كان لا يستطيع ألا يريد الذهاب إلى أبعد من حد التقدير والإعجاب ، فكان يسمع شعره وينقده^(١) ويعجب به ، ولكن « من بعيد » كذلك . تلك حقيقة الصلة بين أبي نواس والرشيد وذلك مقدار مداها .

* * *

على أن هناك طائفة من الأخبار تزعم أن أبا نواس كان وثيق الصلة بالرشيد ، وأنه كان يدخل عليه ويجالسه ويناديه وأنه كان ملازماً لقصره وأن له وقائع ونوادير مع حرم الرشيد وجواريه . وعندى أن بعض هذه الأخبار يصح إذا وضعنا مكان « الرشيد » لفظ « الأمين » فلا شك أن أبا نواس كان ملازماً لقصر الأمين يناديه ويجالسه ويشاربه ، إلى حد أن استغل المأمون تلك الصلة في التشنيع على الأمين بخراسان^(٢) عند ما استحكمت النفرة بين الأخوين . وقد دعا ذلك الأمين آخر الأمر إلى التشديد على أبي نواس في ترك الخمر وإلى حبسه عند ما كان يعصى أمره . وقد أشار أبو نواس إلى ذلك في شعره . وقد يكون بعض هذه الأخبار صحيحاً كذلك إذا وضعنا مكان اسم أبي نواس اسم « ابن أبي مريم المدني »^(٣) وكان رجلاً مضحكاً فكهما منقطعاً إلى الرشيد في أواخر حياته يسليه ويفرج همومه بنكاتة وطريف أحاديثه .

(١) ديوان أبي نواس : هامش ص ٧٣ (طبع المطبعة العمومية) .

(٢) أخبار أبي نواس : الورقة ٧٢ (من النسخة الخطية) .

(٣) الطبري ج ١٠ ص ١١٤ .

وهناك مجموعة أخرى من الحكايات والنوادر تدور حول العلاقة بين أبي نواس والرشيد وقد أبدعها الخيال في العصور الإسلامية المختلفة . هذه الحكايات لا نجد لها أثراً ما في كتب الأدب والتاريخ المعتمدة كالأغانى والعقد الفريد ، ولكنها حفلت بها كتب القصص وخاصة كتابي « ألف ليلة وليلة » و « أعلام الناس » وهي تصور أبا نواس في صورة رجل مضحك يفكه الخليفة بأشعاره الطليعة المرتجلة ويضحكه بنوادره المستملحة . ولو أجاد واضعو هذه الحكايات السبك لنسبوها إلى ابن أبي مريم المدني المذكور ، ولكنهم نسبوها خطأ إلى أبي نواس . قال ابن منظور صاحب « لسان العرب » ومؤلف كتاب « أخبار أبي نواس »^(١) : وقال بعض المترجمين ممن يحيط علماً بأحوال أبي نواس « إن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه وإنما دخل على محمد الأمين » .

وإذا كان ابن منظور قد بالغ على ما يظهر في نفيه عن أبي نواس رؤية الرشيد فلا شك أن عباراته فيما دون ذلك صادقة الصدق كله .

مع أبي نواس الزاهد*

شعرت من أيام بضيق في الصدر ، وخرج في النفس ، وما أكثر ما يضيق صدر الإنسان وتخرج نفسه في هذه الأيام التي لا تنفك تغاديننا وتراوحنا بأنباء حروب نكراء ، وغارات شعواء ! فتناولت ديوان الحسن بن هاني الشهير بأبي نواس ، لعل أجد في دعاياته ونظراته الهائلة الهائلة بهوم الحياة فرجا مما دهني ، ونخرج مما نزل بي .

وأقبلت أنظر في فهرسة لأتخير منه باباً أقرأ فيه ، فرأيت يشتمل على أحد عشر باباً ، في نقائضه مع الشعراء ، والمدح ، والمراني ، والعتاب ، والهجاء ، والزهد ، والطرده ، والخمرات ، والجون ، وغزل المؤنث ، وغزل المذكر . وما أسرع ما استوقف نظري أن يكون الزهد من بين أبواب الشعر التي طرقها أبو نواس ! وقلت في نفسي : يا عجبا ! أبو نواس الماجن الهجاء ، والسكير العرييد ، يكون ناسكا وزاهداً ! هذه ظاهرة نفسية طريفة ، وناحية من حياة ذلك الشاعر خطيرة ، لم ألق لها بالاً من قبل ، ولعل غيري لم يلق لها بالاً كذلك . فالتعارف المشهور عن الحسن بن هاني أنه مستهتر مسرف على نفسه ، قد ضجبت من استهتاره حانات الكرخ ، وديارات العراق .

وفتحت باب الزهد وأخذت أقرأ فيه وأقرأ ، حتى أتيت عليه قراءة ، فإذا هو يقع في بضع عشرة صفحة كبيرة ، وإذا موضوعاته هي نفس الموضوعات التي يقول فيها الزاهد عادة : من أسف على تضييع ما يجب على العبد نحو خالقه ، وترك الانزجار بالشيب والاتعاظ بالموت ، والترهيد في الدنيا ، والتحذير منها ، والتذكير بالبعث بعد الموت ، والتخويف من يوم الحساب . ولقد وقع في نفسي أن هذا الباب ربما كان موضوعاً على أبي نواس ، وأن الشاعر قد نخله كما نخل كثير غيره من الشعر . فأعدت قراءة الباب في ضوء ما أعلم من

صناعة أبي نواس ، فعرفت فيه الصناعة النواسية نظاماً ومعنى وروحاً . ثم وسعت أفق اطلاعي
على المراجع التي عانيت بترجمة أبي نواس وذكر أخباره ، فوجدت غير واحد من أئمة النقد
المعاصرين لأبي نواس يثنون الثناء الجم على بعض زهدياته . فهذا الجاحظ يقول : لا أعرف
من كلام الشعراء كلاماً هو أوقع ولا أحسن من قول أبي نواس :

أية نار قدح القادح وأي جد بلغ المازح
لله در الشيب من واعظ وناصح لو حذر الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

وهذا أبو العتاهية أكثر الشعراء قولاً في الزهد يقول : قد قلت عشرين ألف بيت في
الزهد ، ووددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس وهي :

يا نواسي توقّر وتعز وتصبّر
إن يكن ساءك دهر إن ما سرك أكثر
يا كبير الذنب عفو الله من عفوك أكبر

وهذا الخليفة المأمون يقول : لو سئلت الدنيا عن نفسها فنطقت لما وصفت نفسها إلا
كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

وإذا فزهديات أبي نواس هي زهدياته حقاً . فما الذي حدث يا ترى حتى تحول هذا
الآبيقوري الزاهب في مذهب اللذة إلى أقصى حدوده ، حتى استحال زاهداً ناسكاً ، وحتى
أصبح يصرف القول في أمور الزهد والتقوى ، والموت والبعث ، والثواب والعقاب ، بعد
أن لبث دهنراً طويلاً يسخر شاعريته في نعت الكاس والطاس ، والغلمان والجواري ، وهجو
الناس والتهجم على مواضع الضعف منهم .

الآن أبا نواس قد مل ارتكاب المعاصي ومقارفة الذنوب ، وكل شيء طال فهو لا محالة
مملول ؟ قد يكون ذلك ، فهو الذي يقول :

ولقد نهزت مع الفؤاة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أنام

أم أن تقدم السن ونذر المشيب وتهدم الجسم هي سر هذا التحول؟ ربما كان الأمر كذلك، فليس من شك في أن أبا نواس توفر على قول الشعر في الزهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره. ولعمري إن خمسين سنة من عمر أبي نواس لتعدل سبعين أو ثمانين من عمر رجل وادع الحياة هادئها، ثم هو بعد الذي يقول :

لله در الشيب من واعظ وناصح لو حذر الفاصح

أم أن أحداث الزمن وعبر الدهر، وما شهد أبو نواس في أخريات حياته من نكبة البرامكة، وموت الرشيد، ووقوع العداوة بين الأمين والمأمون، ومقتل الأمين على شر حال، هي السبب الأقوى في اعتقاده أن الدنيا خداعة غرارة، لا يأمن مكرها قوى ولا ضعيف، ولا ينجو من غدرها غنى ولا فقير؟ ربما كان الأمر كذلك، فهو الذي يقول :

أيارب وجهه في التراب عتيق	ويا رب حسن في التراب رقيق
ويا رب حزم في التراب ونجدة	ويا رب رأى في التراب وثيق
ألا كل حي هالك وابن هالك	وذو نسب في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك راحل	إلى منزل نأى المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لليب تكشفت	له عن عدو في ثياب صديق

ومهما يكن من شيء، فهذه الأمور كلها متفرقة أو مجتمعة، لا تكفي وحدها في تحليل زهد أبي نواس وتنسكه. وأرى أنها كانت تقع على غير موقع إذا لم تصادف من نفسه استعداداً للتأثر بها، هذا الاستعداد هو ضالة الباحث في هذا التحول في حياة شاعرنا الكبير، وهو الأمر الذي أحب أن أنبه عليه وألفت النظر إليه.

لقد كان أبو نواس على الرغم من إسرافه واستهتاره مؤمناً في قرارة نفسه، والمعصية لا تنافي الإيمان — في شرعة العقل على أقل تقدير.

ولإيمان أبي نواس مصدران اثنان: الاعتقاد القلبي، والنظر العقلي. أما الاعتقاد القلبي فأبو نواس فنان عبقرى من غير نزاع، وعباقرة الفنانين لا يتأتى لهم الإبداع والإلهام

إلا بنوع من الإيمان نعرفه في ذلك الإشراف وتلك الوضاعة التي نطالعها فيما ينتجون من شعر ونثر ونغم ورسم وغير ذلك من ضروب الفن الجميل .

أما المصدر الثاني وهو النظر العقلي ، فذلك أن أبا نواس لم يكن فناناً عبقرياً فحسب ، بل كان فوق ذلك عالماً متمكناً من علوم زمانه ، من لغة وأخبار وحديث وفقه وفلسفة ؛ وقد ورد في شعره ذكر الجبر والقدر والتجديد ، والجزء الذي لا يتجزأ ، وطائفة من أخبار القدماء وصدر الإسلام وعلماء المسلمين . وقد بلغ من شأنه في ذلك أن ود بعض العلماء المعاصرين له الأخذ عنه ، لولا ما عرف به من مجون وانحراف عن الجادة . ولا يعدم من يقرأ أخباره وخبرياته ومجونيياته أن يجد في مواضع كثيرة منها تصريحه بأنه يؤمن بالله واحد غفور رحيم ، من ذلك قوله وهو في مقبيل عمره وجدة أمره :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ رباً غفــــــــــــورا
ستبصر إن وردت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيراً
تعض ندامة كفيـــــــــك مما تركت مخافة النار السرورا

وليُنظر القارئ كيف يختم قصيدة له ضمنها ما شاء من ذكر مفاصله واستهتاره ، فهو يقول في ختامها :

حتى إذا الشيب فاجاني بطلعته أفيح بطلعة شيب غير مبهخوت
فقد ندمت على ما كان من خطل ومن إضاعة مكتوب المواقيت
أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما عفوت ياذا العلا عن صاحب الحوت

ويروى الخطيب في تاريخ بغداد أن أبا نواس خرج في أصحاب له إلى مكان طيب نزه ، فجعل أصحابه يصفون الجنة ونعيمها ، والمعاصي التي تحول دونها ، كل ذلك وأبو نواس مهاكت ، ثم قال :

يا ناظراً في الدين ! ما الأمر ؟ لا قدر صبح ولا جبر
ما صبح عندي من جميع الذي تذكر إلا الموت والقبر

قال فامتعضت الجماعة من قوله ، وأطالت توبيخه . فقال أبو نواس : ويلكم ! إني والله لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يفرط على ، وأرجو أن أتوب ويرحمني الله .

والواقع أن أبا نواس كان دائماً الاستصحاب لقوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » . كما أنه اختار من بين المذاهب الكلامية التي ظهرت إذ ذاك مذهباً يلائم حاله ومزاجه . لقد كان الخوارج يكفرون صاحب الكبيرة . وكان المعتزلة يرونه بمنزلة بين الكفر والإيمان . وكان أهل السنة والجماعة يعتبرونه مؤمناً فسق بارتكاب المعاصي . أما المرجئة فكانوا يقولون إنه لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وكانوا يؤملون عفو الله لكل مؤمن عاص . ومن ثم اختار أبو نواس عقيدة المرجئة ، وعبر عن عقيدته هذه في مواضع من شعره :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت اسراً حرجاً فإن حظرك في الدين إزراء
غير أنى على الإساءة والتفريط راج لحسن عفو الله

وإذا فالعوامل التي ذكرناها من سامة المعاصي وتقدم السن وتتابع الأحداث وتهدم القوى ، قد وقعت من نفس أبي نواس موقعاً ، وصادفت من نفسه استعداداً . غير أن الفضل في هذا الوقوع وفي توجيه أبي نواس وجهة الصلاح وإخراج إيمانه من القول إلى الفعل يرجع إلى رجل كان بينه وبين أبي نواس صلة صداقة وإعجاب معاً ، ذلك هو الفضل ابن الربيع وزير الرشيد ثم الأمين ، لقد نبه أبو نواس الرشيد على كفاية الفضل بن الربيع بمقطوعة من شعره مذكورة في ديوانه ، فعرف له الفضل تلك اليد ، فلما ولي الأمين الخلافة أوصل إليه أبا نواس . فلما وقعت النفرة بين الأمين والمأمون ، وندد المأمون في خطبه بالصلة التي بين الأمين وأبي نواس ، اشد ذلك على الأمين ، حتى لقد هم بقتل أبي نواس ، ثم بدا له فأمر به إلى السجن ، وشد عليه في ترك الحجر ، ثم خلصه من السجن الفضل بن الربيع بعد أن استتابه . وقد أشاد أبو نواس بهذه اليد التي أولاه إياها الفضل في شعره أيما إشادة :

أبا العباس ما ظني بشكري إذا ما كنت تغفو بالذم
وإني والذي حاولت مني لمعوج دفعت إلى مقيم

وكنت أباً سوى أن لم تلدني رحماً أو أبرّ من الرحيم
وقال - ولا يخلو قوله من تصوير فكاهي لشخصه في طوره الجديد :
أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك وعودتني والخير عاده
فارعوى باطل وأقصر جهلى وتبدلت عرفة وزهاده
لو تراني ذكرت للحسن البصري في حسن سمته أو قتاده
المسايح في ذراعى والمصحف في لبقى مكان القلاده
وإذا شئت أن ترى طرفه تعجب منها مليحة مستفاده
فادع بى لا عدمت تقويم مثلى وتفتن لموضع السجاده
ترأثراً من الصلاة بوجهى توقن النفس أنها من عباده
لو رآها بعض المرائين يوماً لاشترها يعدها للشهاده
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتني على يدك السعاده

أما وقد تاب أبو نواس توبة نصوحاً ، وارعوى باطله ، واستقامت طريقته ، فقد أحب
أن يتوج حياته بحجة إلى بيت الله الحرام ، يحو بها خطايا ، ويفتح بها صحيفه من حياته
نقية بيضاء ، أمل ألا يكتب له فيها إلا كل ما هو خير له . وانتهاز فرصة خروج حاميه
وراعيه الفضل بن الربيع للحج ، فخرج في صحبته . ولقد حج أبو نواس في صباه أيام كان
فتى من فتيان البصرة ، ولكن شتان بين الحجتين . لقد حج بالأمس لا رغبة في ثوبة ،
ولكن من أجل جارية بصرية اسمها (جنان) أحبها وتيمم حبها ، فلما علم بحجها خرج في
أثرها . وأما هذه المرة فحجه حج تائب منيب إلى الله . والرواة ينحلون حجته الأولى تلبية
نظمها أبو نواس ولبى بها من سمعها من الحجاج . ولكن لا شك أن ذلك غلط من الرواة ،
وأن تلك التلبية الحارة إنما نظمها أبو نواس في حجته الثانية . وها هي ذى تلك التلبية الجميلة
التي يصح أن تكون نشيداً للحج لمن أراد للحج نشيداً . قال أبو نواس :

إلهنا ! ما أعدلك ! مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك لبك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

ما خاب عبيد أملك أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

كل نبي ومملك وكل من أهل لك
سبح أو لبى فلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

والليل لما أن حلك والساجحات في الفلك
على مجاري المنسلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

يا خاطئاً ما أغفلك عجل وبادر أملك
واختم بخير عملك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك

ويعود أبو نواس من حجه فلا تطول حياته ، بل يشتمل عليه مرضه الذي مات فيه سنة ١٩٨ هـ على أرجح الروايات عندنا . وكانت علته على ما يؤخذ من وصفه لها علة السل :

دب في الفناء سفلاً وعلاوا وأراني أموت عضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي إلا نقصتني بمـرّها بي جزوا
ذهبت جدتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا
لهف نفسي على ليال وأيا م تملتين لعباً ولهوا
قد أسأنا كل الإساءة فالأهم صفحاً عننا وغفراً وعفوا

وما تسمع أعيان بغداد باشتداد علته حتى توافوا إلى داره يعودونه ، وكان من بينهم الإمام الشافعي الذي كان إذ ذاك ببغداد . ويروي الخطيب البغدادي أن صديقاً لأبي نواس اسمه محمد بن نافع قال : كان أبو نواس لي صديقاً ف وقعت بيني وبينه هجرة في آخر عمره ، ثم بلغتني وفاته فيضاعف على الحزن ؛ فبينما أنا بين النائم واليقظان ، إذا أنا به ، فقلت :

أبا نواس ! قال لات حين كنية اقلت : الحسن بن هاني ! قال نعم ! قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بأبيات قلتها تحت ثني الوسادة ، فأتيت أهله ، فلما أحسوا بي أجهشوا بالبكاء ، فقلت لهم : هل قال أخى شعراً قبل موته ؟ قالوا : لا نعلم ، إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندرى ما هو . قلت : أفأذنون لي فأدخل ؟ قال فدخلت إلى سريره فإذا ثيابه لم تحرك بعد ، فرفعت وسادة فلم أر شيئاً ، فرفعت أخرى فإذا برقعة فيها مكتوب :

يا رب ! إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فمن الذى يدعو ويرجو المجرم ؟
أدعوك ربّ كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم ؟
ما لى إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ، ثم أنى مسلم
ولقد أدركنا نحن فى طفولتنا المؤذنين يهتفون بهذا التوسل على المآذن فى الأسفار .
فسلام على أبى نواس مفقنا مبدعاً ، وسلام عليه فى الناسكين الزاهدين .

كتاب الوزراء والكتاب

للجهشياري*

أهدى إلى زميلي وصديقي الأستاذ مصطفى السقا من أشهر مضت ، نسخة من كتاب « الوزراء والكتاب » لابن عبدوس الجهشياري المتوفى عام ٣٣١ هـ . وقد أخرجته للناس هو وزميلاه الأستاذان إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي في حلة عربية قشبية ، ومطبوعا لأول مرة بمطبعة الحروف .

ولم تمكني كثرة العمل في العام الدراسي المنصرم من أن أفرغ لقراءة هذا السفر النفيس ، وإن كنت قد رجعت غير مرة إلى نسخته الأوربية المطبوعة بالزك ، وكنت عارفا بنفاسة قدر الكتاب وعلو قيمته العلمية .

وقد استرحت في هذه الأيام من عناء العمل الرسمي ، وأصبحت حراً أقرأ ما أشاء متى أشاء . وقد رأيت أن أقرأ الكتب التي وردت إلى ، والتي اقتنيتها ، على ترتيب ورودها إلى واقتنائى لها ، فكان كتاب الوزراء والكتاب أحقها بالتقديم على كل حال .

والكتاب يتناول الكلام على خطى الكتابة والوزارة في الدولة الإسلامية منذ قيامها إلى زمن الخليفة المأمون العباسي ، وها من أهم خطط الدولة الإسلامية لذلك العهد . ومع أن المؤلف قد أدار كتابه على هذين النظامين فهو من حين لآخر يفصل كلامه بإشارات ونكت واستطرادات لها قيمة عالية عظيمة عند من يعانى الأدب العربي والتاريخ الإسلامى في صدر الإسلام ، هذا إلى أنها سهلت تناول الكتاب وخلعت عليه رواء القصة وجاذبيتها . ولقد وفق الأساتذة الناشرون للكتاب في نشره على الناس إلى حد بعيد ، فوضعوا له مقدمة تعرّف القارئ بالمؤلف وبأصل الكتاب ، وضبطوا المتن جهد استطاعتهم ، وحققوا

وشرحوا ما يحتاج منه إلى تحقيق أو شرح ، ثم ذيلوا الكتاب بفهارس ضافية استوعبت الأعلام الواردة في الكتاب وموضوعاته ، وردته إلى عناصره رداً فيه دقة وفيه استقصاء .

ومن عادتي عند ما أقرأ كتاباً علمياً قياً أن أتناول قلم الرصاص فأقيد بهامشه ما يعنى لى من فائدة علمية ، وما عسى أن أستدركه على المؤلف أو الناشر إن كان ثم موضع للاستدراك . وقد جريت على عادتي هذه عند ما شرعت في قراءة « كتاب الوزراء والكتاب » فلما فرغت منه قراءة وجدتني قيدت بهامشه جملة تقييدات وملحوظات واستدراكات ، منها ما أحفظ به لنفسى وأعتده لدراساتي ، ومنها ما هو في حقيقة الأمر نقد للمتن في بعض مواضعه أو استدراك على تحقيقات الأستاذة الواردة به . وقد لا يخلو هذا الصنف من التقييدات من الفائدة لغيري من قراء الكتاب ، فأننا أنشره على هذا الاعتبار وحده .

جاء في متن الكتاب في ص ٩٩ ما مؤداه أن زاذان فروخ كان كاتب عبد الله بن زياد ، وقد علق الأستاذة على ذلك بقولهم : « لعله عبيد الله بن زياد » والصحيح الثبت أنه عبيد الله بن زياد لا عبد الله (الطبري : المجموعة الثانية ص ٤٤٨ من الطبعة الأوربية) . وجاء في ص ١٦٨ : « وهو إذ ذاك بالرد والدار » يريد المؤلف تسمية المكان الذي مات به الخليفة المهدي العباسي . وقد علق الأستاذة على هذا الاسم بقولهم إنه محرف ، وإنهم لم يروا في أسماء الأماكن ما يقرب منه إلا ما ذكره المسعودي في أول ترجمة المهدي من أنه خرج إلى موضع يسمى « أرزن والران » فلعله محرف عنه . وأقول إن اللفظ محرف ، لا شك في ذلك ، إلا أن الطبري وياقوت يسميان الموضع الذي مات فيه للمهدي « بالرد بماسبدان » فإن لم يكن الاسم محرفاً عن هذين اللفظين معاً ، فلا أقل من أن يكون قد خلس لنا من كلام الطبري وياقوت اسم القرية التي هلك بها هذا الخليفة وهي « الرذ » الواقعة بالقرب من ماسبدان . وجاء في المتن في ص ١٩٣ : « ولوزير العروضي شعر يهجو به محمد بن الأشعث » مكلم الذئب « الخزاعي وهو :

تهتم علينا بأن الذئب كلكم فقد لعمرى أبوكم كلم الذئبا

فكيف لو كلم الليث المصور إذاً تركتم الناس مأكولاً ومشروباً
هذا السويدي ما يسوى إتاوته يكلم الفيل تصعيداً وتصويبا

ويروى : « هذا السنيدي » فضر به محمد بن الأشعث ثلثمائة سوط .

وقد علق الأساتذة على هذا الخبر بقولهم سويد تصغير تحقير لسيد بالكسر بمعنى الذئب .
وقد أوردوا في آخر الكتاب رواية ككتاب الورقة لهذا الشعر وهي تقول (هذا السنيدي)
وعندي أن رواية ككتاب الورقة هي الرواية الصحيحة وتؤديها رواية الأغاني « ج ١٨ ص ٣٨ »
كما يؤديها معنى الشعر نفسه ، فإن السنيدي تصغير سندي والسندي هو الرجل المنسوب إلى
السند وكانت القبيلة تجلب في ذلك الزمان إلى العراق من السند .

على أن في الخبر المذكور أننا أغلاطاً أخرى مشؤها تحريف النسخ من غير شك ،
فقوله « وزير العروضي » خطأ وصوابه « رزين العروضي » وهو شاعر كان معاصراً وصديقاً
لدعبل وكان معروفاً بغرابة أوزان شعره . وقد ذكره بهذا الضبط صاحب الأغاني في موضعين
من كتابه ، واعتمد ضبطه هذا المستشرقون الأعلام الذين عملوا فهرس كتاب الأغاني ، كما
ذكره بهذا الضبط أيضاً كما يقول الأساتذة الفاضلون صاحب كتاب الورقة وإرشاد الأديب .
والعجيب أن يعدل الأساتذة عما جاء في هذه المراجع ويأخذوا بما جاء في الأصل الذي نقلوا
عنه الكتاب ، وبما جاء في فهرست ابن النديم وهو كتاب محشو بالتحريف والتصحيف !
ومحمد بن الأشعث الوارد في الخبر المذكور صحته « جعفر بن محمد بن الأشعث » ، ولو
رجع القارئ إلى سياق المتن لوجده يدور على جعفر هذا الذي ولي خراسان للرشيد .

ويؤخذ من موضع « مكلم الذئب » من الجملة أنها صفة لابن الأشعث ، مع أنها لقب
جد لابن الأشعث ، وكان رجلاً من خزاعة على عهد النبي (ص) . ولهم في تكليم الذئب
إياه قصة أوردتها صاحب الأغاني (ج ١٨ ص ٣٧) ، وإذا فعبارة النص ينبغي أن تكون
هكذا : ولرزين العروضي شعر يهجو به جعفر بن محمد بن الأشعث من بني مكلم الذئب
الخزاعي الخ .

وجاء في المتن في ص ٢٥٦ : « وكان يكتب للخضيب أبو عبد الحميد بن داود البلاذري
المؤلف لكتاب البلدان وغيره من الكتب » وقد علق الأساتذة على ذلك بقولهم :

« البلاذرى هو أبو بكر ، وقيل أبو جعفر ، وقيل أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، مؤلف كتاب فتوح البلدان » .

والحقيقة أن البلاذرى صاحب كتاب البلدان لم يكن وُلد بعد وقت أن كان الخصب بمصر ، أى حوالى سنة ١٨٧ هـ .

وأبو عبد الحميد بن داود المذكور فى الخبر ، إنما هو جده كما يؤخذ من نسب البلاذرى الوارد فى ترجمة للبلاذرى منسوبة للمقرئى وواردة فى مقدمة كتاب فتوح البلدان . قال : « هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي الكاتب ، ويعرف بالبلاذرى » ، وإذا فعبارة هذا الخبر لا بد أن تكون هكذا : « وكان يكتب للخصب أبو عبد الحميد بن داود (جد) البلاذرى مؤلف كتاب فتوح البلدان » الخ .

وقال المؤلف فى ص ٢٢٩ : « وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم فى هدم إيوان كسرى » والظاهر أن هذا وهم من المؤلف ، فالمعروف بالتواتر أن قصة الشروع فى هدم إيوان كسرى إنما تضاف إلى المنصور وخالد بن برمك ، لا إلى الرشيد ويحيى . (الطبرى المجموعة الثالثة ص ٣٢٠ ، والفخرى ص ٢١٢) .

* * *

وعلى الأساتذة على قول المؤلف فى ص ٢٧ « يا أمير المؤمنين ، إنك لو بعثت الوليد يقسم الأموال بين الناس مارضوا عنه ، فكيف تبعثه جابياً . . . ولكن ولّه المعاون والصوائف يكن ذلك له شرفاً وذكراً » . فقالوا : « المعاون الجنائيات والمظالم ، ولعله يريد بالمعاون والصوائف ولاية القضاء والغزو » . وتفسير « المعاون » بهذا المعنى إنما يصدق فى العصور الإسلامية المتأخرة . فأما فى صدر الإسلام فالمعاون كانت عبارة عن الأموال التى كان يعطاها أصحاب العطاء الرسمى فوق عطائهم ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : « ألا وإن قریشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ! » . (الطبرى ، المجموعة الأولى ص ٣٠٤٦) .

ومنه قول القائل :

نحن ضربنا الأزد بالعراق والحى من ربيعة المراق

وابن سهيل قائد النفاق بلا معونات ولا أرزاق

(الكامل للمبرد ص ٧٦ طبع أوروبا) .

ولا شك أن إعطاء المال على هذا النحو مما يكسب مثل الوليد بن عبد الملك شرفاً وذكرًا كما يقول النص . وانظر أيضاً في هذا الصدد : كتاب فتوح البلدان صحيفة ١٨٧ من الطبعة الأوربية .

وجاء في ص ٥٢ : « فلما توفي سليمان كتب عمر وهو على قبره بعزل أسامة بن زيد وب عزل يزيد بن أبي مسلم » . وقال الناشرون استندرا كما على هذا : « وظاهر أنه يريد يزيد بن المهلب » . والواقع أن المؤلف يريد ما يقول والصواب في جانبه ، ولكن الأساتذة أخذوا برواية انفرد بها ابن عبد ربه في كتاب العقد ، ومؤداها أن سليمان بن عبد الملك حبس يزيد بن أبي مسلم ، فبقى في حبسه مدة خلافته وخلافة عمر ، مع أنه لم يقل واحد من أئمة مؤرخي المشرق بهذا الحبس الطويل : لا الطبري ولا ابن الأثير ولا ابن خلكان الذي خص ابن أبي مسلم بترجمة وافية . بل يقول ابن خلكان ما معناه إن سليمان أتى بيزيد في جامعة فخاوره فوجده قوى المعارضة ، وكشف عن ذمته فلم يثق عليه بشيء ، فاستحال سخطه عليه إلى شبه إعجاب به ، حتى لقد هم باتخاذه كاتباً له لولا أن ثبطه عن ذلك بعض حاضري مجلسه . ثم إن يزيد بن أبي مسلم عزى نفسه بعد العزل بالاشتراك في الغزو ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز وعلم بذلك أمر برده من الغزو ، وهو ما يقوله الجهمياري في ص ٥٥ . فالأخذ برواية صاحب العقد يوهم أن المؤلف قد تناقض في أخباره وهو غير صحيح .

وجاء في ص ٨١ من مقطوعة لعبد الحميد الكاتب هذان البيتان :

فليست تقتر من عبرة لها في الضمير ومن هامل

تقضت غوايات سكر الصبا ورد التقى عن الباطل

فضببط الشراح تقتر بالقاف المثناة من فوق ، وعندى أن الصواب والأبلغ أن نقرأ (تقتر) بالفاء الموحدة ، من فتر السحاب إذا مطر وفرغ ماؤه . وضبطوا عَنْ بضم أوله وثانيه على أنه جمع عنان ، وأرى الأفضل أن نقرأ (عَنْ) بفتح أوله وثانيه ، بمعنى اعتراض ، ولا سيما أن سيبويه ينكر أن يكسر عنان على غير أعنة ، (اللسان مادة : عن) .

وأورد المؤلف في ص ١٣٥ مقطوعة من الشعر لعبد بنى الحسحاس مضمومة الروى ،
وأولها :

أمن سمية دمعُ العين مذروف لو أن ذا منك قبل اليوم معروف
ومنها هذا البيت :

لا تبك عيْنك إن الدهر ذو غير فيه تفرق ذى إلف ومألوف

وقد ضبط الأستاذة قوله (مألوف) بالكسر وقالوا إن فى البيت إقواء ، ثم قالوا :
والظاهر أنه دخيل على هذه الأبيات لأنه غير وارد فى القصيدة المنسوبة إلى عنتره (فى
ديوانه وفى كتاب الأغاني) . أما أن يحتج على كتاب الجهمشيارى بكتاب الأغاني وبالديوان
المنسوب إلى عنتره فهذا ما لا يجوز ؛ فكتاب الجهمشيارى أقدم وأوثق من كتاب الأغاني
فضلا عن الديوان المنسوب إلى عنتره ، وهو يورد لنا المقطوعة المذكورة فى صورة من أقدم
صورها ويعزوها إلى قائلها الحقيقى ، وهو بذلك يصحح خطأ وقع فيه صاحب الأغاني وجامع
الديوان المنسوب إلى عنتره . وأما أن فى البيت إقواء فهو ما لا أراه . بل إن ضم (مألوف)
هو المتعين والواجب إذا راعينا قول الشاعر فى صدر البيت (إن الدهر ذو غير) ، فيكون
معنى الكلام إن الدهر ذو أحوال . طورا يفرق الألف ، وطورا يجمعهم . ويكون
(مألوف) معطوفا على قوله (تفرق) ويكون بمعنى الإلف مثل مجهود ومعقول بمعنى الجهد
والعقل . وإذا استبعد الأستاذة ذلك أفلا يمكن أن يقال إنه محرف عن (تأليف) ؟ وأيا
ما كانت الحال فإنى أرى البيت منسجما مع سائر أبيات المقطوعة معنى ووزنا وقافية .

وعلق الأستاذة على لفظ (النوبهار) الوارد فى ص ١٩١ بإيراد كلام لياقوت بين
فيه أنه كان بيتا للبرامكة فى بلخ يعظمونه ، وأنهم كانوا يضاهون به بيت الله الحرام ، وأن
معنى النوبهار البهار الجديد ، إذ كانت سنتهم إذا بنوا بناء جديدا أو شريفا كلوه بالبهار
وهو الریحان . ولكن البحث العلمى الحديث الذى قام به بارتولد (دائرة المعارف الإسلامية
مادة برامكة) وبوفات (رسالته عن البرامكة ص ٢٨) يدل على أن النوبهار كان معبدا
بوذيا ، وأن لفظ (نوبهار) سنسكرىتى الأصل مؤلف من (نوبا) بمعنى جديد و (فيهارا)
بمعنى بيت أو معبد ، وقد كانت للهنود فيهارات كثيرة . فإن كان لا بد من إيراد ما قاله

كتاب العرب عن هذا البيت ، فيحسن أن يردف ذلك بما يراه البحث العلمى الحديث
إتماماً للفائدة .

وجاء فى متن الكتاب فى ص ٩٩ : « ومما يشبه خبر عبد الله بن سوار هذا » وعلق
الأساتذة على ذلك بقولهم [فى الأصل : « ومما يشبه خبر هذا عبد الله » الخ . والسياق يقتضى
تأخير « هذا »] . ولست أرى مع الأساتذة ذلك فتقديم اسم الإشارة على العلم المشار إليه
وارد فى الكتب القديمة ، فصاحب الفخرى يقول : « وهذا خالد هو جد البرامكة »
(ص ٢١٠ من الطبعة الأوربية) ويقول : « وكان هذا سنباذ رجلاً مجوسياً » (ص ٢٣٢)
وأظن أن لقوله وجها من العربية وإذا فلا داعى إلى تغيير عبارة النص بالتقديم والتأخير .

ذلك ما قيدته على هذا الكتاب النفيس ، وإنى أرجو أن أكون قد قضيت بذلك
حق مؤلفه وحق ناشريه وحق قرائه . وأقول فى ختام بحثى إن ما أخذته على الكتاب
سواء أكان من ناحية المتن أم من ناحية تحقيق الأساتذة ، لا يكاد يذكر بجانب ما فى
الكتاب من جليل الفائدة ، وما فى تحقيقات الأساتذة من عظيم الإفادة والإحسان .

أبو العلاء السياسى *

وُلد أبو العلاء المعرى سنة ٣٦٣ هـ وتوفي في سنة ٤٤٩ هـ . فقد ولد ، ونشأ ، وشب ، واكتهل ، وشاب ، ومات ، في زمن كان فيه العالم الإسلامى كله حافلاً بأنواع الاضطراب السياسى ، مليئاً بالآفات الاجتماعية والأخلاقية . ففي أقصى الغرب كانت الأندلس قد تقلص عنها ظل الدولة الأموية ووقعت في الفوضى التى سببت تكالب الأسبان عليها وعملهم على انتقاص أطرافها . وشمال أفريقيا أصبح بعد زوال أموي الأندلس وانتقال الفواطم إلى مصر نهبا مقسما بين دويلات عربية وأخرى بربرية كانت لا تفرح متداحرة متفاحرة . ومصر والشام كانتا خاضعتين للدولة الفاطمية وهى دولة على عظم شأنها ، كانت تستند إلى دعاية باطنية مريمية ، ظهرت آثارها في أيام الحاكم والمستنصر . على أن الدولة المذكورة أخذ شأنها بعد المائة الرابعة يضعف وبخاصة في الشام ، مما جعل ذلك القطر نهبا لأعراب البوادي القريبة منها ولغارات الروم من جهة الشمال . وجزيرة العرب كانت قد عملت فيها تعاليم الزنج والقرامطة فغلب على أهلها التلصص وقطع الطريق والسطو على قوافل الحجاج . وفي العراق وفارس كان سلطان الخليفة العباسى قد استحال اسماً لا معنى له وكان الأمر كله بأيدي بنى بويه المتغلبين على الخليفة وعلى البلاد . وكان حكم هؤلاء ملؤه التعسف والاستبداد والطفقان ، هذا إلى انقسام بعضهم على بعض ، ووقوع الفتن في بغداد بين عصبيتهم من الديلم وبين الجند الأتراك . إلا أن الحال في أقصى المشرق كانت خيراً منها في سائر الأقطار الإسلامية ، فقد قامت به دولة فتية قوية عملت على الفتح والتوسع ونشر الإسلام في الهند ، تلك هى الدولة الفزنوية المشهورة . على أنها كانت دولة قامت واتسعت بحمد السيف ، فكان لألأؤها مستمداً في أغلب الأمر من قمقعة السلاح وبريق السيوف . والخلاصة أن العالم الإسلامى في العصر المذكور كان قد انحل نظامه وانعدم منه الوازع السياسى والدينى أو كاد ، فانتشر الفقر والبؤس ، وعم الظلم والفساد ، وأكل القوى الضعيف .

عاش أبو العلاء في ذلك العصر وتأثرت نفسه الحساسة بما آلت إليه أحوال الناس وخاصة منذ عاد من بغداد سنة ٤٠٠ ولزم داره بالمعرة يصنف ويدرس لتلاميذه الذين كانوا يقدون عليه من مختلف الأقطار للأخذ عنه . وقد صور في نثره ولزومياته تلك الحال تصويراً وجيزاً ولكنه بليغ . انظر كيف يصف تطاول أعراب الجزيرة والشام إلى اقتسام البلاد بعد أن ضعف أمر العبيديين وما شمل الشام أيامئذ من الإحن بسبب عدوانهم ، فيقول :

أرى حلباً حازها صالح	وجال سنان على خلقا
وحسان في سلقى طيئ	يصرف من غزه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار	ثغاما على جيشهم علقا
رمت جامع الرملة المستنقضا	م فأصبح بالدم قد خلقا
وما نفع الكاعب المستقبا	ة هام على غضب فلقا
وطل قتيل فلم يذكر	وغل أسير فما أطلقا
وكم تركت أهلاً وحده	وكم غادرت مثرى مملقا
يسائل في الحى عن ماله	وما القول في طائر حلقا ؟

ويقول أيضاً في هذا المعنى :

ألفنا بلاد الشام إلف ولادة	نلاق بها سود الخطوب وحرها
فطوراً ندارى من سبيعة ليثها	وحيناً نصادى من ربيعة نمرها
وددت بأنى في عماية فارد	تعاشرنى الأروى فأكره قرها
فإنى أرى الآفاق دانت لظالم	يغر بغاياها ويشرب خمرها

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو العلاء رسالة ينهيه فيها عن الخروج للحج في عامه ويريه أن الروم لحاب بالمرصاد ، وأن الجهاد في تلك الحال خير من الحج ، فما كتب به إليه : « وسفر مولاي إلى الحج في هذا العام حرام بسل ، كما حرم صوم عيد الفطر ، وحظر على الحرم تضمخ بمطر . . . وهو — أدام الله تمكينه — أمين من أمناء المسلمين ، يرهف الشوكة ، ويستجيد الأمة ، ويحصن ماوى من سور أو شرفات . . . ومن لحياطة الرعية بمداميك المدر . . . وإجراء السعد

لحفظها والغدر ؟ .. وحلب — حرسها الله — قد صار فيها رباط يفتنم ، وجهاز يرغب فيه ويتنافس ، ولا يابث أن يزول بانعقاد الهدنة ، وعودة الجامع كلكة الروم إلى كرسيه من برنطية » .

ويقول في فساد الأمر بالحجاز والشام والعراق :

أما الحجاز فما يرجي المقام به لأنه بالحرار الخمس محتجز
والشام فيه وقود الحرب مشتمل يشبه القوم شدت منهم الحجز
وبالعراق وميض يستهل دما وعارض ببقاء الشر يرتجز
ويشير إلى حقيقة أسر صاحب الزنج بالبصرة والقرامطة بالبحرين فيقول :

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم ميمة لا يرقو ن لدمع السماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة والقرمطى بالأحساء

وهو لا يبهره بريق الدولة الغزنوية ولألاؤها ويقول في ملكيها الشهيرين محمود ومسعود :

محمودنا الله والمسعود خائفه فعد عن ذكر محمود ومسعود
ملكنا لو أننى خيرت ملكهما وعود صلب ، أشار العتل بالعود

وكما تشير هذه الأبيات إلى علم أبي العلاء بأحوال المشرق الإسلامى فإن رسائله إلى ابن حزم الأندلسى وداعى الدعاة الفاطمى وكلامه على ابن هانىء الأندلسى فى رسالة الغفران ، كل ذلك يشير إلى اتصال أبى العلاء بالمغرب الإسلامى اتصاله بمشرقه . وأبو العلاء يحمل حكمه على المشرق والمغرب بالفوضى السياسية والفساد والبعد عن الإصلاح فى قوله :

وجدت الناس فى هرج ومرج غواة بين معــــتزل ومرج
فشأن ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الأمور جباة خرج
وهم زعيمهم إنهمــــاب مال حرام النهب أو إحلال فرج

وأبو العلاء يصرح بأن العلة القريبة فى هذه الفوضى وذلك الفساد إنما هى نظام الملك المستبد الغشوم القائم على القهر والتغلب والوقعة والدهاء :

رأس الناس بالدهاء فما ينه فك جيل ينقاد طوع دهاته
قالوا قلائد جيد لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيد
فأميرهم نال الأمانة بالخفا وتقيهم بصلاته مقصيده
وهو يربأ بنفسه أن يكون حاكما من هذا القبيل :

لا كانت الدنيا فليس يسرنى أنى خليفته ولا محمودها
ما سرنى أنى إمام زمانه تلقى إلى من الأمور مقال
أسرّ إن كنت محموداً على خلق ولا أسرّ بأنى الملك محمود
ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها وإنما هو بعد الموت جلود
وما أختار أنى الملك يجي إلى المال من مكس وخرج

وهو يسلك إلى إصلاح الطغاة المستبدين طرقات شتى من الترغيب والترهيب . فتارة
يحبب إليهم التقوى والصلاح :

والتاج تقوى الله لا ما رصعوا ليكون زيناً للأمير الفاتح
يا مشرع الرمح في تثبيت مملكة خير من المارن الخطى مسباح
وتارة يخوفهم عواقب الظلم وبوائقه :

خف دعوة المظلوم فهي سريعة طلعت فجاءت بالعذاب النازل
عزل الأمير عن البلاد وماله إلا دعاء ضعيفها من عازل
والظلم يمهل بعض من يسعى له ومحل نعمته بنفس الظالم

وتارة يحذرهم تصرف الأقدار وتقلبها بالناس رفعا وخفضا :

أيا وإلى المصر لا تظلمه من فكم جاء مثلك ثم انصرف
لا يمنع الملك الجبار من قدر يغير الحال ما أجدى وما جاسا
ولو غدا الكوكب المريخ في يده كالسهم واتخذ البرجيس برجاسا

وتارة يسلك طريقته العدمية فيذكهم الموت الذي يأتي على جميع الناس فلا يبقى منهم إلا سيرهم وذكريات أعمالهم :

حوادث الدهر ما تنفك غادية على الأنام بالباس وتلبس
أوت بكسرى ولم تترك مرازبه وبالمناذر أودت والقوايس
أردت حسينا وحست بالردى حسنا وواجهت آل عباس بتعيس

على أن أبا العلاء يذهب إلى أبعد مما ذهب في تعليل الفوضى والفساد ، فيبين أن العلة البعيدة والسبب الجوهرى في ذلك أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا أنهم في حقيقة الأمر عمال الرعية وأجراؤها وخدامها وأن الشعوب مستقر السلطان ومستمدته :

مُلَّ المقام فكم أغاثر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

وهو لذلك يحذر الطغاة غضب الأمم وثورة الشعوب :

أعاذل أن ظلمتنا الملوك فنحن على ضعفنا أعظم
تسامت قريش إلى ما علمت واستأثر الترك والديلم
وهل يفكر العقل أن تسبد بالملك غانية غيلم ؟
وما ظفر الملك في جيشه سوى ظفر بالردى يقلم

لو بعث المنصور نادى أيا مدينة التسليم لا تسلى !
قد سكن القفر بنو هاشم وانتقل الملك إلى الديلم !
لو كنت أدري أن عقابهم لذلك لم أقتل أبا مسلم !
قد خدم الدولة مستنصحا فألبسته شـيـة العظم !
ما دام غير الله من دائم فاغضب على الأقدار أو سلم !

فأبو العلاء يقرر المبدأين السياسيين الأساسيين : سلطة الامة ، وانتخاب ولاة الأمور ،

وهو من أجل ذلك ينمى على الشيعة مذهبهم السياسى فى القول بأن الخلافة نص وتوقيف وليست بشورى ، ويندد برأيهم فى الإمام المنتظر :

قالوا سيملكنا إمام عادل يرى أعادينا بسهم صار
والأرض موطن شرة وضغان ما أسمحت بسرور يوم فارد
على أن ديمقراطية أبى العلاء تتصل اتصالاً وثيقاً باعتقاده فى الاشتراكية الإسلامية
سواء أكانت دينية — وذلك من حيث الزكاة — أم إسلامية تاريخية — وذلك من
حيث حبس الأرض وتوزيع غلتها على المستحقين فيها — فهو يقول فى أمر الزكاة :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بنى الإعدام شاكينا
ياقوت ما أنت ياقوت ولا ذهب فكيف تعجز أقواما مساكينا ؟
فإن تعش تبصر الباكين قد ضحكوا والضاحكين لفرط الجهل باكينا
لا يتركن قليل الخير يفعله من نال فى الأرض تأييداً وتمكينا
ويقول فى أمر الأرض :

الملك لله من يظفر بنيل منى يردده قسراً وتضمن نفسه الدركا
لو كان لى أو لغيرى قيد أعملة فوق التراب خللت الأمر مشتركا

الأرض لله ما استحميا الحلول بها أن يدعوها وهم فى الدار أضياف
تنازعوا فى عوارى فبينهم نبل حطام وأرماع وأسياف
إن خالفوك ولم يجرر خلافهم شراً فلا بأس أن الناس أخفاف
والبيت الأخير يشير إلى أن أبا العلاء لا يرى بأساً ببقاء القديم على قدمه إذا كان
تغييره يجر إلى شر .

ولأبى العلاء رأى فى كيف تتحقق (اليوتوبيا) أو الجماعة السياسية المثالية . وهو
يضمن رأيه هذا قوله :

أن أكلتم فضلاً وأنفقتمو فضاً لا فلا يدخلن وال عليكم

لا تولوا أموركم أيدي الناس إذا ردت الأمور إليكم

وهذان البيتان ينظران إلى ما قال به النجدات من الخوارج قبل أبي العلاء ،
فقد أجمعوا على أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط ، وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم ،
فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز .

أما بعد ، فكم ود الحكماء من قديم لوولى الفلاسفة شئون الناس ، ومن حسن الحظ
أن فى سيرة أبي العلاء أخباراً ترجح أنه ولى شئون المعرة فعلاً . فيروى أنه عندما عصت
المعرة على صالح بن مرداس أمير حلب ، سار إليها صالح وحاصرها وأرهب أهلها بالحصار ،
فسأل الناس أبا العلاء أن يخرج إلى صالح ويكلمه فى رفع الحصار ، فخرج أبو العلاء إلى
ظاهر المعرة ولقى صالحاً وكله بكلام رقيق أثر فى نفس صالح فأمر بالكف عن القتال وقال
لأبي العلاء : « قد وهبتها لك » . وظاهر هذه العبارة يحتمل أن صالحاً قد عفا عن المعرة من أجل
شفاعة أبي العلاء كما يحتمل أنه قد وهبها لأبي العلاء فعلاً وأنه أقطعه إياها على نحو ما كان
مألوفاً فى الدولة الإسلامية فى ذلك الزمان . على أن الذى يرجح الاحتمال الثانى نص صريح
وارد فى رحلة الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، فقد زار المعرة فى عام ٤٣٨ هـ ووصف فى رحلته
ما شاهده فيها فقال ما تعريبه (وكان بها رجل ضرير يدعى أبا العلاء ، وكان أمير البلدة ،
وله من النعمة والعبيد والخدم ما يستكثر . وكان جل أهلها كالعبيد له ؛ إلا أنه سلك طريق
النسك وتردى ببرجد فى بيته ، وكان يأكل كل يوم نصف من خبز الشعير لا غير .
وبلغنى أنه فتح بابه ، ويتولى عنه نوابه وعماله أمور البلدة إلا فيما يهم فيرجعون إليه . وهو
لا يمنع أحداً مما أتاه الله ، ويصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ولا يشغل نفسه بشئ من أمور
الدنيا . . . وقيل له : إن الله خولك ما نرى من المال والنعمة ، فلماذا تعطى الناس وتبذلهم
ولا تتمتع أنت بنفسك ؟ فقال : ليس لى منه إلا ما أتبلغ به من القوت فحسب . ولما وصلتها
كان حياً يرزق^(١)) ولقد ضمن أبو العلاء بعض لزومياته الاعتراض الوارد فى النص المذكور
وجوابه عنه فقال :

(١) انظر كتاب « أبو العلاء وما ليه » للأستاذ الميني ص ٧٨ .

سولت لى نفسى أموراً وهيها ت لقد خاب ذلك التسويل
واتهاى بالمال كلف أن يطلا ب منى ما يقتضى التويل
ويقول الغواة خولك الا ه كذبتهم لفسرى التخويل
إن حباك القدير كالنيل تبرأ فليفضله العطاء والتويل
لا تعول على اختزان فما للـ در الصفر إثر ميت عويل

فإذا صحت هذه الأخبار ، ولا نخالها إلا صحيحة ، يكون أبو العلاء قد ظفر بتحقيق آرائه
السياسية التى صورناها آنفاً ، ويكون الحظ قد اصطفاه من بين الفلاسفة جميعاً ، لحقق على
يديه لمدة قصيرة من الزمن ، خيالاً من أروع أخيلتهم ، وحلماً من ألد أحلامهم .

ناحية التاريخ

من أدب أبي العلاء المعري*

يقول أبو العلاء في بعض لزومياته :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارها طرف
فهو يدعى أنه ما من أمة وجدت في هذه الدنيا إلا وقد ألم بطرف من أخبارها وعرف
شيئاً من تصاريف أحوالها . والحق أن أبا العلاء لم يصطنع المبالغة ، ولم يركب متن الشطط
عندما ادعى هذه الدعوى . فقد أدرك من أول أمره أن العاهة الجثمانية التي لحقته منذ طفولته
لا شك ما نعته من معرفة الطبيعة الإنسانية من طريق العيان والمباشرة ، غير أنه فطن إلى أن
في وسعه أن يتدارك ما تفوته عليه هذه الآفة المحتومة من طريق الاطلاع على ماضى الإنسانية
المستور في تاريخها ، فالطبيعة الإنسانية واحدة لا تختلف ، والناس هم الناس بعد بهم العهد أم
قرب . ذلك أصل ولع أبي العلاء بالتاريخ . ثم نجده يزداد به ولعاً عند رجوعه من بغداد
إلى بلده ، واعتزازه لزوم ثأني محبسه وهو بيته . فإن أبا العلاء لم يرد بالعزلة أن يضرب بينه
وبين الناس حجاباً كثيفاً بحيث لا يراهم ولا يرونه ، وإنما أراد بالعزلة أن يكون بنجوة من
مخالطتهم وملابستهم ، وأن تتاح له حرية درس أحوالهم ونظمهم ومصاير أمورهم دون أن
تمتد إليه أيديهم ، ودون أن يعرضوا له بما يوجب له شغل الخاطر وهم القلب وفتنة النفس .
فكان أنه أراد أن يقطع صليته بالناس من ناحية ليصلها بهم من ناحية أخرى ، ناحية الاطلاع
على أخبار الماضين منهم والغابرين ، أى من ناحية الاطلاع على التاريخ . على أنه إذا كانت
الضرورة هي التي قضت على أبي العلاء بالاطلاع على التاريخ فهناك سبب آخر حبيب هذا
العلم إلى عقل شاعرنا الفيلسوف وقلبه . ذلك أن التاريخ قد يكون ألدّ العلوم وأشدها إمتاعاً
مقى ورد الإنسان ساحته وقلب صحائفه بفهم ذكى وقلب سليم . هو موكب الأمم ومعرض
الحياة الإنسانية ، فيه تبين مواطن الضعف والقوة من تلك الحياة ، وفيه تظهر أسباب عظمة

الشعوب وأسرار أضمحلها ، فيه حكمة الحياة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام . فإذا كان أبو العلاء قد أقبل على التاريخ يقول صحائفه ويستخرج عبره فإن ذلك إنما كان عن ضرورة أول الأمر ثم عن حب له وشغف به أخيراً .

على أن اطلاع أبي العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بمحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ما وصلت إليه في أيامه أي من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس الهجرى . فإذا كانت حدود هذه الرواية ؟

لقد ابتدأت الرواية التاريخية العربية في القرن الأول الهجرى ثم نمت نمواً مطرداً وتنوعت تنوعاً بيناً في القرون الثلاثة التالية . فدونت أخبار العرب قبل الإسلام وأخبار الأمم التي كان للعرب اتصال بها كالفرس ، والروم ، والهنود ، والمصريين ، والأحباش وكل ذلك كالدخل إلى التاريخ الإسلامى ، ثم دونت سيرة الرسول عليه السلام وأخبار المغازى والفتوح وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وما تفرع عن الأخيرة من دويلات عدة بعضها في الشرق كالطاهرية والسامانية والغزنوية والبويهية والمحدانية وبعضها في الغرب كالطولونية ، والأخشيدية ، والإدرسية ، والفاطمية . وقد وضعت في كل ذلك كتب كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست في الفصل الذى عقده للإخباريين خاصة . وقد سلم لنا من هذه التأليف شئ غير قليل نذكر منه كتاب السيرة لابن إسحق بتهديب ابن هشام ، ومغازى الواقدى ، وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتيبة ، والدينورى ، والبلاذرى ، واليعقوبى ، وتواريخ الطبرى ، والصولى ، والمسعودى ، وأبى الفرج الأصفهانى ومسكويه . لا شك أن أبا العلاء اطلع على جل هذه الكتب إن لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت في متناول يده في مكاتب المعرة واللاذقية وحلب ودار العلم ببغداد . ولا أدل على سعة علمه بالتاريخ العام وأخبار العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامى من كثرة استشاده في نثره وشعره بالحوادث التاريخية كثرة رائعة ، ففي الرسالة التى يعزى فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة عن أخيه ، نجده يسرد أسماء الأنبياء من لدن آدم إلى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة وبيان أن كلا منهم قد صار بعد العز وعلو الشأن إلى الموت والفناء . ونجده في « رسالة الغفران » يخبر فى القصيدة السينية التى قالها على لسان الجنى « أبى هدرش » كيف

استغوى هذا الجنى فى جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة إلى أن بعث الله نبيه محمداً (ص) فأمن به وصدق واشترك معه هو وقبيله من الجن فى غزوات بدر ، وأحد ، والخندق ، كما اشترك بعد فى وقائع اليرموك والجل و صفين والنهروان . وكثيراً ما يورد أبو العلاء فى « رسالة الغفران » تلميحات وإشارات إلى الفرق والفحل الإسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئة كما ذكر الزنج والقرامطة والخنزار بن أبى عبيد والمنصور اليمنى والحلاج ومن الطريف أنه ساق فى آخر رسالة الغفران كلاماً على الدنانير والعملة الإسلامية ، فيه تفصيلات لا نجد لها فى كتب التاريخ التى بأيدينا . وتفيض « اللزوميات » بذكر كثير من ملوك الفرس والروم والهند واليمن وحوادث الدولة الإسلامية وملوكها من نحو محمود ومسعود والغزنويين والإخشيد وأبيه طعج وجده جف كما تذكر خاقان وخان وآلك (= أيلك) .

وكما وجد أبو العلاء فى التاريخ الإسلامى وغير الإسلامى مادة انتفع بها إلى أبعد مدى فى تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل فنه المنثور والمنظوم ، فقد وجد فى حوادث عصره مادة غزيرة أ كسبت شعره ونثره حيوية عجيبة ، وأمدته بما أعانه على تكوين رأيه فى السياسة ونظم الحكم والاجتماع بوجه عام . ونستطيع أن نقول إن شعر صباه وصدر كهولته الوارد فى ديوانه « سقط الزند » يتصل اتصالاً وثيقاً بحوادث عصره ، بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفى وسع من يقرأ « سقط الزند » و « اللزوميات » أن يتبين صورة واضحة لحوادث الشام خاصة فى زمن أبى العلاء .

كانت معرة النعمان معدودة من الإقليم المعروف « بالعواصم » والواقع على تخوم الدولة الإسلامية مما بلى مملكة الروم . وقد أصبحت حلب إذ ذاك قاعدة ذلك الإقليم ، وكانت متنازعة بين متأخرى أسراء الدولة الحمدانية وبين الدولة الفاطمية المصرية فيغلب بنو حمدان على أسرهم ويستولى الفاطميون على حلب ، ولكن سرعان ما انبرت للفاطمين أسرة عربية بدوية هى الأسرة المرداسية ، فستولى على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابى . وقد تبعت المعرة حلباً فيما اختلف عليها من الأحوال ، لذلك نجد أبا العلاء يمدح أسراء حلب على اختلافهم من حمدانية وفاطمية ، فيمدح الأمير سعيد الدولة الحمدانى بالقصائد الأولى من « سقط الزند » كالتصيدة اللامية الأولى التى مطلعها :

أعن وخذ القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا
كما يمدح ولاية الفاطميين على حلب في قصائد أخرى منها السينية التي مطلعها :

لولا تحية بعض الأربع الدرس ما هاب حد لسانى حادث الحبس

ثم إن أهل المعرة ثاروا على صالح بن مرداس بسبب المرأة التي أهانها خمار نصراني ،
فذهبت إلى المسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالها فثاروا بالخمار وانهبوا حانوته
وهدموها ، وإلى هذا الحادث يشير أبو العلاء بقوله في اللزوميات :

أتت جامع يوم العروبة جامعاً تقص على الشهاد بالمصر أمرها

فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها خلعت سماء الله تمطر جمرها

فهدوا بناء كان يأوى فناؤه فواجر ألفت للفواحش خمرها

واستفحل الخطب عند ما أشار على صالح وزيره النصراني « تادرس » وكان
حنقاً على أهل المعرة باعتقال سبعين رجلاً منهم ، وسار صالح إلى المعرة فأخرج إليه أهل
المعرة أبا العلاء شفيعاً فشفعه صالح وأطلق له الأسارى السبعين سنة ٤١٨ ، وإلى ذلك يشير
أبو العلاء بقوله في اللزوميات :

تقييت في منزلى برهة ستير العيوب فقيد الحسد

فلما مضى العمر إلا الأقل وحم لروحي فراق الجسد

بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد

فيسمع منى سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد

وباضمحلال نفوذ الفواطم في الشام أصبحت الشام نهبا لقبائل العرب المتبديدة من
لبن الجزيرة إلى حدود مصر ، وخاصة قبائل كلاب وطي وعامر ، وإلى ذلك الحادث
يشير أبو العلاء في أبياته القافية التي أولها :

أرى حلياً جازها صالح وخال سنان على جلقا^(١)

وإذا كانت هذه الأشعار تصور لنا الحوادث البارزة بالشام في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، فإنها تصور لنا ناحية من نواحي شخصية أبي العلاء ، ناحية حبه لوطنه وقومه ، وحزنه لما يصيب هذا الوطن ، واستعداده لأن يخدمه بنفوذ الأدبي عند الاقتضاء ، وهي أشعار تأتلف وشعره الذي قاله وهو في بغداد يتشوق بلده المعرّة .

على أن لوطنية أبي العلاء مظهراً آخر ، لقد كان للشام في زمنه عدو أجنبي يقحين الفرص للانقضاض عليه . ذلك العدو هو الروم ، وكان الروم بعد زمان سيف الدولة والقياث الأمر بالشام قد استولوا على أنطاكية سنة ٣٥٠ ، واستولوا بعد على اللاذقية ، وذلك في أيام امبراطورهم نقفور فوقاس ، ثم أخذوا يمدون أعينهم إلى حلب . وكان سعيد الدولة الحمداني وولاة الفاطميين يدافعونهم جهد طاقتهم . وهنا نجد أبا العلاء يسخر فنه لا لخدمة وطنه فحسب ولكن لخدمة العالم الإسلامي كله ، فهو في مدائح لعمال حلب يشيد دائماً بمقاومتهم الروم ، فيخطب الأمير سعيداً الحمداني (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) بقوله :

حفظت المسلمين وقد توالى سحائب تحمل النوب الثقلا
وقيت عيالهم إذ كل عين تعد سواد ناظرها عيالا
بوقت لا يطيق الليث فيه مساورة ولا السيد اختلا

وبقوله :

إلى حارم قاد العتاق سواها لها من نشاط بالكاة زمال
بنى الغدر هل أقيمت الحرب مرة وهل كف طعن عنكم ونضال
وهل أظلمت سحم الليالي عليكم وما حان من شمس النهار زوال
وهل طلعت شعث النواصي عواليا رجال ترمى خلفهم رجال
فإن تسلموا من سورة الحرب مرة وتعصمكم شم الأنوف طوال
ففي كل يوم غارة مشعالة وفي كل عام غزوة ونزال
إلى أن يقول في الخليل :

يرون دماء الروم وهي غريضة ويتركن ورد الماء وهو زلال
وقد علم الرومي أنك حقيقه على أن بعض الموقنين يخال

وكان الشيخ أبو الحسين بن سنان أحد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب إليه أبو العلاء ينهائه عن الحج في عامه ويريه أن الروم لحلب بالمرصاد ، فمن ذلك قوله : « وسفر مولاي إلى الحج في هذا العام حرام بسننك كما حرم صوم عيد الفطر وحظر على الحرم تضمخ بعطر ... وهو أدام الله تمكينه ... أمين من أمناء المسلمين يرهف الشوكة ويستجيد اللأمة ويحصن ما هي من سور أو شرفات ... ومن لحياطة الرعية بمداميك المدر ... وإجراء السعد لحفظها والقدر ، وحلب حرسها الله قد صار فيها رباط يغتم ، وجهاز يرغب فيه ويتنافس ، ولا يلبث أن يزول بانمقاد الهدنة ، وعودة الجامع كلة الروم إلى كرسيه من بزنتية » .

فقصائد أبي العلاء الواردة في « سقط الزند » والمتصلة بمدح أمراء حلب المناضلين للروم تجرى مجرى قصائد المتنبي المعروفة بالسيفيات والقصائد الروميات لأبي فراس الحمداني وهي حلقة من من حلقات ملحمة الحروب العربية الرومية . على أن أبا العلاء كما يخيل إلينا كان يلحظ فيما بينه وبين نفسه أن روح الجهاد قد فتر عند المسلمين وعند قومه خاصة وأنهم أمام استعلاء الروم وكلبهم عليهم قد التزموا خطة الدفاع دون الهجوم . وقد أحب أن يعبر عن هذا الاعتقاد الذي استقر في نفسه من طريق الكناية والرمز فنظم تلك المجموعة الغريبة من القصائد المعروفة « بالدرعيات » والواردة في آخر « سقط الزند » فالدرع أداة وقاية لاسلح هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا ظننا في تعليل إنشائه هذه القصائد فإن يكن ظننا صادقا فقد أبدع أبو العلاء الرمز وأجاد الإشارة .

ويستعرض أبو العلاء جملة أحوال العالم الإسلامي لعمده ، فيرى حالا لا تسره من ظلم ، واضطراب ، وفقر ، وطغيان . ويحتمد في أن يظب لتلك الحال فيذهب إلى أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا أنهم في حقيقة الأمر خدام رعاياهم وأجراؤها ، وأن الشعوب مستقر السلطان ومستتمده :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستعجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
ويرى في علاج الفقر أن يؤخذ الناس بأداء الزكاة المفروضة عليهم شرعاً :
وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بنى الإعدام شاكيها

يا قوت ما أنت يا قوت ولا ذهب فكيف تعجز أقواما مساكينا
ويرى أن الأرض لله لا يصح تملكها :
الأرض لله ما استحقها الحلول بها أن يدعوها وهم في الدار أضياف
تنازعوا في عواري فبينهم نبل حطام وأرماع وأسيف
ويرى أن في إمكان الناس أن يصلوا إلى « المدينة الفاضلة » أو « اليوتوبيا » أو الجماعة
السياسية المثالية إذا سلكوا طريق القصد وجادة الاعتدال :

إن أكلتم فضلا وأنفتم فض لا فلا يدخلن وال عليكم
لا تولوا أموركم أيدي الناس إذا ردت الأمور إليكم

* * *

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ قديمه والمعاصر له مادة غدت منه الأدبي وأعانته على
صوغ آرائه في الإصلاح السياسي والاجتماعي ، فقد وجد فيه كذلك مادة لآرائه الفلسفية
الخاصة به . لقد عرض تواريخ الأفراد والملوك والأمم وما يختلف على الناس من أحوال فوجد
كل ذلك لا محالة مفتعيا إلى العدم والفناء ، رأى الحياة كلها أشبه شيء بعملية حسابية
مركبة نتيجتها الصفر . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم يرفى سعى الناس سوى جهود عقيمة :

حوادث الدهر ما تنفك عادية على الأنام بالباس وتلبس
ألوت بكسرى ولم تترك مرازبه وبالمناذر أودت والقوايس
زارت حسيناً وحست بالردى حسناً وواجهت آل عباس بتعيبس
والليل والنهار عنده شقا مقراض بإتيان على كل شيء :

الصبح أصبح والظلا م كما تراه أصم حالك
يتباريان ويسلكا ن إلى الوري ضيق المسالك
أسدان يفترسان من سرا به فأبه لذلك
حلا الممالك عن ردى قاض إلى خان وآلك

والشر ، لا الخير ، هو الغالب على الناس .

والأرض موطن شره وضغائن ما أسمحت بسرور يوم فارد

هذه فلسفة التاريخ عند أبي العلاء وتفسيره إياه . هو تفسير رجل متشائم لا يرى في العالم ولا في الحياة شيئاً يسر . وهو من أجل ذلك يستعجل الفناء والمدم ويمتنع من الزواج الذى هو وسيلة النسل وبقاء النوع .

تواصل حبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلامى باء
وهوسى الظن بالناس زاهد فيهم :
وزهدنى فى الناس معرفتى بهم وعلى بأن العالمين هباء

نهيتك عن خلط الناس فاحذر أفا ربك الأدانى واحذرنى
وإن أنا قلت لا تحمل جرازا فهز أبا السفاسق واضربنى
إلى أى شىء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل إن مزاج أبى العلاء المتأثر بحياته التى أخذ نفسه بها بعد عودته من بغداد هو علة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لا علة لتلك الحال . فهو إنما أخذ نفسه بحياة الزهد والتعشف البالغ بعد أن بلغ الأربعين وبعد أن استكمل خبرته بالناس . إذا فخبيرته بالناس وفى القديم وفى زمنه هى علة تشاؤمه . هى علمه بالتاريخ كما وصل إليه وكما عرفه .

لقد كان علم قدماء المؤرخين من الإغريق والرومان بالإنسان وحياته قاصراً قصوراً بيناً لقد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الأسرة أو القبيلة أو المدينة أو طبقة بمينها ، ومن شأن التاريخ إذا بنى على هذا الأساس أن يكون قائم اللون مليئاً بأخبار الفتن والثورات وظلم الإنسان للإنسان واستعباد الطبقات بعضها لبعض . فلما اطلع فلاسفة الإغريق والرومان على هذا التاريخ تأثروا به فى صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء فى ذلك نظريات أفلاطون والرواقيين والأبيقوريين وصنيق ومارك أوريل . فمنهم من رأى أن العالم ينتقل فى أدوار زمنية يفتح كل منها بعصر ذهبي مجيد ثم لايزال يتبدل ويضعف حتى ينتقم بحال فوزى واضمحلال ، ثم يفتح دور آخر وهلم جرا . ومنهم من رأى الإنسان محدود القدرة مضروباً بينه وبين قوى لا حد لقدرتها هى الآلهة بنطاق لا سلطان له عليه . فنعمة

فلاسفة الإغريق والرومان نفمة حزن ويأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام ، ثم جاءت العصور الوسطى الأوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يرون أن هذه الدنيا دار بلاغ وأن الآخرة هي دار القرار وأن السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وأن الحياة الآخرة هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فازداد الناس ضيقاً بالحياة وأصبح شعارهم الزهد فيها وتمنى الخلاص منها . والرواية التاريخية الشرقية لا تختلف في خصائصها العامة عن الرواية الغربية . والمجتمع الشرق القديم لم يختلف اختلافاً جوهرياً عن المجتمع الإغريقي الروماني القديم ، ومن ثم كانت نظرة حكماء الشرق نظرة يأس وحزن وتشاؤم . وفكرة الأدوار التي تحدثنا عنها عند مفكرى الإغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تفتتح بمجيء نبي أو رسول وتنتهى بقيام آخر والإيمان بحياة مستقبلية يتم فيها المؤمن ويخلد وهي خير ما يتعزى به المؤمن عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا .

لم يلحظ القدماء على العموم أن الإنسان ابتداءً ضعيفاً ثم صار بعقله واجتهاده وقوة إرادته يرقى شيئاً فشيئاً ، ولكنهم خصصوا بعنايتهم ضعفه أمام عوامل لا سلطان له عليها مثل القضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى .

وبعد : فأبو العلاء قد نهج في فلسفة التاريخ منهج المفكرين القدماء من المشاركة والمشاركة على السواء لأن العلة واحدة في الحالين . على أن تشاؤمه ويأسه ينطويان على حب حقيقى للإنسان والإنسانية . وإذا كان أبو العلاء شديد الرفق بالحيوان فلا شك أنه كان في أعماق نفسه أشد رفقاً بالإنسان .

السلطان يعين الدولة

محمود الغزنوي *

٣٨٧ — ٤٢١ هـ

علم من أكبر أعلام الشرق ، رفع منار الإسلام عالياً وشاد في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس دولة عظيمة انتظمت الركن الشمالى الغربى من الهند ، وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر ، ومعظم بلاد فارس ، ونشر لواء العدل فى تلك الدولة المترامية الأطراف وناصر فوق ذلك العلوم والفنون والآداب مناصرة قلما نجد لها مثيلاً فى التاريخ .

والسلطان محمود من أصل تركى . وقد ظهر الجنس التركى على مسرح التاريخ الإسلامى فى أوائل القرن الثالث الهجرى عند ما اقتضت سياسة الخلفاء العباسيين الاستظهار بالترك على الفرس الذين كانت لهم مطامع قومية قوية ، وعلى العرب الذين صيرتهم عصيتهم القبلية أداة لا يعتمد عليها فى سياسة الدولة وتدير أمورها .

ولترك فى تاريخ الدولة الإسلامية صفحتان متباينتان كل التباين ! صفحة مظلمة حالكة الإظلام تبيينها فى استبداد الجند التركى بالخلفاء العباسيين فى القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، وإذلالهم إياهم أيما إذلال ، عزلاً وتولية وسجناً ومثلة وتعذيباً . أما الصفحة الأخرى فشرقة رائعة الإشراف ، تبيينها فى قوة اعتقادهم للإسلام وشدة إخلاصهم له ، وفى انتصارهم للذهب السنى بعد أن استعلت عليه المذاهب الأخرى من تشيع وباطنية واعتزال حتى كادت تقضى عليه وتذهب به كل ذهاب ، كما تبيينها فى شدة دأبهم على نشر الإسلام فى الأفطار الوثنية ، ومكافحتهم أعداء الدولة الإسلامية من الروم والصليبيين والعتار ، فالغزنويون وأعقابهم نشروا الإسلام ديناً ودولة فى الهند ، والسلاجقة ردوا إلى المذهب

(*) ولد فى سنة ٣٦١ هـ وتولى الحكم بغزنة سنة ٣٨٧ هـ وتوفى فى سنة ٤٢١ هـ . والغزنوى نسبة إلى مدينة « غزنة » عاصمة أفغانستان الإسلامية القديمة ، وتقع جنوبى مدينة كابل الحديثة .

السني قوته واعتباره ، وصدوا الروم ، ونازلت أنابكتهم الصليبيين في الشام وكسروا شوكتهم وقضى ممالك مصر على بقايا الصليبيين بالشام وصدوا التتار عن مصر والمغرب فأسدوا بذلك منه مذكورة مشكورة إلى المدينة الإسلامية والمدينة الأوربية على السواء .

من هؤلاء الأتراك مملوك اسمه ناصر الدولة سُبُكْتِكِين ، كان عاملاً على أفغانستان للدولة السامانية الفارسية القائمة بما وراء النهر . وكان سبكتكين رجلاً هاماً شجاعاً ، وسع حدود ولايته من ناحية الغرب بأن حصل على إمرة خراسان من مولاه الساماني ، ومن ناحية الشرق بأن غزا إقليم البنجاب وهزم ملكه الهندي جيمبال ، وأقام فيه حكومة إسلامية في مدينة بشاور ، فلما توفي في سنة ٣٨٧ هـ خلفه ابنه محمود الذي تقلم عليه .

ورث محمود عن أبيه نشاطه الجمل ، وعبقريته العسكرية ، هذا إلى طموح عظيم وغيره دينية لا سمعة فيها ولا رياء .

ويجد محمود نفسه عند توليه ملك غزنة في محيط سياسي مفكك الأوصال ، متداعى البنيان . ولقد كانت الدولة السامانية تعالج سكرات الموت تحت ضربات الترك الأيلكخانية ، وكانت الدولة البويهية بفارس تعاني أبحر ما تعانيه دولة من جراء اختلاف الكلمة وتفرق الأهواء . فلم يتردد محمود في أن يخضع طاعته للدولة السامانية المحبضة ، ويدعو للخليفة العباسي القادر بالله ، ويوسع رقعة ملكه على حساب السامانيين والبويهيين جميعاً ، حتى آل به الأمر إلى أن أصبح وارث الدولتين معاً على وجه التقريب .

ولقد عرف له الخليفة العباسي القادر بالله فضله وغيرته ، وبعد همته فخلع عليه لقب السلطان يمين الدولة ووالى أمير المؤمنين ، فأصبح يلقب بذلك اللقب واشتهر به في التاريخ . ويقول ابن الأثير إنه أول من لقب بالسلطان ولم يلقب به أحد قبله ^(١) .

على أن السلطان محموداً كان أكبر من أن يقنع بولاية غزنة وما ضمه إليها من فتوح

(١) يقول المستشرق الإنجليزي لينبول إن لقب « سلطان » لم يظهر على عملة محمود الغزنوي ، وإن أول من تلقب بهذا اللقب من الأسرة الغزنوية هو إبراهيم ظهير الدين (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) مقتدياً في ذلك بالسلاجقة الذين كانوا السابقين إلى التلقب بلقب سلطان كما يؤخذ من دراسة العملة الإسلامية (كتاب الأسر الإسلامية ص ٢٨٦) .

هى فى واقع الأمر فتوح بلاد إسلامية . لقد حفزته حميته الدينية واعتراف الخليفة العباسى بإمرته إلى أن يوجه قواه وجهوده إلى أقطار وثنية تتاخم مملكته هى بلاد الهند .

وكانت الهند إذ ذاك عالماً قائماً بذاته يكاد يكون فى عزلة عن سائر العالم بشعوبه ولغاته وعقائده وعاداته . نعم إن العرب حاولوا إبان فتوحهم الكبرى الأولى فتح بابها ففوزوها من ناحية مصب نهر السند على يد قائدهم الشاب العربى محمد بن القاسم الثقفى ، فبلغ فى غزوته الملتان . ولكن هذه الغزوة على أهميتها من الناحية التاريخية لم تتبعها محاولات أخرى للتوسع فى الهند لافى بقية العصر الأموى ولا طوال العصر العباسى الأول .

وكان الأقدار ادخرت شرف استئناف هذا المشروع الخطير والسير به أمداً بعيداً ، للعنصر التركى وللسلطان محمود الغزنوى بالذات . فلقد نذر الله أن يكفر عن محاربتة إخوانه فى الإسلام من سامانيين وبويهيين بأن يغزو الهند كل سنة ويثخن فى أرضها حتى يعلى فيها كلمة الإسلام أو يبلى عذراً .

ولقد كان السلطان يجهد أن يفى بنذره كلما ساعدته الظروف وواتته الأحوال . ففما بين سنتى ٣٩٢ و ٤١٦ هـ غزا ما لا يقل عن سبع عشرة غزوة . فكان يقصب من جبال أفغانستان على سهل الهندستان فى جنوده الأتراك الأشداء ، بخيولهم الفارهة وأسلحتهم الموفورة ، ونظامهم الحربى البديع ، انصباب السيل الدافع فيمير الأنهار الضعاب ، ويسلك القفار المدوية ، ويفتح المدن الحصينة ، ويحرب المعابد الوثنية ، ويكسر الأصنام الهندية ، لا يبالى تعباً ولا نصيباً . ثم يكر راجعاً إلى غزنة يمتلى اليدين من السبى الرائع ، والمغانم الهائلة ، مما حوته معابد الهنود من كنوز الذهب والفضة وفاخر الجواهر ونفائس الأعلاق . وقد انجلى هذا الغزو المتتابع عن امتلاك السلطان محمود إقليمى البنجاب وقشمير ، وسيطرته على مملكة كجرات الواقعة على المحيط الهندى .

ودخل الهنود فى دين الله أفواجا ، وترك فيهم السلطان الفاتح من يعلمهم أصول الدين الإسلامى ويلقنهم مبادئه ، فرسخ الإسلام من ذلك الوقت فى بلاد الهند ، وأصبح ديانة قومية ، ثابتة الدعائم ، قوية الأساس ، على نحو ما نشاهده الآن فى دولة باكستان الحديثة .

أثبت السلطان محمود أنه ذلك الفاتح الكبير والقائد المظفر الخطير . بيد أنه في مجال العمل السلمى لا يقل روعة وابتكاراً عنه في مجال الحرب والجهاد ، بل لعل جانب العمل السلمى من سيرته وما يشتمل عليه من تشييد البناء ، وتنظيم الإدارة ، ومناصرة العلوم والفنون والآداب ، أجل شأنًا من جانب البراعة العسكرية وأبعد أثرًا .

جدد عمارة المشهد بطوس وهو الذى فيه قبر على بن موسى الرضا وقبر الخليفة هارون الرشيد ، وأحسن عمارته كما يقول ابن الأثير . وبنى في غزنة مسجدها العظيم ، بناه بالرخام وحجر الصوان ، وأضاءه بمصابيح الذهب والفضة ، وفرش أرضه بالبسط الفاخرة . ويسر جلب الماء إلى عاصمته بقناطر خاصة ، وجعلها بكل ما تجمل به المدن من مختلف المرافق ، واقتدى به في ذلك رجال دولته ، فانتقلت غزنة في عهده من حال مدينة خاملة إلى حال عاصمة من أعظم عواصم العالم الإسلامى .

ولكن أمرين رفعوا السلطان محمود إلى أعلا منزلة يطمح إليها أمثاله من مؤسسى الدول أولها أنه كان شديد العناية بمصالح رعيته ، حريصاً على نشر لواء العدالة بينهم ، قوى الاعتقاد بأن العدل أساس الملك ، وقد وصفه بهذه الفضيلة الكبرى ابن الأثير في تاريخه ، والوزير السلجوقى نظام الملك في « سياستنامه » والأمر الثانى واهم العظم بالعلوم والفنون والآداب ، أسس في غزنة جامعة كبيرة ، رتب لأساتذتها الرواتب ، وأجرى على طلابها الجرايات ، وأمدّها بمكتبة حوت من نفائس الكتب الشئ الكثير . ولقد كان ذا حرص عجيب على أن يجتذب إلى بلاطه وعاصمته أعظم العلماء والفلاسفة والشعراء والكتّاب والمؤرخين ، مسخراً في سبيل ذلك جاهه وماله معاً . وقد اتفق في عهده سقوط الدولة السامانية ، واضطراب أمر فارس والعراق وصيرورة كثير من رجال العلم والفلسفة والأدب ، شبه مشردين لا يجدون ملجأ ولا نصيراً . فاستجاب كثير منهم لرغبة السلطان الفزنوى العظيم . واجتمع منهم ببلاطه عدد عظيم ، منهم أبو الريحان البيرونى صاحب التصانيف التى لم يؤلف مثلها في تاريخ الهند وبيان عقائد أهلها وعاداتهم والعقبى المؤرخ الذى وضع « الكتاب اليمينى » في سيرة السلطان محمود . وأبو الفتح البستى الشاعر المشهور ، والإمام أبو منصور الثعالبي صاحب « يتيمة الدهر » وكان السلطان حريصاً

على اجتذاب الرئيس أبى على بن سينا ، ولكن ابن سينا كان يخشى بوادى السلطان وحدة مزاجه فلم يجب طلبه وبالغ فى التحفى عن عيون الرجال الذين بشهم السلطان للبحث عنه وإشخاصه إليه .

وكما أخذ السلطان بناصر علماء العرب وشعرائهم ومؤرخيهم وكتابهم ، فقد ناصر كذلك شعراء النهضة الأدبية الفارسية الإسلامية فكان يزين بلاطه منهم العنصرى والفرضى والمسجدى والأسدى والغضائرى وخاصة أبا القاسم الفردوسى شاعر إيران الأكبر .
وللفردوسى مع السلطان محمود قصة نعرض لها فى مقام آخر ^(١) .

تلك سيرة السلطان محمود الغزنوى بالإيجاز الشديد . ومنها يتبين أنه يعد بحق من أعظم أعلام التاريخ الإسلامى . وقد توفى فى غزنة سنة ٤٢١ وورد ابن الأثير بعض سيرته فيقول « كان يعين الدولة محمود بن سبكتكين عاقلاً ، ديناً ، خيراً عنده علم ومعرفة ، وصنف له كثير من الكتب فى فنون العلوم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم ، وكان عادلاً كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم كثير الغزوات ملازماً للجهاد إلى أن يقول « ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق » .

ثم يقول فى حليته « وكان ربعة مليح اللون حسن الوجه ، صغير العينين ، أحمر الشعر » .

ولا شك أن السلطان محموداً كان حريصاً على جمع المال ولكن مما يهون من نقد ابن الأثير له من هذه الناحية أنه لم يكن ينفق المال الذى يجمعه على نفسه وملذاته ، بل كان ينفقه فى إعداد الحيوش الجرارة وتشيد المباني النافعة ونشر لواء العدل ، وخدمة العلم والعلماء .

(١) انظر المقال الآتى عن الفردوسى .

١ - الفردوسى (١)

(٣٢٥ - ٤١١ هـ)

احتفلت الأمة الإيرانية في أكتوبر الماضى بذكرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر أبى القاسم الفردوسى ، وقد دام احتفالها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور . ولم تكن الحفاوة بتلك الذكرى مقصورة على الإيرانيين وحدهم ، فقد شاركهم فيها العالم المتحضر شرقه وغربه ، فأوفدت ثمانى عشرة دولة كبيرة إلى إيران من يمثلها فى الاحتفال بذكرى الفردوسى ، وزاد بعضها من قبيل المجاملة للإيرانيين والتنويه بشاعرهم فاحتفى بتلك الذكرى احتفاء خاصاً فى عواصمه . فعل ذلك الألمان فى برلين ، والإنجليز فى لندن ، والفرنسيون فى باريس ، والإيطاليون فى رومية . وعما قريب تحذو مصر حذوهم فتب ذكرى الفردوسى أسبوعاً من الزمن يتحدث فيه بالقاهرة نفر من فضلائها عن حياة الفردوسى وشعره ، وعن أثر قومه فى عالم الفن والأدب . وأريد بهذه المناسبة أن أعرض فى هذا المقال وفى مقال آخر آت لسبب حفاوة الفرس وغير الفرس بذكرى الفردوسى . وسنرى أن البحث يكشف لنا عن شخصية فذة عجيبة حقاً . شخصية استطاعت من جهة أن تستنقذ قومية ولغة كان يتنازعهما البقاء والعدم ، ومن جهة أخرى ساهمت بنصيب موفور فى ميراث العالم الأدبى الباقى على مر الزمان .

هو أبو القاسم الحسن بن على الفردوسى ، وكلمة (الفردوسى) لقبه الشعرى ، فقد جرت عادة الفرس من قديم أن يخلعوا على شعرائهم ألقاباً خاصة كالديقيقى ، وملك الشعراء ، ومحكم الشعراء وهكذا^(٢) . ولد على رأى بعض النقات حوالى عام ٣٢٥ هـ بقرية من قرى مدينة

(١) أذيع مضمون هذا المقال من محطة الإذاعة المصرية فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤ . هذا ولم تقصد فى بحثنا إلى تاريخ الشاعر من الناحية الفنية فليس ذلك من شأننا ، إنما قصدنا إلى التحدث عنه من حيث إن حياته تلقى ضوءاً على الحال السياسية فى آسيا الوسطى الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ومن يرد سيرة الشاعر نفسه فليلتبسها فى مظانها وخاصة الشاهنامه ، ومقدمة (مول) لترجمتها الفرنسية وكتاب نولدكه عنها ، ومقدمة الدكتور عبد الوهاب عزام لترجمة البندارى العربية للشاهنامه .

(٢) وقيل فى تعليقه غير ذلك (انظر المدخل إلى الشاهنامه للدكتور عزام .

طوس بخراسان يقال لها (باز) ، وورث عن أبيه ضياعاً كانت تغل عليه في صدر حياته كفايته من المال . وتعلم في حدائمه ما كان يتعلمه أمثاله من أبناء الدهاقين في ذلك الزمان ، فخذق الفهلوية والعربية . وشغف في صباه بقرض الشعر الفارسي والتوفر على مطالعة القصص الفارسي القديم . فأنشأ كل ذلك عنده اعتداداً بقومه واعتناقاً لمذهبهم الشيعي . وشدا شيئاً من آراء المتكلمين من المعتزلة ، فنشأ فارسي الهوى ، شيعي المذهب ، معتزلي الرأي .

كان أمر خراسان في ذلك الوقت إلى الدولة السامانية ، وهي دولة فارسية من الدول التي تقسمت سلطان الدولة العباسية بضعف السلطة المركزية في بغداد ابتداء من القرن الثالث الهجري . وقد جهد السامانيون في بعث الروح القومي الفارسي مستعينين على ذلك بما للتاريخ والأدب من القوة في إذكاء الروح القومي عامة . فنقل وزيرهم البلعي برسم الأمير منصور الساماني تاريخ الطبري إلى الفارسية ، وتقدم عاملهم على طوس أبو منصور ابن عبد الرزاق إلى رجل يقال له أبو منصور المعمرى في جمع أخبار الفرس القدماء في شكل تاريخ شعبي لفارس من أقدم عصورها إلى الفتح الإسلامي ، فعهد المعمرى بالأمر إلى أربعة من الفرس الزرادشتيين فجمعوا ذلك التاريخ من الكتب المحفوظة في قلاع فارس ، وفي خزائن الموازنة والدهاقين . ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه « شاهنامه » أي « كتاب الملوك » ، وكان ذلك حوالي عام ٣٤٧ هـ ؛ وأراد السامانيون أن يسهل على الفرس تناول هذا التاريخ وتداوله ، فعهد الأمير نوح بن منصور الساماني بنظمه شعراً إلى فتى فارسي شاعر يعرف بالدقيق . فأخذ الدقيق في ذلك فنظم منه ألف بيت ثم هلك غيلة حوالي عام ٣٦٦ هـ .

اطلع الفردوسي على شاهنامه المنشور وعلى ما نظم الدقيق منه من نسخة أعاره إياها صديق له يقال له (محمد لشكري) . وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه الدقيق ، وصادف ذلك هوى في نفسه ، فامتثل الإشارة وعكف على نظم شاهنامه من حيث انتهى صاحبه ، فقضى في ذلك ثلاثاً وعشرين سنة أتم فيها نسخة شاهنامه الأولى (٣٨٩ هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كبراء الفرس الظاهرين بأرض أصبهان يقال له أحمد الخالنجاني ، فأجازه عليها بجائزة يسيرة .

في تلك السنين الطوال ، تبدلت الحال في خراسان لاضطراب أمر الدولة السامانية القومية المستنيرة ، وعراها ما يعرو البلاد عادة عند التأذن بذهاب دولة وقيام أخرى . فأهملت المرافق العامة وخاصة مرافق الري ، والبلاد بعد بلاد زراعية ، فشح الماء ، وجف الزرع ، وأجدبت الحقول ، ونالت ملاك الأراضي شدة تعذر عليهم معها أداء الخراج الموضوع على أراضيهم . وكان الفردوسى بطبيعة الحال من ضحايا تلك الضائقة الاقتصادية ، وزاده ضنكا وسوء حال انصرافه إلى حياة الأدب المحض ، واضطراره إلى أن يستكفي غيره النظر في شئون أرضه . ويظهر أثر تلك الحال واضحاً في ترديدة في شعره الشكوى من الفاقة وتنكر الزمان . وقد اضطر آخرة الأمر إلى مسألة أصدقائه ، فأعانه منهم نفر كرام النفوس أوفياء القلوب ، كافأهم عن صنيعهم بأن نوه بذكرهم في الشاهنامه . والحق أن الفردوسى ، وقد فقد الانتفاع بأرضه أصبح يرى أن من حقه على الناس أن يكافئوه على جهوده الأدبية بمال يزوج منه ابنته الوحيدة ، وينفق منه على نفسه في شيخوخته . وطفق لذلك يبحث عن أمير نبيل أو ملك جليل يهدى إليه الشاهنامه فيجيزه بجائزة تحقق أمنيته ، وسرعان ما وجد ذلك الملك الجليل في شخص السلطان محمود الغزنوى .

والسلطان محمود الغزنوى أوحده ملوك الإسلام لذلك العهد ، وأحد أبطال التاريخ الإسلامى على الإطلاق . قد شاد بعزمه وحمته ملسكاً عريضاً وسع سهل الهندستان ، وخراسان ، وتركستان ، وطبرستان ، وفارس . وأصبحت قاعدته (غزنة) بمساجدها ومدارسها وخزائن كتبها وعلمائها الأعلام من أمهات المدن الإسلامية . ويقال إنه لم يجتمع قط في مدينة أسيوية في وقت واحد من أعيان الأدب وأقطاب العلم والفلسفة مثل من اجتمع بغزنة على عهد السلطان محمود . ذلك بأن السلطان كان شغوفاً بالعلم والأدب ، حريصاً على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الإسلامية ليقیمهم بحضرته ، فيزدان بهم بلاطه ، وتكون له من قربهم شهرة أدبية تضاف إلى شهرته الحربية التى طبقت الآفاق . ومن العلماء الذين حفلت بهم غزنة على عهده ، البيرونى والعتبى المؤرخان ، والفارابى الفيلسوف ، وأبو الفتح البستى الشاعر العربى ، والمسجدى والعنصرى والفرّخى ، وكلهم من سباق شعراء الفرس في الإسلام . وكان الرئيس أبو على بن سینا قد قصد حضرة السلطان ثم بدا له فعدل عنها إلى جهة أخرى . وكان السلطان كلما فرغ من حرب وأقام بعاصمته ميثودهاً ، جلس إلى

أولئك العلماء يحدّثهم أو يستمع إلى حديثهم ، وهو في تصيده العلماء ومباهاته بهم يذكرنا بسيف الدولة الحمداني ، والحكم المستنصر الأندلسي ، وبفردريك الأكبر ملك بروسيا ، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا .

ذلك هو الملك الجليل الذي رآه الفردوسي مهوى فؤاده ومحط آماله . فأخذ يعدّ العدة لانتجاع حضرته والاعتراف من فيض جوده . فعمل يراجع الشاهنامه ، مطامنا بين أجزائه ، مكملًا ما نقص منه ، مستدركًا ما فاته في نسخته الأولى ومحليًا فصوله بمدح منية يطوق بها جيد ذلك الملك العظيم . وقد قضى في ذلك إحدى عشرة سنة ، فقد فرغ من إعداد النسخة الثانية للشاهنامه عام ٤٠٠ هـ وبلغت عدة أبياتها ستين ألفًا .

توجه الفردوسي إلى غزنة ومعه راويته ونسخة الشاهنامه ، فلقى وزير السلطان الرئيس الكبير أبا العباس الفضل بن أحمد ، وكان معنيًا بنشر الفارسية ، فأبلغه حضرة السلطان . واطلع السلطان على الشاهنامه ، ولا ريب أنه أدرك أنه ثمرة مجهود عقل جبار ، ولكنه مع ذلك لم يتقبله بقبول حسن . والروايات القديمة مجمعة على أن الوشاية والكيد قد عملا عملهما في إفساد قلب السلطان على الوزير والشاعر معًا . ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم ، فليس من شك في أن ذلك السلطان التركي المسلم الذي أنفق من الجهد في إعلاء كلمة الإسلام في الهند ما أنفق ، والذي كان نصيرًا للسنة ، وخصمًا ألد للباطنية والمعتزلة ، هذا السلطان لم يعجبه أن يشيد الفردوسي بمجد حازه الفرس أيام مجوسيتهم ، كما لم يعجبه أن ينفخ في بوق العصية الفارسية ، وأن يدير كتابه على الحروب التي وقعت في القديم بين إيران وطوران ، كما لم يعجبه تشييعه وجهه بآرائه الدالة على اعتزاله . كل ذلك قعد بالسلطان عن أن يحيز الشاعر بالجائزة التي كان يتوقعها ، والتي كان يعلق عليها آمالًا كبارًا . فيقال إنه بعث إليه بعشرين ألف درهم فقط مكافأة له على مجهود خمس وثلاثين سنة فيما يقال .

لكن الفردوسي لم يكن بالرجل الذي يحتمل هذا التقصير في حقه . فقد جرى السلطان شر جزاء . فيقال إنه دخل حمامًا فلما خرج منه شرب فقاعًا ، ثم قسم عطية السلطان بين الحمائي والفقاعي . وبلغ ذلك السلطان فهاج غضبه ، وهم بأن يبطش بالشاعر ، فلاذ الفردوسي

بالفرار من غزنة ، وظل محتبئاً بمدينة هراة ستة أشهر نظم فيها مائة بيت من الشعر هجا فيها السلطان هجا لا ذعاً موجعاً . فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طبرستان ونزل على صاحبها الأصهبيد شهر يار فأكرم مشواه وطيب خاطره ، واعتذر إليه عن السلطان بأن الأمر لم يعرض عليه كما ينبغي ، واشترى منه هجو السلطان بمائة ألف درهم ، ثم محا ذلك المهجو من الشاهنامه محواً . بيد أن الفردوسى رأى أنه غير آمن على نفسه فى طبرستان لأنها داخلة فى حكم السلطان محمود ، فخرج عنها إلى العراق العربى ونزل على أميره سلطان الدولة البويهى . ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهى من قصص القرآن الكريم . والفردوسى يصرح فى صدر هذه القصة بأنه نظمها تكفيراً عن إضاعته عمره فى نظم الشاهنامه ، الملى بأساطير الفرس الأولين ، ولكن يظهر أنه إنما أراد بنظم تلك القصة أن يلائم بينه وبين البيئة العربية التى أدى به تطوافه إليها .

ومهما يكن من شئ ، فلا شك أن الفردوسى رأى نفسه غريباً بالعراق ، وأن سراب حياته يوشك أن ينطفئ ، وأحب أن يوافيه أجله فى مسقط رأسه ، قريباً من ابنته بين أهله ومعشره ، وهون الخطب عليه أن السلطان كان قد ذهب عنه غضبه عليه ، وأن أمره كان قد نسى أو تنوسى ببلاط غزنة . فخرج من العراق شاخصاً نحو طوس ، فبلغها شيخاً فانياً مهود القوى قد جاوز الثمانين .

وتذكره السلطان محمود فى ذلك الوقت ، وذلك أنه كان راجعاً من الهند إلى عاصمة ملكه ، فعرض له ثائر فى قلعة حصينة ، فأرسل السلطان إلى الثائر رسولا أن « إيت غداً ، وقدم الطاعة ، واخدم حضرتنا ، والبس التشريف ، وارجع » فلما كان الغد ركب السلطان وإلى جانبه وزيره أحمد بن الحسن الميمندى . فلما بصر السلطان بالرسول مقبلاً قال للوزير « ترى ماذا يحمل من الجواب ؟ » فتمثل الوزير ببيت من الشاهنامه معناه « إذا لم يكن الجواب كما أريد ، فأنا والجرز والميدان وافرasiاب » فقال السلطان « لمن هذا البيت الذى تنبعث الشجاعة منه ؟ » قال « المسكين أبى القاسم الفردوسى الذى احتفل العناء خمساً وعشرين سنة وما جنى أية ثمرة » قال السلطان « أحسنت بما ذكرتنى ، إني ليحزننى أن يحرم عطائى هذا الرجل الحر ، ذكرنى فى غزنة لأرسل إليه شيئاً » فلما قدم الوزير غزنة ذكر السلطان ،

فقال السلطان « سر لأبي القاسم بستين ألف دينار يعطاها نيلجا ، ويحمل على الإبل السلطانية ، ويعتذر إليه » .

غير أن القدر الساخر شاء ألا تنفذ مشيئة السلطان ، فيقال إنه عند ما وصلت الإبل التي تحمل الهدية إلى طوس ، كان الفردوسي قد أسلم الروح (٤١١ هـ) ، وأنه بينما كانت الإبل داخلة من بعض أبواب المدينة ، كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر .

وأراد رسل السلطان أن يدفعوا الهدية إلى ابنة الفردوسي ، ولكنها اعتذرت من عدم قبولها . عند ذلك أمر السلطان أن ينفق المال في بعض وجوه البر ، فعمروا به رباطا للمجاهدين على حدود إقليم طوس . وكذلك نفى السلطان عن نفسه أخرة الأمر تهمة التقصير في حق الشاعر الكبير . فإن ادعى مدع أنه ظلمه في الأولى فقد أنصفه في الثانية ، ودل بذلك على نفس كبيرة وحلم عظيم .

* * *

تلك بالاختصار سيرة الحكيم أبي القاسم الفردوسي . وهي سيرة تفصح عما أوتيته ذلك الشاعر من قوة تتمثل في صدق عزيمته ، وبعدهمته ، وعظم غايته ، وثبات مقصده . كما أنها تفصح عن ضعفه الذي يبدو في حدة مزاجه ، وكثرة شكواه من الفاقة ، وتبرمه بالقاس والزمان ، ثم في ندمه في مطلع قصته الثانية على ما أنفق من جهده وأضاع من عمره في نظم ملحمة الأولى . على أن ذلك كله ليس مناط تعظيم قومه لذكراه ، إنما مناط ذلك هو الصنيع الجليل الذي أسداه إلى القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة .

ولبيان ذلك ينبغي أن نرجع مع الزمن إلى أوائل القرن الأول الهجري ، فقد حل العرب إذ ذاك على الدولة الفارسية ، وما هي إلا سنوات معدودات ، حتى كانوا قد قضوا على ملك آل ساسان ، وصيروا فارس إقليما من أقاليم الخلافة العربية ، وانتشر الإسلام بعقب ذلك في فارس حتى كاد يقضى على الدين الزرادشتي ، كما انتشرت العربية بين الفرس حتى أخملت الفهلوية وكادت تمحوها .

قبل الفرس الإسلام عن طواعية نفس وطيب خاطر . أما القومية فقد جاهدوا من أجل الاحتفاظ بها جهاداً عظيماً . وقد تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالحقوق العامة قام

بها الموالي زمن الدولة الأموية ، إلى مؤازرة للتأثرين عليها من الخوارج والشيعة ، إلى ثورة عامة انجلت عن سقوط الدولة الأموية العربية ، وقيام الدولة العباسية التي كانت فارسية في أكثر أوضاعها العامة ، إلى استقلال سياسي يسره ضعف السلطة المركزية ببغداد ، إلى سعي حثيث في أن يكون للفرس وجود قومي صحيح .

إلى هذا الجهود الضخم الموجه إلى الاحتفاظ بالقومية ، قام الفرس بمجهود آخر رائع من أجل إنهاء لغتهم وتعميم استعمالها في بلادهم .

لقد طغت العربية على الفهلوية في العصر العربي الأول طغيانا كان من أثره أن انحصر استعمال هذه اللغة في حدود إقليمية ضيقة في فارس وخراسان وطبرستان ، ولم تسلم الفهلوية في معاقها هذه من التأثر بالعربية ، فقد أصبحت تكتب بالخط العربي ودخلتها ألفاظ وتعابير عربية أحالتها إلى طور جديد من تاريخها ، عرفت فيه بالفارسية الحديثة . ويتنبه الشعور القومي عم استعمال اللغة المذكورة في تلك الأقاليم الثلاثة ، حتى كادت العربية تنمحي من بعضها ، كما يؤخذ من قول المتنبي :

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الريح من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وقد عول ساسة الدول الثلاث : الطاهرية والصفارية والسامانية ، على أن يجعلوا الفارسية الحديثة لغة أدب وتدوين ، فشجعوا الشعراء على النظم بالفارسية ، وأمر السامانيون بتدوين تاريخ قومي للفرس ، ونظمه بهذه اللغة كما تقدم القول .

وعلى الرغم من التقدم الذي أحرزه الفرس في أمر قوميتهم ولغتهم ، فإنهم كانوا في أواخر القرن الرابع بحاجة إلى مدد أدبي متماز يبعث في القومية الفارسية روحا قويا ، ويشبت دعائم الفارسية الحديثة وينهضها على أساس ثابت ، وقد أمد الفردوسي قومه بهذا المدد . فالشاهنامه يعنى بأسهل عبارة وأبلغ تصوير تاريخ الفرس القدماء ومفاخرهم وآدابهم وأساطيرهم . لذلك أضفى في حياة ناظمه — وهذا أمر منقطع النظير — ملحمة قومية ،

ولم يمض طويل زمن حتى غدا « قرآن القوم » على حد قول صاحب « المثل السائر » .

* * *

لقد أدى الفردوسى « رسالته الخاصة » أحسن الأداء ، وأصبح فضله على قومه ولغته باقياً ما بقى قومه ولغته . وقد عرف له قومه هذا الفضل فذكروه فى هذه الأيام فأحسنوا ذكراه ، وشادوا فوق رفاته بناءً عالياً ، وهذا جهد مثوبة الحى للميت . وإن الإنسان ليدكر فى هذا المقام دانتى الإيطالى ، وكورياس اليونانى ، فكلاهما أذكى الروح القومى فى بلده ، وجدد بمجهوده الخاص دارس لغته ، هذا بنثره ، وذاك بشعره .

٢ - الفردوسى

تتمة (١)

بينت فى مقالى السابق الذى من أجله يكبر الفرس الفردوسى ويعدونه شاعرهم القومى فقلت إن الفردوسى بنظمه « كتاب الملوك » الذى يضم بين دفتيه تاريخ الفرس الأقدمين وأساطيرهم وآدابهم ، قد أمد القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة ، بمدد قوى ، رسم للأولى حدوداً واضحة ، وشرع للثانية منهجاً ظلت تسير فيه حتى يومنا هذا . والفردوسى بهذا الصنيع الجليل قد هيا السبيل لظهور فارس الحديثة ذات الشخصية البارزة فى تاريخ الشرق الحديث .

ولكن ما السبب فى أن شعوباً أخرى غير الفرس تحفل بالفردوسى وتجله ، ولم تتحاش أن تعلن ذلك بالاحتفال بذكراه الألفية ، وجواب هذا السؤال موضوع هذا المقال .

* * *

بعد الفردوسى عند علماء الأدب ونقاد شاعر قصصياً من شعراء الطبقة الأولى ، فهو فى مرتبة هوميروس ودانتي ومilton . والشاعر القصصى العظيم هو الذى ينشئ ملحمة أى منظومة قصصية طويلة بليغة يعتبرها قومه غرة أدبهم . وحظ هذه المنظومة من الذبوع والانتشار يتوقف على نوع موضوعها . فإذا كان الشاعر قد اخترع الموضوع اختراعاً وتخيلة تخيلاً ثم أفرغ عليه بعد ذلك حلة من بلاغته وقوة تصويره فهى ملحمة محدودة الذبوع ، يقبل على قراءتها خاصة الأدباء والمثقفين وأساتذة الأدب فى الجامعات . ومن هذا الصنف « الكوميديا » لدانتي « واللجنة المفقودة » لمilton . أما إذا ألف الشاعر موضوعه من الحكايات الشائعة فى قومه ، وأساطيرهم التى يعتقدونها ، وأغانيم التى يتغنون فيها بذكر

(١) يتضمن هذا المقال البحث الذى ألقته باللغة العربية فى مؤتمر الذكري الألفية للفردوسى المنعقد فى طهران سنة ١٩٣٤ . وهو البحث الوحيد الذى ألقى فى ذلك المؤتمر باللغة العربية ، وكان عنوان البحث « الفلسفة الأدبية للشاهنامه » .

ما اختلف عليهم من الأحداث ، ثم عرض ذلك كله عرضاً شعرياً قوياً بليغاً ، وكان في ذلك فيلسوف النظرة يتناول العام من ثمايا الخالص فيصور العالم وهو يصور قطعة منه محدودة ، ويصف الطبيعة البشرية وهو يصف قبيله ومعره ، ويتناول الزمن وهو يتناول برهة منه ، إذا فعل الشاعر ذلك فقد كتب للملحمة الذبوع والخلود . وسرعان ما يحل الحديث المونق الحكم محل القديم المبعثر المتفرق ، فتتسخ الملحمة الجديدة الحكايات القديمة ، وتأخذ مكانها من قلوب الأمة التي تصور فعالها ، وعلى مر الزمن تنفذ الملحمة من حدود المحلية والإقليمية وتشيع في أنحاء العالم المتمدن وتستحيل أثراً أدبياً عالمياً . وأشهر ملاحم هذا النوع ، الإلياذة والشاهنامه الذي نحن بصدد الكلام عليه .

والشاهنامه يسترعى اهتمام غير واحد من خاصة المتأدين ، فالغوى يطالع فيه صفحة واضحة من تاريخ اللغة الفارسية الحديثة ، والاجتماعى يجد فيه عوناً على تصور المجتمع الفارسى القديم ، ومعرفة أخلاق القوم وعاداتهم ومواضعاتهم ، والغنى بالأساطير القديمة ينفع به انتفاعاً جماً في دراسة الميثولوجيا الإيرانية والمقارنة ، ومؤرخ الأديان يستخلص منه صورة مجملة لعقائد الإيرانيين القدماء ، والمؤرخ السياسى يرجع إليه في دراسة النظم الفارسية القديمة ويجد فيه صدقاً قوياً لعلاقة الفرس بمن جاورهم من الأمم وخاصة الهند والترك والعرب . والفنان الذى تستهويه بلاغة العبارة ودقة المعانى وقوة التصوير يرى في الشاهنامه مثلاً علياً لكل ذلك . فالفرزدوسى يعرج في سماء البلاغة حتى يسامى النجم ، وهو فى الوقت نفسه يخاطب الناس بمألوف حديثهم ومعارف معانيهم ، ثم هو وصاف مبدع ، إذا تصدى لوصف واقعة حربية أراك ميدان القتال ، وجلا على عينك ما يجرى فيه من كرفر وهجوم وتحيز ، وأراك السيوف تلمع ، والرماح تشرع ، وأسمعك تصاول الحكمة ، وصهيل الخيول ، وأنين الجرحى ، وصور لك ظفر الغالب وهزيمة المغلوب . فإذا انتقل إلى وصف مجلس من مجالس الدعة والأنس مثل لعينيك أسباب السرور ، ودواعيه ، وأدواته ، ونقل إليك ما يشيع فى المجلس من صفاء النفوس ، وتجاوب القلوب ، فإذا أراد تصوير العاطفة البشرية أراك حنو الأم ، وعطف الأب ، وله العاشق ، ووفاء الزوجة ، وإخلاص الصديق

لقد أدرك الفردوسى قوام الفن وملاكه ، أدرك معنى الجميل ومعنى الجليل ، وعرف كيف يعبر عنهما .

على أن الناحية الأخلاقية من الشاهنامه ، هى عندى أهم نواحيها وأبعثها على التقدير العام بها . فالفردوسى لم يقصد إلى أن يكون مؤرخا ، ولا إلى إظهار بلاغته ، بمقدار ما قصد إلى أن يكون كتابه كتاب أدب وحكمة وتهذيب ، نلحظ ذلك فى الجانب التعليمى من كتابه ، فالفردوسى لا يبرح واعظاً ومرشداً وهادياً ، سالكا حيناً طريق الحقيقة وحيناً طريق المجاز ، ونلحظ ذلك القصد أيضاً فى خلو الشاهنامه خلواً مطلقاً من الألفاظ والمعانى التى ينبوغها الأدب والذوق السليم ... بهذه المزية يصح القول بأن « كتاب الملوك » كتاب يتأدب بمطالعة الناس فى كل زمان وكل مكان ، وإذا كانت « الإلياذة » تنمى فىنا عاطفة الحياء والغضب للحق ، وفضيلة الإيثار والانتصار للضعيف ، وإذا كانت « كوميديا » دانتى تعرفنا بطريقتها الرمزية أى أساليب الحياة يودى فى الآخرة إلى الثواب وأيها يودى إلى العقاب ، وإذا كانت « الجنة المفقودة » تقوى الروح الدينى فى نفس القارىء ، فإن الشاهنامه يرمى إلى تهذيب النفس وتكميلها .

وفلسفة الشاهنامه الأخلاقية تقوم على أربعة أمور عظام : الإيمان ، والواجب ، وطهارة القلب ، والزهد .

والإيمان عند الفردوسى ليس ذلك الشعور الذى يخالط ضعفاء النفوس وخورة الطباع ، ولكنه إيمان الأبطال والملوك . فالفردوسى يعتمد أن يظهر أبطاله وملوكه عند استكمالهم أسباب العزة والجبروت فى مظهر النقص والافتقار إلى عون الله ومدده مبالغة منه فى توكيد ضرورة الإيمان فى الحياة ، ورغبة منه فى كبح جماح النفوس الطاغية ، وكسر شررة القلوب العاتية . ولنمثل لذلك من الشاهنامه : فعند ما خرج الملك (كيخسرو) إلى قتال (أفراسياب) انتقاماً لمقتل ابنه (سيما وخش) جعل يدعو الله تعالى أن ينصره على عدوه يقول الشاهنامه^(١) : « وبعد ذلك اغتسل كيخسرو ودخل متعبداً لهم ، وجعل طول ليلته

يتضرع إلى الله تعالى ويبتهل ويعفر خذه بالتراب ويستنصره على أفراسياب ، ويسقعين به عليه ، فقطع ليلته تلك بالسجود لله تعالى والدعاء ، فلما انتصر على خصمه من وجهه وأعياء طلابه رجع إلى الله يستعينه ويستهديه . يقول الشاهنامه « فاغتسل ذات ليلة وأخذ كتاب الزند وخلا بنفسه في مكان خال ولم يزل طول ليلته ساجداً لله تعالى يبكي ويتضرع إليه سبحانه ويقول : « إن هذا العبد الضعيف ، المجمع الجسم والروح طاف الدنيا ، فسلك رمالها وقفارها ، وقطع جبالها وبحارها ، طالباً لأفراسياب الذي أنت تعلم أنه سالك غير طريق السداد ، وسافك بغير الحق دماء العباد ، وأنت تعلم أني لا أقدر عليه إلا بحولك وقوتك ، فكنى منه . وإن كنت عنه راضياً ، وأنت تعلم ولا أعلم ، فاصرفني عنه ، وأطفي من قلبي نائرة عداوته وقف بي على سواء الطريق والنهج القويم » . وعند ما غمر الثلج أسفنديار وأصحابه في طريق « هفتجوار » الوعر الشاق ، ووجد ذلك البطل المغوار نفسه أمام قوة لا قبل له بها ، لم يسهه إلا أن يسلم أمره إلى الله تعالى ، فتقول شاهنامه : « فيبنا هم كذلك إذ أظلم الجو واشتدت الرياح ، ونشأت سحابة أبرقت وأرعدت وأطبقت عليهم ثلاثة أيام بلياليها ، تهيل عليهم الثلج هيلاً ، حتى امتلأت الأودية ، فصاح اسفنديار ... وقال : قد اشتد علينا الأمر وليس ينفعنا الآن رجولة ولا قوة ، والرأي أن نلجأ إلى من لا ملجأ منه إلا إليه ، فإنه الكاشف للضر والقادر عليه ، فاجتمعوا ورفعوا أيديهم وتضرعوا إلى الله تعالى مبتهلين ، ودعوه دعوة الصادقين ، فسكت الهواء وانجملت السماء » .

والأصل الثاني من أصول الفلسفة الأدبية « لكتاب الملوك » القيام بالواجب ، والشاهنامه يعني بهذا الأصل الذي هو قوام الحياة اليومية أتم عناية . فأعظم ملوك الشاهنامه أقومهم بواجبه ، وواجب الملك في رعيته العدل ، والحلم ، والسخاء ، وترك الاستبداد . فإذا ما حاد الملك عن هذا السنن « جفت الألبان في الضروع ، ولم يأرج المسك في النوافج ، وشاع الزنا والربا في الخلق ، وصارت القلوب قاسية كالبحر الصلد ، وعانت الذئاب وضربت بالإنس ، وتحوف ذوو العقول من ذوى الغواية والجهل » . وعهد كسرى أنوشروان لابنه هرمز حافل بثلث الآداب السلطانية التي تنص صراحة على ما يجب على الملك نحو نفسه ونحو رعيته .

وبطولة أبطال الشاهنامه تستند إلى شعورهم القوي بالواجب . انظر كيف لبي رستم طلب (جيو) إنقاذ ابنه (بيثرن) وكان أسيراً مغلولاً في مطمورة مظلمة بأرض طولان . وقوله له (لا تهتم فإنى لا أحط السرج عن الرخس حتى آخذ بيد بيثرن وأضعها في يدك) وانظر خطاب جيو للملك كيخسرو (أيها الملك ! إن أمى ما ولدتنى إلا لطاءك ، وتحمل المسكاره فيما هو سبب راحتك . وهأنذا أشد وسطى في امقثال أمرك ، ولا أسلاك إلا سبيل خدمتك ولو أمطر الهواء على ناراً ، وتحولت الأشفار في عيني شفاراً) وقول (اكشهم) لبيثرن وهو يجود بروحه (أيها الحبيب النافج لا تحمل على نفسك كل هذا ، فإنه أشد على مما أنا فيه . واستر جراح رأسى بالترك ، واجتهد في حملى إلى حضرة الملك ، فإن قصارى بغيى ، وغاية أمنيى ، أن أتزود منه بنظرة ، وأقر عيني بطلعه ولو لحظة ، وإذا مت بعد ذلك مت وليس فى قلبى حسرة ، فإنى لم أولد إلا للموت ، ومن أدرك أمله فكأنه لم يمت ، وأيضاً تجتهد فلعلك تستطيع أن تحمل هذين العدوين اللذين أهلكهما الله على يدي إلى المعسكر ، وإن لم تقدر فاحمل رءوسهما وعدتهما حتى تعرضها على الملك ، ليعلم أى ما هلكت فى غير شىء) .

وروعة شخصية المرأة فى الشاهنامه تقوم على وفور حظها من الأنوثة والوفاء لزوجها ، يدل على ذلك نواح (نهمينه) على ابنها (سهراب) ووفاء (منيرة) لزوجها (بيتزن) فى محنته مع أن أباهما كان المساط على عذابه .

وكما تفرض الشاهنامه القيام بالواجب من حيث هو فضيلة أساسية للحياة الفاضلة فإنها تدل بالأمثلة المحسوسة والوقائع المادية كيف يؤدى الواجب . فينبغى أن نؤدى الواجب محلى بأحسن آداب السلوك من جد ورفق ، وسهولة خلق وضبط نفس ، ورقة شمائل ، ولا أدل على ذلك من الحوار الذى دار بين بطلى الشاهنامه (رستم) و (أسفنديار) عندما اشتد بينهما اللجاج وحى الخصام ، فهو حوار ينم عن نبل خلق وسراوة نفس . وقد بلغ من دقة حس الفردوسى ورقة قلبه أن أوجب علينا الوفاء لمن أحسن إلينا ولو كان حيواناً أعجم . انظر بأى قلب وأية شمائل يخاطب رستم الغزاة التى كان طرده لها سبباً فى وقوعه على عين ماء روى منها بعد أن كاد يهلك عطشاً ، فهو يخاطبها بقوله : (لا زلت يا غزاة الريف ، تفيثين إلى

الظل الوريث ، وتكرعين في الزلال المعين ، وتقلبين بين الورد والياسمين ، وأيما قوس راعك أنباضه ، فلا زالت متقطعة أوباره ، فإنك سددت رمقي وشفيت غلتي .

والأصل الثالث من أصول فلسفة الشاهنامه الأدبية طهارة القلب ؛ والفردوسى يحثنا في غير موضع من كتابه على أن ننفي عن قلوبنا أدواء الحقد والحسد والضغينة . يقول رسم لاسفنديار : « ... وطهر قلبك بفضيلة الرجولة من دنس الداء الدفين » والفردوسى لا يكتفى بأن يندب قارئه إلى تطهير قلبه ، بل لقد يتولى هو بنفسه ذلك مستخدماً طريقة العرض الدرامى التى نلاحظها فى أكبر الملاحم والقصص . نلاحظها فى آثار هوميروس ، وسفوكليس ، واسخيلوس ، وشكسبير ، وملتن ، ودستوفسكى . وذلك أن يعمد الشاعر إلى حادث رائع مقطع ، فيعرضه عرضاً فنياً قوياً ، فيمزج بذلك قلب القارئ ويمخضه ، فيكون ذلك منه بمنزلة الدواء المربحجعه المريض على مضض ، ولكنه تكون فيه سلامته من علته ؛ وقد بلغ الفردوسى بسلوك هذه الطريقة أسمى غايات الفن ، وأتى من رائع القصص ما يشغف القلب حسنه ، ويسحر اللب بمانه . انظر كيف يعرض قصة قتل رسم ابنه سهراب على غير علم منه بأنه ابنه ؟ يقول الشاهنامه : « ... ثم تفاوشا الحرب ، وتطاعنا حتى انتثرت كعوب رماحهما ، فاسقل كل واحد منهما سيفه ، وتضاربا ، وكأن النار تمطر من سيوفهما ، ولم يزالا حتى تكسرت سيوفهما ، فمدا أيديهما إلى عموديهما ، ورفعاهما ، وجعلا يتضاربان ويتقارعان حتى تمزقت الأذراع الموضونة على أكتافهما ، وتقطعت التجافيف على خيلهما ، فضعفا ، ووقفت دوابهما ، وبقيتا من العرق غريقين ، ومن العطش محترقين ، فوقف الأب من جانب ، والابن من جانب آخر ، ينظر أحدهما إلى الآخر . فيا عجباً ! كيف انسدت دونهما أبواب التعارف ، ولم تتحرك بينهما عروق التناسب ؟ والإبل مع غلظ أكتافها ، تعطف على أولادها ، والطيور فى جو السماء ، والحيتان فى قعر الماء لا تنكر أولادها وأفراخها ! والإنسان من فرط حرصه تخفى عليه قلدة كبده ويستفكر قرة عينه ولا ينزع إلى ولده ! »

ثم يقول رسم : « لم أرق قط قتالاً بهذه الصفة ، ولقد انقطع رجائى من رجولتى » فإذا

ما استأنفا القتال ، قال سهراب لرستم وهو يجهل أنه أبوه : « إني أرى أن نخلع الجوشن ، ونطرح السيف ، ونكف عن القتال ، فإن قلبي يميل كل الميل إليك ، وإن وجهي ليغمره الحياء منك » . ولكن يخيب رجاؤه ، ويعود الأب وابنه إلى المبارزة ، فيغلب الأب ويصرع ابنه ، ويحتم على صدره ، ثم يذبحه ذبحاً ، ثم يتبين له ، وقد سبق السيف العذل ، أنه إنما ذبح ابنه ، فيشق جيبه ، ويضرب صدره ، وينتف شعره ، ويندب ولده ، ويحاول استنقاذه من برائن الموت فيعجزه ذلك ؛ ويموت سهراب ، فتتقد لوعة الحزن في صدر رستم ، ويصيح من فرط العذاب : « من الذي أصيب بمثل ما به أصبت ؟ ومن الذي فجع بمثل ما به فجعت ؟ قتلت ولدي حين شاب رأسي وانقضى عمري ! » .

إن القارئ ليتابع مشاهد هذه القصة وقلبه يتوثب في صدره فرقاً وذعراً . فإذا بلغ الكارثة الأخيرة فقد لا يملك دمه أسي وحزناً . وهذا الذي قصد إليه الشاعر رغبة منه في أن يمكن فيه لعاطفتي الحنو والرحمة .

ولا يقف الفردوسي عند هذا الحد من تطهير قلب قارئه ، بل يجتهد في أن يروض من نفسه ويكبح من جماحها بأن يحلوها تقلب هذه الدنيا ، وتصرف أحوالها بالناس تصرفاً قد يسوء ضعاف النفوس ، ولكنه لا ينال من ذوى النفوس القوية منالاً ، وهو على عادته يعمد إلى أقوى شخصياته فيجعلها نقاط فلسفته رامياً بذلك إلى أن نأخذ الدنيا كما هي فنفرح بها إذا أقبلت في غير اغترار بها ، ولا نأسى عليها إذا هي أدبرت . وإن فلسفته من هذه الناحية لترجع فلسفة الرواقيين الذين يريدون أن نتجرد من العاططة جملة ، فلا نفرح ولا نحزن ، ولا نغضب ولا نعتب . انظر كيف يصف الشاعر مصير الملك أفراسياب عندما قلب الزمان له ظهر الجفن ، وتجهم له وجه القدر ، قال أمره إلى أن وقع أسيراً في يد رجل عابد فسد وثاقه واضطره إلى أن يخاطبه بقوله : « أيها العابد ! ما تريد من رجل اختفى في مغارة ضيقة ؟ » فلما عنفه العابد على ما احتقب من أوزار قال : « بهذا جرت على أفلام قضاء الله في الأزل ، ومن المعصوم في هذه الدنيا الغدارة من الزلل ؟ » . ثم إن مصير الملك دارا واغتيال عبديه له تقر با بدمه إلى الإسكندر ليجرى مجرى حديث أفراسياب من حيث الدلالة على تقلب الدنيا ، وهي ترينا الفردوسي جبرياً يرى أن الإنسان لا يملك لنفسه مع القدر نفعا ولا ضرراً .

وإذا كان ذلك دأب الدنيا ، فخليق بالعاقل أن يرفضها ويزهد فيها . والزهد في الدنيا هو الأصل الرابع من أصول فلسفة الشاهنامه الأخلاقية ، والفردوسى لا يألو جهداً في صرف قلوبنا عن أن تقتن بالدنيا ولكن في غير إخلال بالواجب الذى يفرضه علينا وجودنا فيها . انظر إلى تصويره الحال المعنوية للملك كيخسرو عندما انقبضت نفسه ، وأزمع التخلي عن الملك ، والذهاب في الأرض ، فقد عهد إلى ابنه ، وودع أكابر الدولة « ثم سار ... وصحبه رموس الإيرانيين ... إلى أن صعد إلى جبل ، فأقاموا عليه أسبوعاً ، وخرج في أثره نساء الإيرانيين ورجالها زهاء مائة ألف نفس ، ييكون ويضجون حتى طن بصياحهم وعويلهم السهل والجبل . ثم بعد أسبوع أشار الملك على الأكابر والسادات بالانصراف من ذلك المكان وقال : إن أمامنا طريقاً لا ماء فيه ولا عشب ، فانصرف دستان ، ورستم وجوزرد ، ولم ينصرف عنه الباقون ، فسار الملك ، وساروا معه حتى وصلوا إلى ماء ، فنزلوا هناك ، وقال لهم الملك : إذا طلعت الشمس غداً حان وقت المفارقة ، فباتوا ليلتهم عند العين . ولما كان الثلث الأخير من الليل ، قام الملك ودخل العين ، واغتسل ثم ودعهم وقال : « إن الثلج غداً يسد عليكم الطريق فلا تهتدون إلى الرجوع إلى إيران ، ولما طلعت الشمس ركب الملك ، وغاب عن أعينهم » .

وحديث الإسكندر الملك الشاب الفاتح الطموح مع أهل مدينة البراهمة المنقطعين عن الدنيا ، والراضين منها بأيسر أمرها يرى إلى أى حد يذهب الفردوسى في تقرير فلسفته القائمة على العزوف عن الدنيا وعدم الركون إليها .

وبعد ، فأرجو أن أكون قد بينت للقارئ السبب في تقدير غير الفرس لفردوسى ولالشاهنامه ، وأختم هذا البحث بأن أنبه على أن مظهر هذا التقدير قديم ، فقد ترجم الفتح بن على البندارى الشاهنامه إلى العربية الفصحى في أوائل القرن السابع الهجرى^(١) ، وأن الشاهنامه قد نقل إلى أشهر اللغات الأوروبية الحديثة ، وأن بعض هذه التراجم في غاية الدقة والعناية والإتقان .

(١) وقد نشر زميلى الدكتور عبد الوهاب عزام هذه الترجمة نشرأ علمياً محققاً ومن هذه الترجمة اقتبسنا النصوص الواردة في هذا المقال .

سيرة أحمد بن طولون

لأبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوى^(١)

هذا عنوان سفر جليل لمؤرخ مصرى من أهل القرن الرابع الهجرى هو أبو عبد الله ابن محمد المديني البلوى ، وضعه فى سيرة رجل من أقوى الشخصيات التاريخية الإسلامية هو الأمير أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية المشهورة . وقد انتقلت مخطوطة هذا الكتاب من مصر إلى الشام على ما يظهر أيام كانت مصر والشام تؤلفان ملكاً واحداً ووطناً واحداً . ثم استقرت فى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، إلى أن قبض الله لها المؤرخ البهائية الأستاذ محمد كرد على بك فنفض عنها غبار الخمول والنسيان ، وأدرك من فوره قيمتها العلمية ، فعكف على إعدادها للنشر ، ثم عرضها للناس فى معرض على قشيب . فكان ذلك الجهد منه وهو فى شيخوخته المباركة خير هدية يقدمها إلى مصر التى رعتة زمناً فى صباه وصدر شبابه ، كما كان مثلاً جميلاً من أمثلة الوفاء وتأدية الأمانات إلى أهلها . وفيه فوق كل ذلك إشارة لطيفة إلى اشتباك العلاقة الثقافية بين مصر والشام من عهد بعيد .

ظهر هذا الكتاب القيم ، والحرب الحاضرة قد بدت أشرطها ، ودوت فى الخافقين نذرها ، فلم يحتفل الأدياء والمؤرخون لظهوره كما كان ينبغى ، وشغلوا عنه بما شغل به الناس عامة من أهوال الحرب وخطوبها . فكان ذلك الإهمال الذى لم يعمدوه من بعض ما بادت به الحرب الحاضرة من إثم ، واحتقبت من أوزار .

وتعتبر سيرة أحمد بن طولون للبلوى بحق نصاً من النصوص الأساسية الخاصة بالدولة الطولونية تضم إلى المصادر القليلة التى وصلتنا فى هذا الموضوع الهام ونعنى بها سيرة أحمد ابن طولون لابن الداية المتوفى سنة ٣٣٤ ، وقد وصلتنا ملخصة بقلم ابن سعيد المغربي ،

وكتاب «المكافأة» لابن الداية كذلك ، وكتاب ولاية مصر وقضاتها للكندي المتوفى سنة ٣٥٠ ، وأخبار سيبويه المصري للحسن بن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ ، بل إن سيرة البلوى لتعد بقدما وتفصيلها الوافي أهم مرجع لتاريخ الدولة الطولونية عرف حتى اليوم .

والكتاب كما نشره الأستاذ كرد على بك يشتمل على مدخل بقلم الأستاذ الناشئ ضمنه الكلام على المؤلف وتأليفه ، وعلى أصل المخطوط الذي طبع منه الكتاب ، وعلى أحمد بن طولون كما صورته البلوى . ثم يلي ذلك متن الكتاب ويقع في ٣٣٠ صفحة مقسمة تناولت سيرة ابن طولون من أول أسرته إلى وفاته . ثم يلي المتن فهرس ضافية ، وجدول تصحيحات لأخطاء وقعت في الكتاب أثناء طبعه .

ومن يقرأ «سيرة أحمد بن طولون» للبلوى قراءة بحث وتحقيق ، تعرض له أمور هي محل للنظر من غير نزاع . فأولا من هو البلوى الذي ينسب إليه وضع هذه السيرة ؟ يخبرنا الأستاذ كرد على بك في مقدمته مستنداً إلى ابن النديم والطوسي والذهبي وابن حجر أنه فقيه عربي الأصل محدث عاش في أواسط القرن الرابع الهجري ، وأنه كان شيعياً إمامياً ، وربما كان إسماعيلياً . وأن مؤرخي رجال الحديث من سنيين وشيعية يرمونه بالكذب ووضع الحديث . فإذا صح أنه شيعي فما الذي حدا به أياً كان مذهبه إلى أن يؤلف سيرة أمير تركي سني متشدد في سنيته ؟ يذهب الأستاذ كرد على بك إلى أن ابن طولون ربما كان يسر عطفاً على الإسماعيلية سياسة منه واستظهاراً بهم على تشييد دولته ، وأنه كان يكتفم هذا العطف تقيّة منه ، فأحب البلوى أن يحزّيه عطفاً بعطف ، فكتب سيرته . ونحن نخالف الأستاذ الجليل فيما ذهب إليه ، فليس في سيرة أحمد بن طولون ما يستفاد منه من قرب أو بعد أنه كان يميل إلى الشيعة ، وخاصة الإسماعيلية ، ويرغب في اصطناعهم ، بل إن في سيرة البلوى نصوصاً صريحة في شدة ابن طولون على العلويين والطلبين . من ذلك قتله علويًا اسمه بفا الكبير ثار عليه^(١) . وتنكيله بابن الصوفي وهو طالبي بعث عليه ثورة كبيرة بالصعيد^(٢) . ويروي اليعقوبي أن ابن طولون أخرج الطلبين من مصر إلى المدينة ، ونكل

(١) السيرة ص ٦٢ .

(٢) السيرة ٦٢ — ٦٦ .

بواحد منهم لأنه تخلف عن الخروج^(١) كما يذكر الكندي أنه لما غضب أحمد بن طولون على أخيه موسى أمر هذا وكان بطرسوس بلبس البياض إعلاناً منه بميله إلى الشيعة^(٢). هذا عن دعوى عطف ابن طولون على الإسماعيلية. أما إسماعيلية البلوى، فالأمر فيها أصبح واضحاً بعد أن بين السيد الزنجاني — وهو الحجة الثابت في تاريخ التشيع — أن الأصول القديمة لم تشر إلى دعوته الإسماعيلية، وأن صاحب الفهرست قد خلط بين الداعين إلى المذهب الإسماعيلي والداعين إلى غيره من مذاهب الشيعة^(٣). بقي أن يقال أن البلوى كان إمامي المذهب، وهو ما ذهب إليه عالم آخر بتاريخ التشيع هو الأستاذ إيفانوف^(٤). فإذا صح ذلك فلا جرم أن تشييعه لم يبعده كثيراً ولا سيما في ذلك العصر عن هدى السفة والجماعة. ويمكن إذن أن نفهم إقدام البلوى على وضع سيرة أمير تركي سني.

والحق أن البلوى إنما صنف سيرته لا ليرضى نزعة مذهبية خاصة، ولكن ليرضى قبل كل شيء ميوله الأدبية، فهو أديب بارع فوق كونه واعظاً وقيماً وعالمًا كما وصفه ابن النديم. رأى في سيرة أحمد بن طولون أوجد رجال العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثالث مجالا لقلمه وبيانه، ورأى مادة البحث متوافرة له وفي متناول يده، ورأى في الوقت نفسه أن السيرة التي حررها ابن الداية معيبة من الوجهة الفنية، فسمت به همة الأديب الممتاز إلى أن يكتب هذه السيرة على نحو أتم وأوفى وأجمل مما جاء في سيرة ابن الداية. وقد صرح بغرضه هذا في مقدمة السيرة حيث يقول :

«... وأنت قرأت كتاب أحمد بن يوسف فلم يكن موقعه منك الغرض الذي إليه ذهبت، ولا المعنى الذي له نحوت، وأنت تريد ما هو أكبر منه شرحاً وأكمل وصفاً، وأن أحمد بن يوسف كان يمر في شرح قصة ثم يرجع إلى ما هو قبلها وأنه كان يخلط أخباره» إلى أن يقول : «وقلت ما هكذا أرتخ الناس الأخبار، ولا عليه نظم الآثار. وقد امتثلت أمرك فيما أردت الخ»^(٥).

(٢) الكندي في هامش ص ٦٣ من السيرة.

(٤) السيرة ص ٣٦٥.

(١) السيرة هامش ص ٦٣.

(٣) السيرة ٣٦٥ — ٣٦٦.

(٥) السيرة ص ٣١ — ٣٢.

ونم مسألة أخرى ، وهي مدى العلاقة بين كتاب البلوى الذى نحن بصددده وملخص سيرة أحمد بن طولون لابن الداية كما هو وارد فى كتاب المغرب لابن سعيد وكما نشره المستشرق فولرز سنة ١٨٩٤ ، أن التشابه بين الكتابين قوى جداً غير أن كتاب ابن الداية موجز ، وكتاب البلوى مفصل ويحوى بعض زيادات لم ترد فى كتاب ابن الداية .

يعمل الأستاذ كرد على بك هذا التشابه العجيب بأن البلوى سطا على مطول ابن الداية (المفقود) ونقل فصوله بغير حساب . ويقول إن الطبيعة جازته على ذلك بأن قيضت له مؤلفاً آخر هو تقي الدين المقرئى قسطا على كتابه . ولعمري قد لا يكون عجيبا كل العجب أن يسطو مؤلف من القرن التاسع على مؤلف من أهل القرن الرابع ، إنما العجيب حقا أن يسطو البلوى وهو من أهل القرن الرابع على ابن الداية وهو معاصر له ، ولعل الرجلين تلاقيا وعرف كلاهما الآخر .

أما نحن فنرى لذلك التشابه العجيب سببا غير الذى يراه الأستاذ كرد على بك ، وذلك أن كلا المؤرخين فيما نعتقد استمد كتابه من نفس المصدر الذى استمد منه الآخر . ذلك المصدر هو ديوان الإنشاء المصرى .

لقد جعل أحمد بن طولون للرسائل ديوانا تحتم فيه الكتب بعد أن يحررها الكتاب ويعرضوها عليه^(١) وأعلن الظن أن ديوان الإنشاء كانت تحفظ فيه سوى الرسائل الرسمية محاضر مجالس ابن طولون بعد عرضها عليه كذلك .

يدل على ذلك قوله لكتاب استكتبه : « إني جمعتك صاحب خير على ألفاظي فانظر كل ما يجرى بيني وبين من يخاطبني من كان من الناس من صغير وكبير ، فاكتب خطابه وجوابي ، وخطابي إياه وجوابه لي ، واعرضه على بالعشي »^(٢) .

وربما كانت تحفظ فى ديوان الإنشاء رقاع التقارير التى كان يرفعها إلى الأمير كتابه وغلمانه وأصحاب أخباره . من ذلك ما حدث به نسيم الخادم قال : « كان أصحاب الأخبار يرفعون إلى مولاي رقاعا فى أقوام تكون سببا لاصطفائهم وقتلهم »^(٣) . ومن ذلك ما حدث

(١) السيرة ص ١١٢ .

(٢) السيرة ص ١٠٠ — ٢٠١ ، ص ١١١ — ١١٢ .

(٣) د ص ٢٢٤ .

به أحمد بن محمد الكاتب من أن أحمد بن طولون نذبه مرة لحضور مجلس جماعة من المنحرفين عن الأمير وتدوين كل ما يجرى منهم ، ففعل ما أمره ، ورفع إليه تقريراً بكل ما حدث^(١) .

والدليل على أن سجلات ديوان الإنشاء المصرى هى المنهل الأول الذى نهل منه ابن الداية فى كتابيه « سيرة أحمد بن طولون » و « المكافأة » ، ونهل منه البلوى فى « سيرة أحمد بن طولون » أن الكتب المذكورة تحتوى على نصوص مراسلات رسمية تجرت بين ابن طولون والموفق ، وبينه وبين ابنه العباس الناصر عليه ، وأن تلك الكتب تتشابه فى الأخبار المشتركة بينها تشابهاً عجيباً فى اللفظ والمعنى والأسلوب ، وأنها تتردد فيها نعمة واحدة هى نعمة الإشادة بمحامد ابن طولون ومفاخره ، والتماس المعاذير لأفعاله التى كانت تصدر عن حدة مزاج تبلغ أحياناً مبلغ القسوة والوحشية .

* * *

نكتفى بهاتين المسألتين اللتين أثارتهما قراءتنا مقدمة الكتاب . ثم نبه بعد ذلك على هنات وقعت فى متن الكتاب وحواشيه ، ولم نجد لها تصحيحاً فى جدول التصحيحات الواردة فى آخر الكتاب . من ذلك « الطغرغرى » فى ص ٣٣ براء مهملة مكررة . صوابها « الطغرغرى » بزاى معجمة مكررة^(٢) . وفى ص ٨٩ « محمد بن على بن غم الأرمى » صوابه « ... بن يحيى الأرمى »^(٣) . وقول المتن فى ص ٩٨ « وبلغ لهم كل ما أحبوه » بتعدية الفعل باللام . وقد تكررت هذه التعدية فى ص ١١٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، والفصيح تعديته بالباء كما ورد فى ص ٢٧٦ وجاء فى المتن فى ص ١٤٧ « منديل العمل » وعلق الشارح على ذلك فى هامش الصفحة بقوله « الأقرب منديل القمر ، والقمر ريح اللحم » وعبارة المتن هى الصحيحة ومعناها المنديل الذى كانت تصر فيه الأوراق الخاصة بالأموال وحساباتها . وقد ورد لفظ « العمل » بمعنى « كشف الحساب » فى مواضع عدة من الكتاب . من ذلك قوله فى ص ١٦٣ « قال : فأحضرنا بها عملاً مفصلاً ... فقال ما عندى لها عمل بتفصيل ...

(١) السيرة ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٢) انظر كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ١٤ .

(٣) سيرة ابن الداية ص ٢٤ والطبرى طبع أوروبا المجموعة الثالثة ص ١٤٩٤ .

وأخرج من خفيه عملاً وناولهُ الأمير وقال له ... هذه نسخة ما حمل إلى بيت المال عن هذه الضياع » ولفظ « القصيصيين » و « القصيص » الواردة في متن ص ٢٠٦ وهامشها بالقاف المثناة صوابه بالقاء الموحدة ، وبنو القصيص التنوخيون ورد ذكرهم في شعر المتنبي وأخبار سيبويه المصري وشعر أبي العلاء المعري^(١) .

وجاء في المتن في ص ١٧٥ « فلما توسطنا الطريق قام إلى أصحاب الأرباع فأريتهم كتاباً لؤلؤ وعرفتهم أنى ذاهب إلى الأمير » وفسر لفظ « الأرباع » في الهامش « بالمازل » وهو تفسير لا يناسب السياق . والأرباع هنا أرباع جند الشرطة أو الجيش أى أقسامهم . وقد كان جند الكوفة زمن بنى أمية مقسمين أرباعاً وجند البصرة أخماساً^(٢) وأصحاب الأرباع والأخماس رؤساؤها .

وسيرة أحمد بن طولون للبلوى نص تاريخى هام كما قدمنا ، استمد من مصادر قديمة استمداداً مباشراً . فهو من ناحية يتتبع سيرة مؤسس الدولة الطولونية من بدايتها إلى نهايتها . فيرىنا ابتداء أمره وتنقله في معارج الرقى إلى أن بلغ غاية قوته ، ثم اضمحلال أمره وأقول نجمه . وهو فى خلال ذلك يشير إلى مواطن القوة والضعف من تلك الشخصية الجبارة . فبينما يصور لنا مضاء غزيمته وقوة إرادته واستبداده واقتداره العجيب على العمل المتصل وتعهـد كل صغير وكبير من شئون دولته ، إذا به يلمح إلى أن إفراطه فى ذلك كله كان السبب الأول فى فساد أمره وتصعد سلطانه ، ولا يعدم من حين لآخر أن يصور لنا ناحيته الإنسانية . فيذكر لنا أنه كان جميل الصوت محباً لسماع الغناء ، جم الإحسان والتصدق ، وأنه يرتاح للجواب المقنع والنكتة اللطيفة ، وأنه فى الجملة أحياناً كان ينسلخ من جلد المارد الجبار ويلبس إهاب الإنسان الوداع اللطيف .

والكتاب من ناحية أخرى يلقي ضوءاً على حياة مصر العامة فى أخريات القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع . فيستطيع من يقرؤه أن يتبين الشئ الكثير عن نظمها الإدارية

(١) انظر الرائية التى رثى بها المتنبي محمد بن إسحق التنوخى وأخبار سيبويه ص ٤٧ وسقط الزند ص ٣٣ — ٣٤ من طبعة بولاق .

(٢) الطبوى طبع أوروبا : القسم الثانى ص ١٣١ ، ص ٢٤٠ .

من خراج ومعاون وقضاء وبريد وجاسوسية . كما يتبين أحوال الجماهير وأرباب الحرف والصناعات . وأبلغ من ذلك كله أن الكتاب يصور روح الشعب المصرى المرح الذى لم يعجبه أن يتزعمه متجبر يأخذ بمخنقه مهما يكن عادلا وخيرا . يصور الكتاب ذلك الروح من طريق كلامه على الثورة التى بعثها نفر من كبار المصريين بزعامة العباس بن أحمد بن طولون والتى أيدتها الخلافة العباسية من وراء وراء .

والكتاب من ناحية ثالثة يلقى ضوءا على الدبلوماسية الإسلامية فى الحقبة المذكورة، فهو يبين حال الخلافة العباسية لذلك العهد وانقسام الدولة الإسلامية إلى شرقية وغربية وأثر ذلك ، كما يوضح علاقة أقطار الشرق الأدنى وعملها الأقوياء بالسلطة المركزية فى العراق .

والكتاب يعد تحفة أدبية رائعة يجد فيه مؤرخو النثر الفنى ومن يدرسون الألفاظ والأساليب العربية مادة غزيرة جدية بالبحث والدرس ؟

من مواقف البطولة الإسلامية

في القتال*

إن من يطلع على تاريخ الحروب التي وقعت بين الفرس والروم في أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل السابع، يرى إلى أي حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء الشخصية، شهوات الأكامرة تارة والقياصرة أخرى، وإلى أي حد كان يحدوها حب المغنم والسلب والنهب، وإلى أي حد كان يذكى أوارها حب التشفى والانتقام، وإلى أي حد كان يصاحبها التخريب والتدمير، ونقض العهود والمواثيق. فالشهوة، والغنيمة، والانتقام، والتخريب، والفدر، كن أهداف تلك الحروب التي كادت تترك ربوع المشرق والمغرب خرابا يباباً.

والعجب العاجب أن هذه التقاليد المشثومة استمرت في الغرب الذي يدين بالمسيحية السمحة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث، ولعله لم يخل منها حتى يومنا هذا. ولتمثل لذلك بالحروب الصليبية التي ارتكب فيها الصليبيون في مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفاعيل تقشعر طولها الأبدان، وبما صنعه الملكان الكاثوليكيان الأسبانيان فردنند وإيزابلا، بمسلمي غرناطة غداة استيلائهم على عاصمتهم صالبا، من نقض للعهود المؤكدة، والمواثيق المغلظة. وبالحروب المعروفة في التاريخ الأوربي الحديث في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب الدينية، وأخيراً بما ارتكب في الحرب العالمية الأخيرة من تخريب وتدمير كان ختامه إلقاء القنابل الذرية على المدن اليابانية، مما أودى بالآلاف المؤلفة من اليابانيين، غدرًا وبغيًا وعدوانًا.

ولنضرب صفحاً عن وصف الحرب في العصور الوسطى عند القبائل الجرمانية التي قضت على الدولة الرومانية، وغمرت أوربا في ظلام دامس طول ألف سنة تقريباً، وعند القتر الذين قضوا على الدولة العباسية ودكوا صرح الحضارة الإسلامية في المشرق، فقد يعتذر

عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم هجم ليست لهم حضارة الفرس ولا نصرانية الروم ولا مدنية أوربا وأمريكا في القرن العشرين .

ولكن كم لحوادث التاريخ وتصاريقها من أسرار حرص العلماء ولا يزالون يحرمون على اكتناها والوقوف عليها ! وكم لله من لطف خفي حارت في كنهه الأفهام ! ففي وسط هذه الغياهب المدممة والظلمات الخالكة ، تنبغ شمس الدعوة الإسلامية ، فإذا الحرب المشروعة هي المنزهة عن شهوة السلطان ، وحب المغنم ، والسمعة ، والمبرأة من عوامل الغدر والخيانة والعدوان ، وإذا بها نظام من نظم العمران ، به يكف الظلم ويقمع الطغيان ، ويستأصل الفساد . وقد عبر شوقي عن كل ذلك في قوله مخاطباً الرسول العربي :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقصات دواء ،
وإذا بهذه الحرب المشروعة تسمى جهاداً في سبيل الله ، أى كفاحاً لإعلاء كلمته بكل ما تشتمل عليه هذه العبارة من معانى العدالة والإصلاح في الأرض وتحقيق المثل العليا .
وإذا الجهاد أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله بعد الإيمان به تعالى وبعد برّ الوالدين ، وإذا المجاهد له إحدى الحسينين إما الظفر وإما الشهادة . « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

كانت هذه المبادئ أساساً جوهرياً من أسس الدعوة الإسلامية ، اعتنقها المسلمون الأولون وعملوا بها في حروبهم ، فلا غرو أن حفلت هذه الحروب بذكر الأبطال ومواقف البطولة الصحيحة في القتال . ونحن نورد فيما يلي ، على سبيل المثال لا الحصر ، بعضاً من صور هذه البطولة ، سواء أكانت بطولة آحاد أم بطولة جيوش وجماعات .

١ - أبطال :

يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر فحرض الناس على القتال ، وقال : « والذى نفسى بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . فقال عمير بن حمام من بنى مسleme ، وفي يده ثمرات يأكلهن : « بخ ! بخ ! ما بقى بينى وبين الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء القوم ! » ، ثم قذف بالثمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

ويروى أنه عليه السلام يوم أخذ سيفاً فهزه وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه عمر بن الخطاب فقال : أنا أخذه بحقه ، فأعرض عنه . ثم هزه الثانية وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه الزبير بن العوام وقال : أنا أخذه بحقه ، فأعرض عنه ؛ فوجدا في أنفسهما . ثم عرضنه الثالثة وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه أبو دجانة ، فقال وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب في العدو حتى ينثني ! فأخذه منه ، وأعلم نفسه بمصابة حمراء ومشى إلى الحرب ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال الرسول « إنها لمشية يبعضها الله إلا في هذا الموطن » ! ودخل أبو دجانة في الحرب مبتدئاً بالقتال ، فأبلى وأنكى .

ومما استدل به الفقهاء على جواز المبارزة مع التهديد بالنفس ما حدث في حرب الخندق إذ برز عمرو بن عبدود فارس قریش وغلها الخنذيذ ، فدعا إلى البراز أول يوم ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز في اليوم الثاني ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز في اليوم الثالث ، وجعل يعبر المسلمين إحجامهم عن مبارزته . فقام علي بن أبي طالب فاستأذن رسول الله في المبارزة ، فأذن له على ضمه به ، وقال « اخرج يا علي في حفظ الله وعباده ! » . فخرج فتجاوزا ونارت عجاجة أخفتها عن الأبصار ، ثم انجلت عنهما وعلى يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتيل .

٢ — العفو عند المقدرة :

لما نقضت قریش هدنة الحديبية التي كانت بينها وبين الرسول ، عزم الرسول على غزوها وفتح مكة ، وذلك في رمضان سنة ٨ هـ فخرج من المدينة في عشرة آلاف وبعث قریشاً على غير استعداد ، فلم يسع ساداتها وكبرائها إلا أن يبادروا إلى أخذ الأمان لأنفسهم ولبلدهم ، وقد أعطاهم الرسول هذا الأمان بعد أن أسلموا ونهى الجيش عن أن يقاتل إلا من قاتله ، وقال في تأمين أهل مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » ودخل الرسول وجيشه مكة من أقطارها فلم يقع قتال يذكر ، واجتمعت قریش إليه عند الكعبة معلنة إسلامها ومبايعتها ، فخطبهم عليه السلام فقال « يا معشر قریش ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟

فقالوا: « خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ! » فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! » هكذا عامل الرسول هذه القبيلة التي كذبتة ، وأذته ، وأخرجته وأصحابه ، وناوأته أكثر من عشرين سنة ! فضرب بذلك أروع مثل للحلم والعفو عند المقدرة .

٣ — طلب الشهادة فلم يعطها

كان زيد أخو عمر بن الخطاب من قتل في وقعة اليمامة ، إحدى وقائع حرب الردة ، وذلك سنة ١١ فلما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله ، وكان معهم : « ألا هلكت قبل زيد ؟ هلك زيد وأنت حي ! ألا داريت وجهك عني ؟ فقال عبد الله : « سأل زيد الله الشهادة فأعطيا ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها ! » .

٤ — لا نامت أعين الجبناء :

لا شك أن خالد بن الوليد أعظم قائد في الإسلام ومن أعظم قواد العالم على الإطلاق . ولقد سماه الرسول سيفاً من سيوف الله ، وكفى بذلك شرفاً له وتنوياً بقدره . ظهرت عبقريته في وقائع مؤتة والردة وفتوح العراق والشام . ولكن بطولاته تظهر فوق ذلك في تواضعه ، فعند ما عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن التقدم على جيوش الشام لمصلحة ارتآها ، نزل على أمر الخليفة ، وعمل راضياً تحت إمرة أبي عبيدة . وهي تتجلى بوجه أخص في العبرة التي استخلصها من تجاربه وعبر عنها في ألفاظ قلائل قالها عند ما حضرته الوفاة ، قال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية . وهأنذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء » .

٥ — قائد محبوب :

كان المنفى بن حارثة الشيباني يقاتلي المعجم بالعراق على شاطئ الفرات ، فاشتبك مع الفرس في وقعة كبيرة تعرف بوقعة البويب وذلك سنة ١٣ هـ . وكان قد انضم إليه قبيل الوقعة جمع من نصارى تغلب حمية لصلوة العروبة . وإلى القارئ ما تصف به الرواية هذا القائد وجيشه في ذلك اليوم : « وأقبل الفرس يقودهم قائدهم مهران في ثلاثة صفوف ومع كل صف

فيل ولهم زجل ، فقال المثنى للمسلمين : « إن الذي تسمعون فشل ، فالزموا الصمت ! » وطوّف المثنى في صفوفه يعهد إليهم ، وهو على فرسه الشموس وكان لا يركبه إلا لقتال ، فوقف على الرايات يحرضهم ويهزهم بأحسن ما فيهم ، ولكلهم يقول : « إني لأرجو ألا يؤتى العرب من قبلكم اليوم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم » فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم من نفسه في القول والفعل ، وخلط الناس في المحبوب والمكروه ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً ولا فعلاً . وقال : « إني مكبر ثلاثاً فتهيأوا ، ثم احموا في الرابعة ! » فلما كبر أول تكبيرة أعجبتهم فارس وخالطوهم ، وركدت خيلهم وحرّ بهم ملياً ورأى المثنى خلافاً في صفوف بني مجل ، فجعل يمد لحيته لما يرى منهم ، وأرسل إليهم يقول : « الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم ! فقالوا : نعم ! واعتدلوا . فضحك فرحاً » .

فلما طال القتال واشتد ، قال المثنى لأنس بن هلال النخعي : « إنك امرؤ عربي ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا حملت على مهران فاحمل معي ! فأجابه ، فحمل المثنى على قلب الجيش الفارسي فأزاله ثم أباده ، وقتل مهران ، قتله غلام من تغلب نصراني . فلما رأت ذلك مجنبات المسلمين حملوا على مجنبات الفرس ، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يدمرهم ويقول لهم : « عاداكم في أمثالهم ! انصروا الله ينصركم ! » حتى هزموا الفرس .

ومات أناس من الجرحى ، منهم مسعود أخو المثنى فصلى عليهم المثنى ، وقال : « والله إنه ليهون وجدى عليهم أن شهدوا البويب وأقدموا وصبروا لم يجزعوا ولم ينكسوا » .

٦ — العفو عند المقدرة أيضاً :

من أفضح حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين في البيت المقدس غداة استيلائهم عليه في سنة ٤٩٢ هـ . أجمعت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصليبية على السواء . فلنورد للقارئ مجمل ما حدث عند ما استرد صلاح الدين الأيوبي تلك المدينة من الصليبيين في سنة ٥٨٣ هـ .

فبعد أن دحر صلاح الدين جيش الصليبيين في وقعة حطين سار إلى عسقلان فافتتحها وأخذ يتأهب للزحف منها إلى بيت المقدس . وكان حريصاً على أن يجنب تلك المدينة ويلات الحرب والحصار ، فاستدعى وفداً من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التي يقدمها الصليبيون والمسلمون ولكنهم صرحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً . عند ذلك أقسم لهم أنه لن يأخذها إلا بالسيف .

وتقدم صلاح الدين إلى المدينة وأخذ في مهاجمتها ، ونقب أسوارها ، وأوشكت جنوده أن تفتحها . فلما رأى الصليبيون ذلك أنفذوا الأمير بليان لمفاوضة صلاح الدين — فطلب هذا الأمير أن يمنح السلطان بيت المقدس عفوه الذي منحه مدناً صليبية أخرى . فلم يجبه السلطان إلى ما طلب مُستَمسكاً بيمينه التي أقسمها . عند ذلك قال له بليان : إن في المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليه بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويدسروا كل ما يسعهم تدميره ، ثم يقاتلون حتى يقتلوا عن آخرهم . ولقد راع هذا التهديد صلاح الدين ، فاستشار من معه من الفقهاء فأفتوه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كاف في إبرار قسمه ، وأن في وسعه أن يعتبر كل من في المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، له أن يضرب عليهم الفداء . وقد أخذ صلاح الدين بهذا الرأي وتم الاتفاق على أن يكون الفداء عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل ديناراً واحداً ، وأن تكون المدة التي يؤدي فيها الفداء ويتم الجلاء أربعين يوماً . فمن وجد في المدينة بعدها كان ملكاً مسترقاً للسلطان .

وفتحت المدينة أبوابها للسلطان وجيشه وذلك في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكانت الليلة ليلة المعراج الشهيرة ، وهي مصادفة عجيبة ، وأقام صلاح الدين على الأبواب أمناء يتقاضون مال الفداء .

فخرج الأمير بليان ومعه سبعة آلاف فقير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار ، ثم تتابع خروج الصليبيين على الرسم المقرر ، ثم يأتي البطرك الكبير يجر من أموال الكنائس وتحفها وجواهرها ما لا يقدر بمال ، فلم يعرض صلاح الدين لشيء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه ، وأبى أن ينقض عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير العشرة المقررة . وانقضت

الأربعون يوماً ولا يزال في المدينة ألوف كثيرة من فقراء الصليبيين لا يملكون فداء . يقول المؤرخ الصليبي « أرنول » — ولعله كان حاضراً ذلك اليوم المشهود — : « فتقدم العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين وقال : سيدى ! لقد أعنتك بحمد الله على فتح هذه البلاد وهذه المدينة وإني أستوهبك ألفاً من أولئك الأرقاء . فأجابه السلطان إلى طلبه وعند ذلك أعقبهم العادل من فوره . ثم جاء بليان والبطرك وطلباً مثل الذى طلب العادل فوجههم صلاح الدين ألف رقيق أطلقوا في الحال . وأخيراً يلتفت صلاح الدين إلى أصحابه ويقول : « لقد أدى أخى صدقته ، وكذلك صنع بليان والبطرك ، وقد بقي أن أؤدى أنا صدقتى » . ثم إنه أمر رجلاً من حرسه أن ينطلقوا فينادوا في جميع شوارع المدينة أن كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حر لوجه الله تعالى . يقول أرنول : « وقد استغرق خروج هؤلاء نهراً كاملاً من لدن شروق الشمس إلى أن خيم الظلام » .

ثم يمضى المؤرخ المسيحي المذكور فيقول متحدثاً عن أدب صلاح الدين ونبله ورقة قلبه : « إن نساء من نساء فرسان الصليبيين كن قد لجأن إلى بيت المقدس بعد أن قتل أو أسر أزواجهن وعائلوهن في الحرب ؛ فاجتمعن بعد أن أدين الفداء وحضرن عند صلاح الدين باقيات معولات يشكون إليه سوء حالهن ، فما كان منه إلا أن أطلق لكل من لها زوج في حبسه زوجها ، وأمر بمال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها ، مما ألهم ألسنتهن بالشكر له والثناء عليه .

ويقول المؤرخ الإنجليزي لين بول : « لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس ، لكان ذلك كافياً في عده أعظم الفاتحين في عصره فروسية وأكبرهم قلباً ، بل لعله كذلك في أى عصر من العصور » .

٧ — وا إسلاماه !

اجتاح التتار أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً ، ثم دخل زعيمهم هولاكو بغداد في سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة العباسية ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر . ولقد أرسل هولاكو إلى سلطان مصر إذ ذاك ، وهو الملك المنصور قطز ، كتاباً ملأه تهديداً ووعيداً وطلب إليه فيه المبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه . فثارت حمية

السلطان واستنفر الناس لجهاد القطار فتشاقلوا لما ثبت في الأذهان إذ ذاك أن القتر لا يغلبون ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد على أى حال وليصحبه من يشاء . عند ذلك نفر معه الأسراء بأجنادهم ، فسار بالجيش إلى فلسطين مقدما أمامه الأمير بيبرس ، وجرت بينه وبين القطار وقعة عظيمة عند عين جالوت ، وذلك في رمضان سنة ٦٥٨ هـ .

يقول المقرئ في وصف بلاء قطز وبيبرس والجيش المصرى في ذلك اليوم العصيب : « فلما كان يوم الجمعة خامس عشر من رمضان التقى الجمعان ؛ وفي قلوب المصريين وهم عظيم من القتر ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادى وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأسراء ، فتحيز القتر إلى الجبل ، فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتفض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : « وا إسلاماه ! » ، وحمل بنفسه وبعن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره . وقتل كتيبة مقدم القتر ، وانهمز باقيهم . وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدي السلطان » ، « ومر العسكر في أثر القتر إلى قرب بيسان ، فرجع القتر وصافوا مصافا ثانيا أعظم من الأول ، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم ، وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديدا ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : « وا إسلاماه » ثلاث مرات « يا الله ! انصر عبدك قطز على القطار » فلما انكسر القطار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه وصرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكريا لله تعالى ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم . تلك وقعة عين جالوت التي صد فيها الجيش المصرى سيل الغزو التترى الجارف ، واستنقذ بها الشام من أيدي القطار ، ورد عن مصر والمغرب الإسلامى كيدهم وجبروتهم ، وفوق ذلك فإنه في ذلك اليوم وعلى غير علم منه وفى أوربا وحضارتها الناشئة دمارا محققا ، وذلك باعتراف مؤرخى أوربا أنفسهم .

وبعد ، فلعل القارئ يكون قد رأى من جميع النصوص المتقدمة أن الإسلام قد خفف من ويلات الحرب جهد الطاقة وأنه شرع لها منهاجا قاصداً وسن آداباً كريمة .

كتب الحسبة

وفائدها في وضع المعجمين الوسيط والكبير (*)

معنى الحسبة والاحتساب في اللغة العد والحساب . ويجيئ الاحتساب بمعنى الإنكار لشيء ، ومنه قول الكمي :

بأى كتاب أم بأية سنة ترى جهم عارا على وتحسب

أما في الشرع فقد عرف الإمام الماوردي الحسبة في كتاب « الأحكام السلطانية بقوله (هي أمر بالمصروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله) » واستدل على وجوبها بقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ويورد حجة الإسلام الغزالي في كتاب « الإحياء لعلوم الدين » أدلة أخرى على وجوبها مستمدة من القرآن الكريم والآثار والأخبار . وعلى هذا الأساس اعتبر الفقهاء الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر الجماعة الإسلامية يقول بنفسه أو يندب له من يراه أهلا له ، وهو المسمى عندهم بالاحتسب . ويوجز ابن خلدون في مقدمته عمل المحتسب فيقول : « ويتخذ الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزز ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الخمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان والمعلمين » . ويفرق ابن خلدون بين اختصاص المحتسب واختصاص القاضي فيقول : « ولا يتوقف حكمه (أي المحتسب) على تنازع أو استعداد ، بل له النظر في الحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه ، وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقا ، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها وفي المكاييل والموازين . وله أيضا حمل الماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس

فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم » ثم بمضى فيقول « وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها . فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء » ويلمح ابن خلدون التطور الذى طرأ على نظام الحسبة مما اقتضى فصلها عن القضاء فيقول « وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب ، والأمويين بالأندلس ، داخلية في عموم ولاية القاضي ، يولى فيها باختياره ، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره عاماً في أمور السياسة ، اندرجت (أى الحسبة) في وظائف الملك وأفردت بالولاية .

وهذه الإشارة الأخيرة من ابن خلدون طريقة وهامة وتحتاج إلى شيء من البيان والتوضيح . فنجد ظهر منصب « أمير الأسراء » في بغداد في سنة ٢٩٦ على يد مؤسس الخادم أصبح صاحب هذا اللقب أو ما يماثله من الألقاب عام النظر في السياسة وشئون الحكم الفعلى ، وبقي للخلفاء الاسم والسلطة الروحية فحسب إذا صح هذا التعبير . وقد صادف هذا الانقسام قيام حال خطيرة في الأمصار الإسلامية الكبرى من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، مثل غزنة ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وفاس ، ومراكش ، ومدن الأندلس إذ غدت هذه المدن العظام مراكز صناعية وتجارية كبيرة ، حافلة بالأسواق ، زاخرة بطوائف التجار ، وأهل الحرف والصناعات ، كما غدت بيئات اجتماعية مختلطة تتزاحم فيها الأهواء ، والبدع ، والنحل ، والميول السياسية المتعارضة ، والمذاهب الدينية المختلفة .

كانت هذه الحال وحدها تقتضى من ولاية الأمور في الدولة أو الدول الإسلامية سهرًا ويقظة حتى لا يضطرب حبل الأمن وتعم الفوضى . فكيف وقد كان معظم أهل الحرف والصناعات ذوى ميول سياسية ، ونزعات مذهبية ، وكان كثير من أهل المذاهب الدينية متعصبين لمذهبهم مستعدين في سبيل نصرته لحمل السلاح وإراقة الدماء ؟ لقد كانت بغداد ميداناً لفتن دامية متصلة تارة بين الحنابلة وخصومهم وأخرى بين الشيعة وأهل السنة . كما كانت الشام مجالاً لنشاط الباطنية المعطلة لأحكام الدين الإسلامى . وكانت القاهرة عرضة لمثل تلك الفتن بعد أن قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية ، فقد كان هوى كثير من أهل الحرف والصناعة مع الدولة الفاطمية الذاهبة . ومثل ذلك يقال عن مدن المغرب والأندلس ، حيث كان كثير من ذوى الحرف والصناعات من أهل الذمة ، وكانوا

فى كثير من الأحيان ضالعين مع الممالك النصرانية التى كانت تناصب المسلمين العداء فى شمال إفريقيا والأندلس .

لكى يواجه ذوو السلطان هذه الحال على قول ابن خلدون فصلوا الحسبة عن القضاء ، وصيروها وظيفة ملكية ، وبسطوا يد المحتسب على كل آت يتمكر فى المعاملات والصناعات والتجارات ، وكل نزاع لى الفتنة والفساد فى الأرض وإقلال راحة الناس ، وبانفصال الحسبة عن القضاء وصيرورتها أداة رقابة وضبط وتنفيذ سريع اتضحت شخصية المحتسب . ويحدثنا المقرئى عن المحتسب فى القاهرة فيقول « ولا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر (الفسطاط) وجميع أعمال الدولة كدواب الحكم وله حق الجلوس بجامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم ويطوف نوابه على أبواب الحرف والمعيش ... وينظرون المكايل والموازين ، وللمحتسب النظر فى دار العيار ، ويخلع عليه ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها ، والولاية تشد معه إذا احتاج إلى ذلك . وجاريه ثلاثون ديناراً فى كل شهر » .

ويحدثنا صاحب « نفع الطيب » عن المحتسب بالأندلس فيقول « أما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة فى أهل العلم والفطن ، وكأن صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الأعوار لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان ، للربع من الدرهم رقيق على وزن معلوم وكذلك للثمن ، وفى ذلك مصلحة فقد يرسل المبتاع الصبى الصغير أو الجارية الرغناء فيستويان فيما يأتياه به من السوق مع الحاذق فى معرفة الأوزان . وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يحسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حذر له المحتسب فى الورقة ولا يكاد تخفى خيائته ، فإن المحتسب يدس عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه ثم يختبر المحتسب الوزن فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقى وإن كثرت ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس نفى من البلد » .

* * *

وقد ساءرت حركة التأليف والكتابة فى الحسبة هذا التطور مسيرة تامة . فعند ما كانت

الحسبة تابعة للقضاء كان المؤلفون من الفقهاء يكتبون عنها على أنها باب من أبواب الفقه فيذكرون شروطها وأحكامها وآدابها ضمن تأليفهم الفقهية . وأجمع ما وصل إلينا من ذلك الفصل الذى عقده لأحكام الحسبة الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ثم الفصل المطول الذى كتبه فى كتاب الإحياء الإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .

وكلام الماوردى فى الحسبة كلام فقيه متمكن عليم بمختلف المذاهب الإسلامية لهذه يريد أن يرسم صورة للحسبة كما ينبغي أن تكون من حيث المطابقة لأحكام الشرع مع الوضوح والدقة والإيجاز . أما كلام الإمام الغزالى فكلام عالم متصوف يريد أن يرسم صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه العالم الإسلامى على الإطلاق . وكلامه على الحسبة يجرى هذا الجرى ، فهو غواص على حكمة التشريع ، كثير الاستشهاد بالقرآن والسنن والأخبار وما يقضيه الذوق السليم ويغمر كل ما يكتب فيفيض من روحه القوى وإيمانه العميق .

فلما اندرجت الحسبة فى الوظائف السلطانية كما يقول ابن خلدون ، وحدث ما ألمعنا إليه من تعقد الأمور فى الأمصار الإسلامية الكبرى ، اتجه المؤلف فى الحسبة اتجاها عمليا يرمى إلى ضبط الحال بتعريف من يتولى الحسبة أسرار الحرف والصناعات وما قد يأتية أربابها من أمور الغش والخديعة والتدليس وأكل أموال الناس بالباطل .

وقد وصل إلينا من التأليف الموضوعة فى الحسبة والتي نحا أصحابها فيها هذا المنحى الواقعى كتب تزيده على العشرة عدا ، أكثرها من مشرق العالم الإسلامى ومن مصر والشام خاصة وأقلها من المغرب والأندلس . وأهم المجموعة الشرقية كتب أربعة :

١ — « كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » لعبد الرحمن بن نصر النبراوى الشيزرى المتوفى سنة ٥٨٩ . والراجح أنه وضع هذا الكتاب بطلب من صلاح الدين الأيوبي للاستئانة به فى الاحتساب على أرباب المهن والصناعات وأهل الذمة الذين كان هوامم مع الفاطميين كما تقدم القول . والكتاب يقع فى أربعين بابا وقد نشر فى مصر حديثا نشرنا حسنا . وهذا الكتاب يعتبر فى الحقيقة أصلا للمجموعة الشرقية بنى عليه كل من كتب بعد فى الحسبة فى الناحية العملية .

٢ — فحمد بن محمد بن أحمد القرشى المصرى المعروف بابن الأخوة والمتوفى سنة ٧٢٩

قد وضع كتابه « معالم القربة في أحكام الحسية » وهو يضمن كتابه هذا أبواب كتاب الشيزى مع زيادة ثلاثين باباً وإضافات فقهية وملحوظات شخصية للمؤلف لها طرافتها التاريخية كما سيأتى .

٣ — ثم يأتى محمد بن أحمد بن بسام المصرى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى فيضع كتاباً في الحسبة يسميه كذلك « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » وبضمنه أبواب الكتابين السابقين ويزيد عليها ثمانية وأربعين باباً وبذلك تتم عدة أبواب كتابه ثمانية عشر باباً ومائة باب استوفى فيها الحسبة على ما يقرب من جميع الحرف والصناعات الموجودة لهده ومختلف الطوائف والهيئات التى تقضى مصلحة الدولة مراقبتها عن طريق الاحتساب عليها .

٤ — والكتاب الرابع من المجموعة الشرقية هو كتاب « المختار في كشف الأسرار » لكتاب من كتاب الدولة الأرتقية اسمه عبد الرحمن بن أبى بكر الدمشقى ويعرف بالجوبرى وقد وضعه كما يقول فى المقدمة بطلب من السلطان مسعود بناء على ثلاثين فصلاً كلها فى التعريف بطرق الغش والتدليس فى الصناعات المختلفة وما يقع من طوائف معينة من الناس من الشعوذة والاحتيال .

أما المجموعة المغربية فتشتمل على كتابين اثنين :

١ — كتاب آداب الحسبة لابن عبدالله محمد بن أبى محمد السقطى المالقى الأندلسى المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى وكتابه يشتمل على ثمانية أبواب فى الحسبة ضمنها أموراً عاينها بنفسه أثناء ولايته الحسبة بمدينة مألقة .

٢ — والكتاب الثانى عبارة عن رسالة وجيزة لمحمد بن أحمد بن عبدون التجبى الإشبيل المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى ؛ ضمنها ما يراه من وجوه الإصلاح لأحوال مدينة إشبيلية وذلك عن طريق الحسبة على موظفى الحكومة وأرباب الحرف والصناعات . وهو فى رسالته هذه يندد بغش الصانع وأهل الحرف وفساد ذم بعض الطوائف وانحلال أخلاقها .

للكتب المذكورة مزية عظيمة في دراسة المجتمع الإسلامي كما نصوره حياة المدن الإسلامية الكبرى في العصور الإسلامية المتأخرة، أى من قبيل سقوط بغداد إلى انبعاث النهضة الحديثة في آخريات القرن الثامن عشر. فهي من الناحية الاجتماعية تصور ما انتاب العالم الإسلامي من أدواء وعلل وفقر مدقع، مما أدى إلى التفتن في النفس والتكسب بالمهن الخسيسة والشعوذة والاحتيال حتى صار ذلك صناعة ذات أصول وقواعد وحتى أصبح مبدأ لكثير من الناس قولهم « الحيلة عليهم ولا الحاجة إليهم ». ثم إن هذه الكتب تشمل على نقد المجتمع لذاع مثل قول ابن الأخوة في تعليل ترك الناس دراسة الطب وإقبالهم على دراسة الفقه فيقول « والطب من فروض الكفاية ولا قائم به (اليوم) من المسممين وكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة . ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام (الطب) ولا نرى أحداً يشتغل به . ويتهافتون على علم الفقه ولا سيما الخلافات والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء ممن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع . فليت شعري كيف يرخص الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، وإهمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر التوصل به إلى تولى القضاء والحكومة ، والتقدم به على الأقران ، والتسلط على الأعداء ؟ هيئات قد اندرس علم الدين : فالله المستعان ، وإليه الملاذ ، بأن يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان » .

ويقول ابن الأخوة أيضاً في ذم طائفة الموكلين بالخصومة أو المحامين من أهل زمانه « وأما الوكلاء . . . فلا خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم في هذا الزمان فإن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين شيئاً ثم يتمسكون فيه بسبب الشرع فيوقعون القضية فيضيع الحق ويخرج من بين يدي طالبيه وصاحبه . فإذا حضر الخصمان فإن الحق يظهر سريعاً من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل . فكان ترك الوكلاء في هذا الزمان أولى من نصبهم إلا أن يكون هناك امرأة لم تكن من ذوات البروز فتوكل ، أو صبي فحينئذ ينصب الحاكم عنه وكيلاً » .
ويقول الشيرازي في أمر النحوظ من الباطنية « ويقدم المحتسب إلى جيران كل مسجد

بالمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان لإظهار معالم الدين وإشهار شعار الإسلام ، سيما في هذا الزمان لكثرة البدع واختلاف الأهواء ، وتنوع الباطنية ، وما قد صرحوا به من تعطيل الشريعة وإبطال أحكام الإسلام ، فيجب على كل مسلم إظهار أركان الإسلام وإشهار الشريعة في مقابلة ذلك لتقوى عقائد العامة .

إن الكتب المذكورة تصور لنا في الجملة الحياة اليومية في المدن الإسلامية الكبيرة فنصف الأسواق وحركة التعامل وما قد يقع من منكر يسارع المحتسب إلى إزالته ، كما تصف مختلف الصناعات والحرف وصفاً دقيقاً .

ومهما يكن لها من قيمة تاريخية ، فإن قيمتها اللغوية هي الجديرة بالتنويه في هذا المقام . إن كتب الحسبة العملية التي وصلت إلينا تحوى عشرات بل مئات من الألفاظ والمصطلحات الفنية التي جرى استعمالها منذ أربعمائة عام أو تزيد . ولأورد بعض هذه المصطلحات على سبيل المثال : يقول الشيزرى في باب الحسبة على البيطرة « وقد ذكر بعض الحكماء في كتاب البيطرة أن علل الدواب ثلاثمائة وعشرون علة منها الخناق ، والخنان الرطب ، والخنق اليابس ، والجنون ، وفساد الدماغ ، والصداع ، والحر ، والنفخة ، والورم ، والمرة الهاجمة ، والديبة والختام ، ثم يمضى فيعد أكثر من أربعين مصطلحاً لأربعين علة من علل الدواب » .

ويقول في باب الحسبة على الأطباء « وينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال ، وهي كليات الأضراس ، ومكاوى الطحال ، وكليات العلق ، وزرقات القولنج ، وملازم البواسير ، ومخرط المناخير ، ومنجل النواصير ، وقالب التشير ، ورسا ص التثقيب ومفتاح الرحم ، وبوار النساء ومكدة الحشا ، وقدر الشوصة ، وغير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب غير آلة الكحالين والجراحيين مما يألف ذكره في موضعه » .

ومن المصطلحات التي التقطتها من كتب الحسبة المذكورة والتي نستعمل نحن بعضها في حياتنا اليومية : الزنجار بمعنى صداة النحاس ، والقبان ، لآلة الوزن المعروفة ، والقرمة التي يقصب عليها اللحم والقطان (بمعنى المنجد) ودقيق العلامة أو الدرملك لدقيق لب الخنطة ، واللحوم

الواقعة الهزيلة ، والسمك الفائت ، والسمك الطرى ، والبيض المذر والسمك المذر بمعنى
الفساد ، والزبون بمعنى العميل ، وأرش العيب بمعنى ما يطرح من الثمن لظهور عيب في
السلعة (وهو من أرش الجراح في الفقه بمعنى ديتها) والطنجير للقدر الكبيرة المتخذة من
النحاس ، وهى تقابل لفظ (القزان) عندنا .

أما بعد فقد قام المستشرق الهولندى دوزى فى النصف الأخير من القرن الماضى بمجهود
مشكور ، إذ جمع طائفة كبيرة من الألفاظ والمصطلحات العربية التى لم ترد فى المعاجم العربية
ونشرها ، ولكن كم ترك الأول للآخر ! إن من حق الألفاظ والمصطلحات التى ذكرت
وأمثالها على مجموعنا ، أن تجمع وتفسر ، ثم تضمن المعجمين الكبير والوسيط . بذلك نكون قد
وسعنا معاجمنا ، وزدنا فى مادة لغتنا ، ورددنا إلى هذه الألفاظ والمصطلحات اعتبارها .

ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامى

ساعدت على نمو العربية وانتشارها^(١)

ألقى حضرة الأستاذ أحمد أمين فى افتتاح مؤتمر هذا العام بحثاً قيماً موضوعه تضخم المعاجم العربية ، وقد عرض حصرة أسباب هذا التضخم سبباً سبباً ، وكان البحث منصفاً على نقد هذه المعاجم وما وقع فيه واضعواها من أوهام وأغلاط أدت إلى التضخم المذكور . أما البحث الذى أنشرف بإلقائه اليوم فمنصب على ناحية من نواحي نمو اللغة العربية إبان ازدهار الدول الإسلامية القديمة . والنمو غير التضخم ، فالتضخم علة تلحق الكائن الحى فتعيبه وتعله وقد تودى بحياته . أما النمو فدللى صحته ، وقوته ، وحيويته ، وقابليته للبقاء . واللغة لاشك كائن حى ، وإذا كان الواجب يقتضى أن نعرف علل لغتنا كالتضخم الذى تكلم عليه الأستاذ الجليل ، فما أحرانا أن نعرف ظواهر فتوتها ونماها وحيويتها فنكون قد جمعنا بين الحسينين : بين التخلص من أسباب العلل ، والأخذ بأسباب القوة والنمو والحيوية والمضى بالانتفاع بها فى إنهاضها وإقالتها من عثارها .

ولقد نظرت فى حوادث التاريخ الإسلامى فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى فى نمو اللغة العربية وانتشارها العظيم : أول هذه الحوادث تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) والثانى أمر الخليفة عمر ابن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) بتدوين الحديث النبوى ، والثالث أمر الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ هـ) بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية . وسأتكلم على هذه الأحداث الثلاثة واحداً واحداً مبيناً الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره فى نمو اللغة العربية وانتشارها . ثم أختم كلامى بالمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل من حيث نهضة اللغة العربية فى العصر الحاضر .

(١) ألقى هذا البحث فى المؤتمر السنوى لمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

إن نظام الديوان نظام مستحدث في الدولة الإسلامية ، ظهر على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عندما توالى الفتوح وتدفقت الأموال من الأقطار المفتوحة . فاقبضت الحال اتخاذ نظام لتقييد أسماء المقاتلة وقبائلهم ومبالغ أعطياتهم ، فاستشار عمر ذوى رأى على عادته في كل أمر حازب وحدث مهم . فأشاروا عليه بوضع الديوان .

ولفظ « الديوان » كما تقول دائرة المعارف الإسلامية قد يكون إيراني الأصل وذات صلة بكلمة « دبیر » الفارسية ومعناها « الكاتب » . ثم أطلق في الفتوح العربية على السجلات التي تشمل على حساب الأموال ، ثم أطلق في الدولة العباسية على كل إدارة من إدارات الدولة كديوان الزمام وديوان الخاتم وهلم جرا .

ولقد كون عمر لجنة لتدوين أسماء الجند وبيان أنسابهم وأعطياتهم على نظام اتفق عليه وبينه الماوردي في كتاب « الأحكام السلطانية » فكان من ذلك الديوان المعروف بديوان الجيش . وهو أول ديوان وضع في الدولة الإسلامية ، وكان يمرر بالعريفة من أول أمره . ثم تلاه ديوان آخر هو ديوان المال والجباية . وكان مقر دواوين الأموال هذه في عواصم الأقطار المفتوحة . وكانت تسجل فيها أسماء القرى ومساحاتها ومقادير ارتفاعها وتوزيع ذلك على أهلها على هيئة خراج أو جزية ، وكان هذا الديوان يكتب في كل قطر بلغة أهله ، وكانت في الغالب لغة الدولة التي كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامي ، فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالرومية والقبطية . وكان يقول شئون هذه الدواوين عمال من أهل الإقليم ، فكان عمال ديوان العراق من موالى الفرس ، وعمال ديوان الشام من الروم ، وعمال ديوان مصر من الروم والقبط .

وقد ظلت دواوين المال والجباية تكتب في الأقطار المفتوحة بلغات الأجنبية المذكورة ويتولاها عمال من موالى الفرس والروم والقبط حتى كان زمن عبد الملك بن مروان . وكانت العربية قد انتشرت بين الأعاجم وحذقها قوم منهم إلى جانب لغاتهم الأصلية . ثم إن الدولة الأموية قد أصبحت راجحة النفوذ في الميزان الدولي ، هذا إلى عصبيتها الشديدة لكل ما هو عربي ، فلم يكن من الطبيعي أن تظل دواوينها تكتب بلغات غير العربية ، واتجهت سياسة عبد الملك إلى تعريب إدارة الدولة ، وبدأ بالعملة فضر بها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية . قال البلاذري بإسفاذه « إن عبد الملك أول من ضرب الذهب بعد عام الجماعة

أى سنة ٧٤ . وضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ ثم أمر بضرها في جميع النواحي سنة ٧٦ هـ « ثم اتجهت عزيمة عبد الملك وعامله الحجاج إلى تعريب الدواوين .

يروى البلاذرى نقلا عن المدائنى عن أشياخه في بيان السبب الذى من أجله نقل ديوان العراق فيقول « قالوا لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية ، فلما ولى الحجاج العراق استكتب زادان فروخ بن ببرى ، وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم يخط بين يديه بالفارسية والعربية . . . فوصل زادان فروخ صالحاً بالحجاج وخف على قلبه ، فقال له ذات يوم : إنك شبيبى إلى الأمير وأراه قد استغفنى ، ولا آمن أن يقدمنى عليك وأن تسقط . فقال لا تظن ذلك ! هو أحوج إلىّ منه إليك لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى . فقال والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته ، قال فحول منه شطراً حتى أرى ، ففعل ، فقال له تمارض ! فتمارض ، فبعث إليه الحجاج طبيباً ، فلم يبر به علة . وبلغ زادان فروخ ذلك فأمره أن يظهر . ثم أن زادان فروخ قتل في أيام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى . . . فاستكتب الحجاج صالحاً مكانه فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين زادان فروخ في نقل الديوان ، فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية ، وقلد ذلك صالحاً . فقال له مراد نشاء بن زادان فروخ ، كيف تصنع بدهوية وشيشوية ؟ قال أكتب عشر ونصف عشر . قال كيف تصنع بويد ؟ قال أكتبه « وأيضاً » والويد النيف والزيادة تزد . فقال قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ! وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك ، فأبى ونقله . فكان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول : لله در صالح ! ما أعظم مننه على الكتاب . ويقال إن الحجاج أجل صالحاً أجلاً حتى قلب الديوان .

هذا عن نقل ديوان العراق وفارس . أما ديوان الشام فيروى البلاذرى أيضاً سبب نقله فيقول « قالوا ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان . فلما كانت سنة ٨١ أمر بنقله ، وذلك أن رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء فبال في الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ، ففعل ذلك ، وولاه الأردن . فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى

به عبد الملك فدعا بسر جون كاتبه ، فعرض عليه ذلك ، فغمه ، وخرج من عنده كئيهاً ، فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة ؛ فقد قطعها الله عنكم ! قال : وكانت وظيفة الأردن التي قطعها له معونة مائة ألف وثمانين ألف دينار .

أما ديوان مصر فيقول السكندى في كتاب « الولاية والقضاة » في أمر نقله « وبويع الوليد بن عبد الملك ... فأقر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها وأمره بالدواوين فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله بن أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص » (١) .

ومهما يكن ما ترويه المصادر من أسباب مباشرة لتعريب الدواوين ، فالذى لا شك فيه أن عبد الملك وابنه الوليد وعاملهما الحجاج كانوا شديدي العصبية لكل ما هو عربي وأن الدولة قد اتجهت إلى تعريب إدارتها كما قدمنا ، استكمالاً لمظاهر سيادتها وتوفيراً لكرامتها . ولقد ترتب على هذا الحادث التاريخي الهام عدة أمور خطيرة : —

فالعربية الفصحى أفادت ألفاظاً جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشيشوية وويد ، فهي مثال لما حصل بالفعل على نطاق واسع وظهرت في العربية ألفاظ كثيرة إما عربية أو منقولة عن أصولها الأعجمية المستعملة في الحساب والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل .

ثم إن الأعاجم ، مسلمين وغير مسلمين ، أقبلوا على تعلم العربية بعامل المصلحة الذاتية ، وذلك للانتظام في أعمال الكتابة والخراج وما يتصل بهما ، ولسهولة التقاضي في المنازعات التي كان يفتقر فيها قضاة من العرب بطبيعة الحال . وبذلك لم يكد ينصرم القرن الأول الهجري حتى كانت العربية قد عمت أهل فارس والعراق والشام ومصر وغلبت الفارسية والرومية والقبطية على أمرها فأخذت هذه اللغات تتضاءل وتضمحل في الأقطار المذكورة حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال .

(١) ولأما لهذا العرض التاريخي أقول إن السيد حسن عبد الوهاب العلامة التونسي وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية أخبرني أن ديوان المغرب نقل من اللغة اللاتينية إلى العربية في حوالى الوقت الذى عربت فيه دواوين المشرق وأنهم عثروا في بعض نواحى المغرب على دينار عربى من عهد الأمير موسى ابن نصير .

وبانتشار العربية بين الأعاجم واضمحلال اللغات الأجنبية ثم ذهابها ظهرت في الأقطار المفتوحة لهجات عربية شعبية محلية تبين لنا المصرية منها مجموعات البردى التي كشفت في مصر والتي تصاحب تاريخ مصر الإسلامي من أول الفتح العربي إلى القرن السادس .

تستعمل هذه الوثائق النفيسة على رسائل صادرة عن ولاية مصر مثل قرعة بن شريك وغيره و بعض المثقفين من العرب ومكتوبة بلغة عربية صحيحة فصيحة ، كما تستعمل على عدد عظيم من وثائق المبيعات والمدائنات ، وعقود الزواج والتمايك والشئون اليومية . وهذه مكتوبة بلغة شعبية مباينة للفصحى وفيها كثير من خصائص العامية المصرية الحاضرة ، من ذلك إبدال الضاد من الظاء في « احفض » بدلا من « احفظ » وإسقاط الهوزة رسما ونطقا إسقاطا يكاد يكون مطردا فيقال « و يضاً » بدلا من « وأيضاً » و « حد عشر » بدلا من « أحد عشر » وعدم المبالاة بالإعراب فيقال « اثنين » حيث يجب أن يقال « اثنان » وهلم جرا . وقد نشر جانباً من هذه البرديات المحفوظة بدار الكتب المصرية الأستاذ المستشرق أودولف جروهمان النموسى في ثلاثة أسفار كبار طبعتها دار الكتب قبل الحرب الأخيرة كما وضع جنباه حديثاً كتاباً قيماً في هذا الموضوع أسماه « من عالم البرديات العربية »^(١) . وأهم النتائج التي ترتبت على تعريب الدواوين من حيث مستقبل الثقافة الإسلامية أن أصبحت اللغة العربية الأداة الوحيدة للتخاطب وتبادل الآراء والأفكار في العالم الإسلامي الذي كان يمتد إذ ذاك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسي .

* * *

هذا عن تعريب الدواوين وما ترتب عليه من الآثار ؛ أما تدوين الحديث النبوي فالمعروف أنهم كانوا طوال القرن الأول يكرهون كتابة الحديث حتى لا يكون إلى جانب القرآن الكريم كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه . بيد أن هذا التخرج لم يمنع نفراً من الصحابة والتابعين أن يكتبوا مجموعات من الأحاديث لأنفسهم لا بقصد النشر والتداول . فلما ظهرت أحاديث لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين قوى الاتجاه إلى تدوين الأحاديث الصحاح . يروى الخطيب البغدادي في كتاب « تقييد العلم » عن ابن

(١) نشرته حديثاً « جمعية الدراسات التاريخية المصرية » .

شهاب الزهرى أنه قال « لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق لنفكرها ولا نعرفها ما كتبت حديثا ، ولا أذنت في كتابته » فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزهرى بجمع السنة وكتابتها . وعن إبراهيم بن سعد قال « أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترادفتر فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترا » . ثم استفاض تأليف الكتب في الحديث بعد ذلك حتى كانت الكتب السنة المشهورة .

والذى نخصه بالملاحظة من هذه الظاهرة العظيمة أن الأحاديث سواء كانت مروية باللفظ أو بالمعنى ، هى طبقة عالية من البلاغة ، فأفادت اللغة من تدوينها نموذجاً للعبارة البليغة مكن للنصحى بعد المنزلة التى بلغت بالقرآن الكريم أى تمكين ؛ وأن حرص المسلمين فى كل عصورهم على هذين المصدرين الأقدسين وبالغ عنايتهم بهما أقام النصحى على أساس راسخ لا يتطرق إليه وهن مادام فى الأرض مسلمون وإسلام .

ثم إن السنة المروية عن الرسول العربى تعد المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى ، ومن ثم وضعت كتب فى الحديث مرتبة على أبواب الفقه كوطأ الإمام مالك وصحيح البخارى ، فكان منها مادة عظيمة غدت لغة الفقه الإسلامى وعلم الحديث وابتعثت فيها تعبيرات ومصطلحات يعرفها من يطالع على الكتب المؤلفة فى هذين العلمين الجليلين .

ثم انتقل إلى الحادث الثالث وهو أمر المأمون بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية ، فأقول لما فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر وجدوا فى أمهات مدنها مدارس للسريان والفرس والقبط تدرس بها العلوم القديمة وخاصة علوم اليونان ، وكانت هذه العلوم قد نقلت إلى السريانية فى الشام والعراق رغبة من النساطرة واليعاقبة فى درسها بلغتهم ومبالغة منهم فى مقاطعة اللغة اليونانية ، لغة الكنيسة البيزنطية التى انفصلوا عنها من الناحية الدينية ، وكان أكثر ما يدرس فى هذه المدارس الفلسفة اليونانية وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة والطب والنجوم والكيمياء . وقد نقلوا كذلك كتباً عدة فى الرياضيات وغيرها عن الفارسية والهندية والقبطية والنبطية .

واستمرت هذه الحال فى العصر الأموى وأخذ المسلمون يتصلون شيئاً فشيئاً بهذا الجو

العلمي الذي كان يسود بلاد الشرق الأدنى بفضل مدارس الإسكندرية وأنطاكية وقيصرية ونصيبين والرها وجنديسابور ، حتى رويوا أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية درس الكيمياء على راهب إسكندري اسمه ماريانوس وأنه ألف في الكيمياء ثلاث رسائل . فلما كان زمن العباسيين الأوائل ازداد إقبال المسلمين على دراسة هذه العلوم ، وكان للخليفة المنصور ولع خاص بالطب والنجوم فترجمت له كتب في هذين العلمين عن السريانية . وكان للبرامكة أثر كذلك في تشجيع النقل عن السريانية والفارسية ، فلما جاء المأمون وكان ميالا بطبعه إلى البحث الفلسفي وآراء المعتزلة كالتقول بخلق القرآن وغيره من مسائلهم ، فقد سلك مسلكا جديداً بالمرّة ، إذ أنشأ في بغداد « بيت الحكمة » للدرس والبحث . والظاهر أنه أنشأ بيت الحكمة هذا على مثال مدارس السريان التي أشرت إليها ، ثم إنه أحب أن تنقل كتب الفلسفة الإغريقية عن اليونانية رأساً دون وساطة لغة أخرى كالسريانية وغيرها . ويروي ابن النديم في « الفهرست » السبب الذي بعث المأمون على ذلك وهو أن المأمون رأى في منامه أرسطوطاليس وسأله بعض الأسئلة ، فلما نهض من نومه طلب ترجمة كتبه ، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من الكتب القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل ، وجعل يحرص الناس على قراءة تلك الكتب ، ويرغبهم في تعلمها كما يذكر ابن العبري في كتابه « مختصر تاريخ الدول » .

واقترى بالمأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الوجاهة والثروة في بغداد ، فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية واللاتينية وغيرها . وأقبل الناس على الاطلاع والبحث أيما إقبال . وقد ظلت الحال على ذلك حتى أنه لم يكد ينتهي القرن الرابع حتى كان قد تم نقل أهم كتب القدماء إلى العربية .

ولقد كان أثر هذا النقل الواسع المدى عظيماً بالإضافة إلى اللغة العربية فقد نقل المترجمون مئات الألفاظ الفلسفية والطبية والكيمائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية ، مترجمين بعضها إلى ما يقابله في العربية وناقلين بعضها بلفظه مما حمل علماء اللغة على أن يخصصه بتأليف

خاصة مثل كتاب « العرب والدخيل » للجوالقي . ومهما يكن من شيء فقد أفادت اللغة العربية مادة غزيرة مكنت الفحاة والمتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من أن يتناولوا مسائل علومهم بلغة مواتية ، وألفاظ دالة على المعاني التي يريدون التعبير عنها .

أما بعد ، فإننا إذا اعتبرنا ما أداه تعريب الدواوين إلى اللغة العربية في مجال المصطلحات الإدارية والمالية ، وتدوين الحديث في مجال السنة والفقه ، ونقل كتب الفلسفة والطب والرياضة والكيمياء في ميدان العلوم العقلية والطبيعية ، فإننا نجد أن اللغة العربية قد أصبحت في القرن الرابع بجرأ زاخرا ، مما اقتضى وضع معاجم تجمع مادتها وتبين معاني مفرداتها . وهذا كله بفضل ما أوتيت هذه اللغة نفسها من قوة وحيوية عجيبة ، ثم بفضل السياسة التي انتهجتها الدولة بإزائها على النحو الذي بيّناه .

ثم أختم كلمتي فأقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ! فبعد أكثر من ألف سنة عادت اللغة العربية إلى شبه الحال التي كانت عليها في أزهى عصور الإسلام . لقد عربت الدواوين بعد أن كانت تسكتب بلغات أجنبية بين تركية وفرنسية وإنجليزية ، ثم ها هي ذى حركة نقل قوية عن اللغات الأوربية في مختلف العلوم والفنون والآداب يقوم مجمعا على توفير المصطلحات العربية اللازمة لإيجازها . وكما كانت العربية أداة للتفاهم وتبادل الرأي والفكر في الدولة الإسلامية القديمة ، فإنها بسبيل أن تصبح كذلك في عالم شرق حديث يتقدم من أقاصى أندونيسيا إلى مراكش ، وهو لعمرى عالم أوسع وأشمل من العالم الإسلامي القديم . ولكن معنى هذا كله تزايد العبء الملقى على أبناء العروبة وحماة لغة الضاد ، وأخص بالذكر منهم رجال مجمعا الموقر . إن الآمال المعقودة بهم في جعل العربية تنهض في المستقبل القريب نهضتها في الماضي البعيد لآمال قوية لا يعرف اليأس إليها سبيلا . فإذا ما تحققت هذه الآمال — وهي متحققة بإذن الله — فسيكون للعربية شأن أى شأن في نشر الثقافة العليا في القارتين الآسيوية والأفريقية . والله ولي التوفيق .

أثر مصر

في الأحداث الإسلامية حتى آخر العصر

العبيد — أسى الأول*

لم تكن مصر في نظر العرب عند ما أقدموا على فتحها في سنة ١٨ هـ كغيرها من الأقطار التي فتحوها في نهضتهم العظمى ، بل كان لها في أخيلتهم وخواطرهم مكانة مميزة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام ، ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر في مواضع عدة ذكرأ كريما تارة بالقصر يح وأخرى بالإشارة والتلميح ، فمن ذلك قول القرآن مخبرا عن فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ » . وقوله مخبرا عن يوسف عليه السلام « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » . وقوله : « ولقد بوأنا بني إسرائيل مبعوأ صدق » . وقوله : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » . وقوله : « ربنا إنك آتيت فرعون وملاءه زينة وأموالا في الحياة الدنيا » .

وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيها تنويه بقدر مصر وخطرها وراثتها ، فإن السنة ذكرت مصر ونوهت بأهلها خاصة لأسباب وردت في قصص الكتب المقدسة . من ذلك ما يروى من أن النبي (ص) قال : « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما » وفسروا « رحما » بأن هاجر أم إسماعيل عليهما السلام كانت مصرية وأنها ولدت لإبراهيم ولده إسماعيل الذي هو أصل عرب الحجاز ، فكان القبط أخوال العرب الإسماعيلية إذا أخذنا بنظرية النسب العربية .

والمعروف من التاريخ المقدس أن مصر دخلها غير واحد من الأنبياء والرسل ، قدمها

(*) بحث ألقى في الجمعية الملكية للدراسات التاريخية في ١٥ أبريل سنة ١٩٥٠ .

إبراهيم الخليل ، ودخلها يعقوب وابنه يوسف وإخوته ، وفيها ولد ونشأ موسى عليه السلام ، ومنها خرج بنو إسرائيل ، كما دخلها عيسى وأمه مريم عليهما السلام .

فإذا ما صرنا إلى أخبار عرب الجاهلية وجدنا أن مصر كانت متجراً لهم تحمل إليهم منها فيما يحمل الثياب المعروفة بالقباطى ، جمع قبطية ، وقد ورد ذكر هذا الضرب من الثياب في الشعر العربي القديم .

كل هذه الذكريات المستمدة من المصادر التي ذكرنا كانت تجول بخواطر العرب عندما أقدموا على فتح مصر ، فلما لم يفتحها فعلا واختلطوا بأهلها ، وعابنوا نيلها العجيب ، وتربها الحصبة ، وخيراتها الوفرة ، وآثارها الرائعة ، ووضعها الجغرافى الفريد ، ودعة أهلها وانصرفهم إلى العمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة ؛ كل ذلك جعلهم يرون أن قد صدق الخبر الخبر . فانطلقت ألسنتهم تشيد بجو مصر ، وخيرات مصر ، ونيل مصر ، ومعائب مصر ، وجعلوها « حنة الدنيا » و « كفانة الله فى أرضه » ، وقالوا « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثله فى الدنيا فليتنظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها » . (ابن عبد الحكم ص ٥) .

ومن قبيل ذلك الوصف البديع الذى يقال أن عمرو بن العاص بعث به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يصور فيه اختلاف مناظر الأفق المصرى من لدن أن يكون مغموراً بمياه الفيضان ، إلى أن ينحسر عنه الماء ، وتحث الأرض ، وتخضر بالعشب والنبات ، وتنضج الزروع ، وتتنوع ألوانها ، فيقول : « فيمينا مصر يا أمير المؤمنين لأولوة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء » .

والحق أن من بين الشعوب التى اختلفت حكوماتها على مصر لم يحب مصر ويفتن بها غير المصريين القدماء والعرب ، فقد بلغ من فتنة الأولين بها أن ألهاوا وعبدوا نيلها وأرضها وسماءها . أما الآخرون فمنهم دينهم من التورط فى شىء من ذلك ، فراحوا يفتنون بحاسنها فى منشورهم ومنظومهم . وكل من هؤلاء وهؤلاء كان أطول أمداً ، وأعظم أنراً فى تاريخ مصر ، ممن دخلها فاتحاً مسيطراً ، أو متجراً مستعمرأ .

من أجل ذلك لم تلبث مصر أن استحوالت قطراً عربياً إسلامياً فى زمن أوجز مما يجرى

في الحسبان عادة . ذلك بأن الصلة الاستغرافية القديمة التي ترمز إليها قصة إبراهيم الخليل وهاجر المصرية ومولد إسماعيل أبي عرب الشمال ، لها ظل من الحقيقة ، فالمصريون والعرب هما في الحق أبناء بيئة تكاد تكون واحدة ، والعلاقات التاريخية بينهما من فجر التاريخ مشتبكة متصلة ، ثم إن مصر كانت قد تعربت إلى حد ما قبل الفتح العربي ، فجزيرة سيناء كانت تعمرها قبائل عربية انضم بعضها إلى جيش عمرو بن العاص في زحفه إلى مصر ، وفي الجاهلية عبرت إلى مصر واستقرت على سواحل البحر الأحمر وفي شمال السودان قبائل عربية ينص ابن خلدون على بعضها كقبيلة الكنز مثلا . فبداية استعراب وادي النيل سابقة على الفتح العربي . ثم جاء الفتح وحصلت هجرات كبيرة أشهرها هجرتان ، هجرة القبائل الفاتحة مع عمرو بن العاص ، وأكثرها من عرب اليمن ، ثم هجرة قيسية عدنانية كانت في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩ ، وقد استقرت في الحوف الشرقي ، ويقابل ما نسميه الآن بمديرية الشرقية . ثم يحدث الامتزاج فيستقر العرب في الأرض ، يزرعونها ويعملون فيها ، ويقبل القبط على التعرب بتكلم العربية ودخول الجمل الغفير منهم في الإسلام . وبذلك تصبح مصر قطراً عربياً إسلامياً يتمتع بخصائص مكنته من أن يشترك في الأحداث الكبرى التي وقعت في الدولة الإسلامية عامة ، وهانحن أولاء نستقرئ هذه الأحداث ونبين مدى تأثير مصر فيها منذ الفتح حتى آخر العصر العباسي الأول ، أي إلى قرب منتصف القرن الثالث الهجري .

ولكي نجاول الحوادث التي شاركت مصر فيها نقول إن حوادث الدولة الإسلامية من قيام الخلافة إلى آخر العصر العباسي الأول تقع في ثلاثة ميادين كبيرة ، ميدان الفتوح الحربية ، وميدان الأحداث السياسية ، وميدان الحركة الفكرية .

الفتوح الحربية :

كان العداء مستحكماً ومتصلاً بين الدولة العربية الناهضة والدولة البيزنطية طوال العصر المذكور ، فكان الروم يحاولون ارتجاع ما فقدوا من أملاكهم في آسيا وأفريقية ، وكان العرب من ناحيتهم مضطرين إلى صد هذا العدوان . ولقد وقع عبء قتال الروم في ذلك

العهد على الشام ومصر بحكم وضعهما الجغرافى ، واضطلعت مصر بنصيبها من هذا العبء اضطلاعاً رائعاً . كما كان لها أثر قوى فى مد نطاق الدولة العربية غرباً وجنوباً وشمالاً بمحض جهودها ومواردها . إن مصر كانت فى نظر الخلفاء باب المغرب والوسيلة إليه فعولوا عليها فى فتحه وبسط سلطانهم عليه . لذلك نجد عمرو بن العاص غداة فراغه من أمر مصر يكر على برقة فيستولى عليها سنة ٢٢ هـ ويتبع ذلك بالاستيلاء على طرابلس سنة ٢٣ هـ ثم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو إفريقية فلا يأذن له على عادته فى التمسك والتريث إزاء المشروعات الخطيرة ، ولكن عثمان بن عفان يطلق يد عبد الله بن سعد عامله الجديد على مصر فيجتاح إفريقية ، ثم يأتى عقبة بن نافع الفهري فيؤسس مدينة القيروان ، ويكتسح شمال إفريقية ، كل ذلك بجيوش مصر وموارد مصر . نعم إن فاتحى المغرب من بعد عقبة وخاصة حسان بن النعمان وموسى بن نصير قد مكثوا للدولة العربية فى المغرب حتى سواحل المحيط بجيوش عربية غير مصرية ، ولكن مصر كانت دائماً رداء لهم تساعدهم بأسطولها ومالها . وحتى الأندلس النائية قد اشترك جند مصرى فى تهدة أحوالها ضمن حملة كلثوم بن عياض القشبرى ، ونزل هذا الجند المصرى كورة تدمير التى سميت « بمصر » إشارة إلى أن الجند الذى نزلها أصله من مصر .

هذا فى الغرب أما فى الجنوب فقد غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح بلاد الأساود سنة ٣١ ويريدون بها النوبة ، وكانت الحرب عنيفة استقبل فيها العرب والسودان ، فجنح ابن أبى سرح إلى السلم ، لما رأى من شجاعة السودان وبراعتهم فى الرماية فى الواقعة المعروفة بيوم دمقلة ، فعقد بينه وبينهم هدنة على شروط معينة .

أما فى الشمال فكان هدف الدولة الأموية الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية . وكان معاوية بن أبى سفيان حريصاً على إدراك هذه الغاية ، وتوسل إلى ذلك بإنشاء بحرية عربية قوية فى سواحل الشام والاستعانة بالأسطول المصرى والاستيلاء على جزائر البحر الأبيض الشرقية . وافتتح معاوية برنامجه سنة ٢٨ بالاستيلاء على قبرص ثم كانت الواقعة البحرية المعروفة بذات الصواري سنة ٣٤ فى أواخر عهد عثمان . قالوا إن الأمبراطور قسطنطين سار فى أسطول ضخم يريد به ارتجاع ما فقد ، إما الشام أو مصر ،

فسارع الأسطولان الشامى والمصرى إلى لقائه . وكانت الوقعة بين الفريقين على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فانتصر المصريون انتصارا حاسما ودمر الأسطول البيزنطى وعاد الإمبراطور مغولا فقتله بعض أتباعه بجزيرة صقلية جزاء له على تلك الهزيمة الشنعاء . وفى سنة ٤٤ أغزى معاوية الأسطول الشامى جزيرة رودس ، واشترك فى الغزو الأسطول المصرى بقيادة عقبة بن عامر الجهنى ، ففتح رودس عنوة (البلاذرى ٢٤٤) وفى سنة ٤٩ كانت الحملة العظيمة التى أعدها معاوية لغزو القسطنطينية ، وغزا فيها ابنه يزيد وعدد من الصحابة فيهم أبو أيوب الأنصارى . وقد اشترك فى هذه الحملة الأسطول المصرى بقيادة عابس بن سعيد المرادى . (الكندى ص ٣٩)

ويدخل فى هذا الصراع عمل مصر على انتزاع جزيرة إقريطش من أيدي الروم . ولذلك قصة طريفة ، فقد ورد على مصر فى أوائل القرن الثانى جماعة من مهاجرة الأندلس ممن أجلاهم الأمير الحكم لقيامهم بثورة الربض المشهورة ، فولى بعض هؤلاء المهاجرين وجهه شطر مدينة فاس التى كانت تؤسس فى ذلك الوقت فأزلهم إدريس بن عبد الله بها وانتفع بكفائتهم فى الصناعات المختلفة . أما سائر المهاجرين فتابعوا السير شرقا حتى بلغوا مصر فى وقت اضطراب أمورها بالفتنة بين الأمين والمأمون . واستطاعوا احتلال الإسكندرية بضع عشرة سنة إلى أن قدم عبد الله بن طاهر واليا على مصر من قبل المأمون ، فخاصرهم بالإسكندرية حتى نزلوا على حكمه ، ثم إنه أعانهم بسفن ومال وسلاح فساروا إلى إقريطش سنة ٢١٢ هـ فاحتلوها بزعامة أبى حفص عمر بن عيسى الأندلسى .

الأممات السياسية :

من ذلك نرى إلى أى حد أسهمت مصر فى حركة الفتح الإسلامية الكبرى فقد قامت فيها بدور كان حاسما فى أمر المغرب والسودان ، وخطيرا بالإضافة إلى الحروب العربية البيزنطية . وقد جرت مصر فى ذلك على المألوف من تاريخها قديما وحديثا . ففى وسعها كلما تهيأت لها الأسباب أن تصبح قوة من قوى البحر المتوسط يحسب لها فى الميزان الدولى كل حساب . ولم يكن ممكنا أن تظل مصر وقد اتضحت مكائنها فى الفتح الكبرى بمنأى عن

مجرى الأحداث السياسية والانقلابات العامة التي رجّت الدولة الإسلامية رجاً عنيفاً ، والحق أننا نلاحظ أثر مصر بارزاً في أشد هذه الحوادث وأخرجها . ولنبدأ بالفتنة الكبرى التي كان أفظع أحداثها مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

لا نريد أن نخوض في هذا المقام في أسباب هذه الفتنة فقد اختلطت فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية بعصبية القبائل العربية على قريش . ولكننا نبادر إلى القول إلى أنه قد يكون عجباً من العجب أن تشرك مصر في هذه الفتنة وأن تبوء هي بالجانب الأكبر من إنهما ، مع أنها في ذلك الوقت كانت أرغد أقاليم الدولة الإسلامية حالاً وأحسنها إدارة ونظاماً . غلطة صدرت عن السياسة العليا هي في نظرنا السبب في انقلاب مصر على عثمان ، تلك عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وتوليته مكانه أحد أقربائه وهو عبد الله بن سعد بن أبي مروح ، وعمرو رجل نفاع ضرّار ، يرجى للشركاء يرجى للخير . ولم يظن الخليفة الثالث لذلك عندما عزل عمرًا عن مصر ، كما ظن له من بعد معاوية . أجل ! فقد أقام عمرو على حدود فلسطين يرقب الأحوال ويؤلب على عثمان في الحجاز وفي مصر . ثم يتفاهم الخطب ، وينجم قرن الفتنة في غزوة ذات الصواري نفسها ، وتابى مصر دعوة الداعين إلى الجهاد ، لا فيما وراء النغور ، ولكن في المدينة نفسها ، فتخرج من مصر عصابة مؤلفة من ٥٠٠ رجل فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي وكثانة بن بشر التميمي ومحمد بن أبي بكر الصديق . ويحاولون إقناع الخليفة باعتزال الأمر فيأبى ، فيجرون عليه ويحاصرونه في داره ، ثم يفتحونها عليه ويقتلون الشيخ الهرم والصحابي الجليل وهو يقرأ في مصحفه (١٨ ذى الحجة سنة ٣٥) . ويعود المصريون إلى مصر بعد أن ولوا على ابن أبي طالب الخلافة ، عادوا وهم يرتجزون :

خذها إليك واحذرن أبا حسن أنا نمر الأمر إسمار الرسن

ونظمن الملك بلين كالشطن بالسيف كي نحمد نيران الفتن

ولكن الرواية لم تتم فصولاً ، لقد انصدعت بمقتل عثمان وحدة الدولة الإسلامية وانقسمت إلى معسكرين متعادين ، معسكر على وصحبه ، ومعسكر معاوية وحزبه . ولقد أخذت مصر جانب على بطبيعة الحال في هذا الصراع العنيف ، وجعلت تتقبل عماله راضية ، ولكن معاوية كان أدهى من ألا يظن إلى أهمية مصر وضرورة حصوله

عليها ، فأخذ يشجع الأقلية المعروفة فيها بالعمانية ، كما جعل يتخلص من عمال عليّ على مصر الواحد تلو الآخر ، بالحيلة تارة وبالاغتيال أخرى ، إلى أن ظهرت نتيجة التحكيم ولم تكن في مصلحة عليّ ، فأرسل معاوية سنة ٣٨ عمراً إلى مصر على رأس جيش فانتزعها من يد محمد بن أبي بكر عامل عليّ ، وكان ذلك بعد وقعة هائلة تعرف بيوم المسناة ، عدها عمرو أهول وقعة خاض غمارها على كثرة ما شهد من الوقائع من قبل . وتظهر فرقة الخوارج ، ويجمع نفر منها على اغتيال الثلاثة الذين كانوا في نظرهم سبب كل البلاء وهم : عليّ ، ومعاوية ، وعمرو . ويقتل عليّ ، وينجو معاوية وعمرو ويستقر أمر الخلافة لمعاوية في سنة ٤١ هـ .

ولكن مصر تمضى في محاصرة الأمويين ، فعند ما اشتد الخلاف بين آل الزبير وبني أمية أخذت مصر جانب عبد الله بن الزبير وبايعته بالخلافة . ولكن ما هي إلا أن انتصر مروان بن الحكم في وقعة المرج المشهورة سنة ٦٥ حتى أسرع مروان إلى مصر وانتزعها من عامل ابن الزبير .

ودان المصريون للأمويين مكرهين ، فلما ظهرت الدعوة العباسية بث دعائها الدعوة للعباسيين بمصر ، فاستجاب لها المصريون بوجه عام ، ذلك بأن المتأخرين من خلفاء بني أمية جفوا العنصر العربي اليميني الذي كان يشد ملكهم ، فأنحرف عنهم اليمانيون ، وهم جبهة عرب مصر ، وظهر أثر ذلك في وقعة الزاب التي هزم فيها مروان بن محمد ، وفرّ عليّ أثرها إلى مصر وجيوش العباسيين تتعقبه . ولقد أجمع المصريون على منع مروان من دخول مصر فاضطر إلى دخولها عنوة ، ولكنه كان قد قطعت به الأسباب فأدركه العباسيون في بوسير من أعمال الأشمونيين وقتلوه . ولو أن المصريين لم ينحرفوا عن الأمويين وقاموا في نصرتهم قياماً حسناً لتغير مجرى الحوادث في أغلب الظن تغيراً كبيراً .

* * *

لم يكد الأمر يستقر لبني العباس حتى دهمتهم ثورة عظيمة قام بها العلويون من بني الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقد رفع لواء الثورة بالحجاز سنة ١٤٤ محمد بن عبد الله الحسنى العلوى الملقب بالنفس الزكية ، وثار أخوه إبراهيم بن عبد الله بالعراق . وتفاقم الأمر واشتد الخطب على الخليفة المنصور وتجرده له تجرداً تاماً . وبثت الدعوة في مصر للعلويين

فاستجاب لها المصريون . وخاف المنصور اتصال الحركة العلوية المصرية بالحركة العلوية بالحجاز ، فأمر بطم خليج أمير المؤمنين الموصل بين النيل والبحر الأحمر . ولكن حركة العلويين بالحجاز والعراق باءت بالفشل وغلب الزعيمان العلويان على أمرهما وقتلا . عند ذلك انتهت الثورة العلوية في مصر (سنة ١٤٥) .

ولما وقعت الحرب بين الأخوين الأمين والمأمون انقسم المصريون حزبين أحدهما مشايخ للأمين والآخر للمأمون . ووقعت الحرب فعلا بين الحزبين ولم تنطفئ جذوتها في مصر إلا عندما بلغ المصريين مقتل الأمين سنة ١٩٨ . ولكن المصريين لم يلبثوا أن ثاروا بالمأمون وخلعوه عند ما بلغهم نبأ أخذه البيعة بولاية العهد للإمام على الرضا العلوى ، فلما بلغهم موت على الرضا وانخذهال إبراهيم بن المهدي الذي ادعى الخلافة في بغداد أخذوا إلى السكون .

بقى الحدث الأخير والخطير . لقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الموالي من عجم فارس وخراسان ، والواقع أن انتصار العباسيين على الأمويين كان انتصاراً للعجم على العرب وإذناً بذهاب نفوذ العرب السياسى ولا شك أن ذلك كان الحافز الأول لثورات العرب طوال العصر العباسى الأول في العراق والشام ومصر ، وإن اتخذت هذه الثورات صوراً شتى كما رأينا . ثم أتى الخليفة المعتمد فيكيل للنفوذ العربى الضربة القاضية . وذلك بعد أن تكامل له جيش تركى قوى ، فيسقط العرب من الديوان ، ويأمر بقطع عطاءهم . وكتب بذلك إلى عامله على مصر نصر بن عبد الله الملقب بكيدر ، فأنفذ كيدر أمر الخليفة . يقول الكندى : « ولما قطع العطاء خرج يحيى ابن الوزير الجروى في جمع من خلم وجذام وقال هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيأنا واستمع إليه نحو من خمسمائة رجل » . ولكن كل هذه الثورات إن كانت قد تمخضت عن شيء فإنما تمخضت عن تحول خطير فى وضع مصر السياسى . لقد شعر المصريون بقوتهم وتنبه وعيهم القومى ، فأخذوا يعملون على الاستقلال بشئونهم الداخلية على أقل تقدير ، والدليل على ذلك أن أسرة عربية مصرية تعرف بآل السرى بن الحكم تولت أمور مصر بإجماع جند مصر اثنتى عشرة سنة (من ٢٠٠ إلى ٢١١) فكان ذلك تمهيداً لاستقلال مصر فعلا عن الدولة العباسية وقيام الدولة الطولونية فى سنة ٢٥٤ هـ .

الحركة الفكرية :

لا شك أن الحركة الفكرية من أجل حوادث القرون الثلاثة الأولى من حياة الدولة الإسلامية ، وإنا لنستمتع بالتراث الضخم الذي خلفه لنا ذلك العصر الزاهر في ميدان العلوم والفنون والآداب الإسلامية ، نعم إن الحركة الفكرية ازدهرت في الشام والعراق بحكم أنهما كانا مقر الخلافة الأموية والعباسية . ولكن ينبغي ألا نغفل مصر نصيبها من هذه الحركة ، فالحق أن الفسطاط غدت بيئة علمية تذكركنا بالبصرة والكوفة ، وأصبح جامع عمرو أشبه بجامعة تدرس بها علما الحديث والفقه كما تدرس الآداب العربية .

أما الحديث فقد هبط مصر عدد كبير من أجلاء الصحابة الذين أدركوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشرفوا بصحبته والسماع منه ، فكانوا رواة لعدد كبير من الأحاديث روى عنهم ثم دون بعد ، من هؤلاء عمرو بن العاص وقد روى عنه أكثر من عشرين حديثاً ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، روى عنه أكثر من مائة حديث ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ورووا عنه ثمانية أحاديث ، وأبو أيوب الأنصاري ولهم عنه تسعة أحاديث ، وقيس بن سعد بن عباد ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ، ورووا عن كل منهما أحاديث غير معينة العدد ، وفضالة بن عبيد الأنصاري ، ولهم عنه نحو عشرين حديثاً ، وعقبة بن عامر الجني الذي تولى إمرة مصر ولهم عنه نحو مائة حديث . ويعني ابن عبد الحكم في تاريخه بالنص على ما تفرد هؤلاء بروايته من الأحاديث وما شاركهم فيه غيرهم من محدثي الأقطار الأخرى ، وهو بحث علمي طريف . وبذلك أمهم المصريون في جمع سنة الرسول (ص) وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن ، فلما ابتدأ تدوين الحديث النبوي بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت الرواية المصرية ذات محل بارز في كتب الحديث التي ظهرت ابتداء من القرن الثاني الهجري .

والقرآن والحديث هما مادة الفقه الإسلامي الأساسية ، ولا شك أن اشتغال المصريين بهما كان مؤدياً لاهمالة إلى اشتغالهم بالفقه ، فإذا تذكركنا أن نظاماً محكماً للقضاء قد قام في مصر الإسلامية من أول الأمر ، وأن القضاء كان لا يتولاه في الصدر الأول إلا الراسخون في العلم بالكتاب والسنة والقادرون على الاجتهاد والاستنباط ، فقد تبين لنا أن وسائل الدراسة الفقهية قد

تكمملت وسائلها في مصر في زمن مبكر لا يكاد يعدو أوائل القرن الثاني ، وذلك مستفاد من ظهور طائفة كبيرة من أئمة الفقهاء الذين رفعوا دراسة الفقه مكانا عليا . نخص منهم بالذكر « الإمام الليث بن سعد » المتوفى سنة ١٧٥ ، وكان فقيه مصر وعالمها ، ولد بقلقشندة ، وكان له اتصال بالإمام مالك ، يكاثبه في مسائل التشريع ويحاجه ، ولقد عرض عليه الخليفة المنصور ولاية مصر فأبأها . ثم « أبا محمد عبد الله بن وهب » المتوفى سنة ١٩٧ وقد شهد له الإمام مالك ، وكان يكتب إليه « إلى فقيه مصر... » ثم « الإمام الشافعي » المتوفى سنة ٢٠٤ ولد بنزلة من أرض الشام وتنقل في الأفطار الإسلامية ، واتي الإمام مالكا ، وأخذ عنه « الموطأ » ورحل إلى العراق غير مرة ، ودون مذهبه هناك ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٩٩ واستقر بها ، وفيها كملت مواهبه الفقهية ، وأمل على تلاميذه بجامع الفسطاط كتبه الجديدة التي يعبر عنها « بالقول الجديد » ويجمعها « كتاب الأم » ، وهو المذهب الذي أداه إليه اجتهاده في مصر .

ثم « أبا محمد عبد الله بن عبد الحكم » المتوفى سنة ٢١٤ وقد بلغ هو وابناه محمد وعبد الرحمن صاحب « كتاب فتوح مصر » منزلة عالية في العلم والجاه ، وكان صديقا للشافعي وعليه نزل الشافعي حين جاء مصر فأكرم مشواه وبلغ الغاية في إكرامه . ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أن محمد بن جرير الطبري ، شيخ المؤرخين والمفسرين وفد على مصر مرتين في سنتي ٢٥٣ و ٢٥٦ وكتب عن علماء الفسطاط ، وجرت له فيها نوادر ذكرها ياقوت في ترجمته .

ولقد كان موقف علماء مصر من مسألة القول بخلق القرآن مشرفا لهم . فقد امتنعوا عن متابعة المأمون والمعتمد والواثق في القول بخلق القرآن ولقوا من جراء ذلك العزل والحبس والتشهير ، ولكنهم احتملوا كل ذلك في صبر وإباء حتى أنجابت الغمة بمجيء المتوكل وأبطاله امتحان الفقهاء والعلماء في مسألة القول بخلق القرآن .

ذلك مبلغ تقدم العلوم الشرعية في مصر حتى الثلث الأول من القرن الثالث الهجري وهو تقدم لا شك عظيم . ومشاركة من مصر في تحرير علوم الحديث والفقه نذكر لهم بمزيد الإعجاب .

أما الحركة الأدبية فلم تبلغ في مصر مبلغ العلوم الشرعية إلا أن مصر أنجبت شعراء

بلغاء لم تصل إلينا دواوينهم كاملة للأسف أمثال مُعلّى الطائي ، وسعيد بن غفير ثم أنها اجتذبت إليها طائفة من كبار شعراء العراق أمثال ابن قيس الرقيات وأبي نواس ، ولا ننسى أن الشاعر المبدع أبا تمام الطائي نشأ وتأدب في جامعة الفسطاط .

ذلك مبلغ ما أسهمت به مصر في الأحداث العامة في الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن الثالث ، ومنه نتبين أن مصر شاركت في كل مناحي الحياة العامة من حيث الفتوح الحربية والحوادث السياسية ، والحركة الفكرية ، وكان ذلك مما أبرز شخصيتها وكشف عن جلالة قدرها وخطرها وهياً لها السبيل إلى أن تصبح بعد في العصر العباسي الثاني دولة إسلامية قوية أثرت في التاريخ الإسلامي بل في التاريخ العام أبلغ الآثار . وموعداً لبيان ذلك بحث آخر ومقام آخر إن شاء الله .

القسم الثانى

المغرب والأندلس

موسى بن نصير

١٩ - ٩٨ هـ

هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس ، وناشر الإسلام واللغة العربية فيهما والممهد لقيام الحضارة الإسلامية في هذين القطرين العظيمين .
وشخصية موسى بن نصير يحفها الغموض من كثير من نواحيها ، كما أن سيرته تفاولها القصص فأحالوها قصة للخيال منها حظ غير قليل ، ولكننا نقصر حديثنا على الثابت المستيقن من أخباره .

كان أبوه نصير من قبيلة بكر بن وائل الربيعة العراقية ، أسره خالد بن الوليد في وقعة عين التمر سنة ١٢ مع فتيان آخرين كانوا في بيعة يتعلمون الإنجيل ، والظاهر أن نصيرا أسلم غداة الأسر ، ثم انتقل إلى الحجاز ودخل في قبيلة لخم اليمنية ، وتزوج منها امرأة رزق منها ابنه موسى في سنة ١٩ هـ في خلافة عمر بن الخطاب . ثم نجد نصيرا بعد في الشام على خيل معاوية ، فلما عزم معاوية على الخروج لحرب على بن أبي طالب لم يخرج معه نصير تخرجاً ، وقبل معاوية عذره ، ولم يكرهه على الخروج معه .

عاصر موسى في صباه أحداثاً جساماً ، منها مقتل الخليفة عثمان ، والحرب بين علي ومعاوية ، وثورة آل الزبير . وكان في موسى طموح وتطلع إلى المجد شديد ، فلم يجر على سعة أبيه من البعد عن السياسة ومحرجاتها ، بل خاض غمارها ، فأخذ جانب عبد الله بن الزبير ، واشترك في وقعة المريج بالشام سنة ٦٤ ولما انتهت تلك الوقعة الكبيرة بهزيمة أنصار ابن الزبير وانحصار مروان الأموي وحزبه ، كان موسى من بين الذين أراد مروان ضرب أعناقهم من أنصار ابن الزبير ، ولكن موسى استجار بعبد العزيز بن مروان فشفع فيه لدى أبيه لما رأى من عقل موسى ولبه ، وقبل أبوه شفاعته . وأصبح موسى من ذلك

الوقت حتى آخر حياته من أشد أنصار الأمويين إخلاصا لهم ولدولتهم .

ويتولى الخلافة بعد مروان ابنه عبد الملك ، فيظهر موسى على مسرح الحوادث مرة أخرى ، ولكن في العراق لا في الشام ، وفي البصرة بالذات . فقد تدخل أول الأمر في المنافسات الحزبية الناشبة إذ ذاك بالبصرة ، مما يدل على أنه أصبح شخصية ملحوظة وذات اعتبار خاص ، ثم يوليه الخليفة خراج البصرة فيتهم بأنه احتجج مالا من مال الدولة وتشتمد عليه وطأة الحجاج أمير العراق بإيعاز من الخليفة ، ولا ندرى مبلغ هذه التهمة من الصحة فلعلها راجعة إلى الحزازات الحزبية الفاشية إذ ذاك في العراق . ومهما يكن من الأمر فقد فر موسى إلى مصر واحتفى مرة أخرى بعبد العزيز بن مروان . ويخف الأمير إلى الخليفة ومعه موسى ، وتسوى المسألة بأن يحمل الأمير عن موسى نصف المال المطلوب ، ثم يعود إلى مصر ومعه صاحبه .

في ذلك الوقت ، أى في أواخر العقد الثامن من القرن الأول الهجرى ، اضطربت أحوال المغرب وانتقضت البربر وفسدت أمور ذلك الأقليم ، هذا إلى أن المغرب الأقصى لم يكن قد فتح بعد . فرأى عبد العزيز بن مروان ، وكان إليه أمر المغرب ، أن ليس لإصلاح هذه الحال غير موسى بن نصير فولاه عليه ولاية عامة في سنة ٧٩ هـ على أرجح الأقوال ، وبذلك الولاية شرع موسى يخطط صفحة مجده وفخاره الباقي على الزمان .

كان موسى إذ ذاك قد استحكمت سنه ، ونضجت مواهبه ، وتمت تجاربه ، فأقبل على عمله الضخم بهمة عظيمة ، وعزيمة متقدة ، مستعيناً في جميع أمره بأبنائه النجباء عبد الله وعبد العزيز ومروان ، وبرجال من البربر اصطفاهم واصطفعتهم بصلة الولاء أمثال طارق بن زياد وطريف ابن مالك . فقمع فتنة البربر في شيء من العنف والشدّة ، ثم استألمهم بعد إلى الإسلام فأسلموا وتكلموا العربية ، ثم حمل بهم وبالعرب على المغرب الأقصى ففتحه ونشر فيه الإسلام واللغة العربية ، وخلط البربر بالعرب وعاملهم جميعا معاملة واحدة ، وهى سياسة حكيمة لم تكن إذ ذاك متبعة في المشرق . وبذلك أصبح تحت يده قوة عظيمة جعلته يمد عينيه إلى

ما وراء خليج الزقاق ، إلى إسبانيا . ولكنه يرى أن الفرصة في أمر إسبانيا لم تسنح بعد ، فيترك أمرها مؤقتاً ويعود إلى مقر إمارته بالقيروان ، تاركاً مولاه طارق بن زياد في طنجة ومعه حامية قوية ليرقب الأحوال وينهى إليه ما عسى أن يكون من تطور الأمور .

كانت إسبانيا إذ ذاك تحت حكم القوط ، وكانت في حال اضطراب سياسي وانحلال عام . يتنازع الملك فيها فريقان ، فريق يمثل الأسرة المالكة الشرعية وعلى رأسه رجل يقال له يليان وفريق آخر يمثل « لذريق » الذي اغتصب الملك اغتصاباً . فلجأ ممثلو الفريق الأول إلى طارق يلتمسون منه النصرة ، ويهونون عليه أمر الأندلس ، فأحاطهم طارق على مولاه موسى ، فأدرك موسى أن الفرصة في أمر إسبانيا قد أمكنت ، وكتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في غزو إسبانيا ، فجاءه الرد بالإذن على أن يلتزم الحيلة والاحتراش الشديد .

وعمل موسى بما أشار به الخليفة ، فاختر السواحل الإسبانية بالسرايا ، سرية إثر سرية فجاءت نتيجة اختباره مشجعة له على الشروع في الغزو ، فسير طارقاً على رأس جيش قوى أكثره من البربر وأقله من العرب ، فنزل طارق بالصخرة التي عرفت بعد « بجبل طارق » ثم تقدم غرباً والتقى بلذريق في وقعة البحيرة في رمضان سنة ٩٢ ، فهزم لذريق ويقتل فيما يقال وينتصر طارق انتصاراً حاسماً ، ثم يزحف طارق من فوره نحو طليطلة عاصمة الدولة القوطية فيدخلها عنوة .

عند ذلك يرى موسى أن قد آن أن ينهض بنفسه لإنمام ما شرع فيه من الفتح وليتفادى ما عسى أن يحل بطارق وجيشه بعد أن أوغل في أرض العدو . فركب البحر في سنة ٩٣ في أسطول كان قد أخذ في إعداده عند تسييره طارقاً وسلك طريقاً غير الطريق التي سلكها طارق ، وفتح مدناً عظماً ثم التقى بطارق في طليطلة ، ثم سار ومعه طارق يفتح الأقاليم الشمالية الشرقية حتى بلغ جبال البرانس الحاجزة بين إسبانيا وفرنسا .

والعجيب من أمر موسى ، وهو شيخ قد أربى على السبعين ، أن يهم بأن يعبر جبال

البرانس ويسير مشرقاً فاتحاً كل ما يعترضه حتى يستولى على القسطنطينية ويأتى دار الخلافة بالشام .

ويبلغ هذا الحلم مسامع الخليفة ، فيرى فيه بطبيعة الحال إسرافاً وتغريراً ، فيستدعى الفاتحين موسى وطارقاً من فوره إلى الشام . فلا يسمع موسى إلا أن يصدع بالأمر فيخرج سنة ٩٥ قاصداً الشام ، ومعه من الغنائم والسبي والأسرى ما لم يسمع بمثله فى تاريخ الفتوح العربية .

كان من حق هذا الفاتح المظفر والشيخ الكبير أن ينعم فى البقية الباقية من عمره بنعمة الراحة والدعة ، ولكن أبت عليه الأقدار ذلك . قالوا : إنه لما بلغ موسى فى طريق عودته فلسطين كان الخليفة مريضاً مرض موته ، فكتب إليه ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه عدم العجلة فى السير حتى يتوفى الخليفة ، فتصير إليه الأموال التى مع موسى . ولكن موسى أسرع السير وقدم على الخليفة قبل وفاته بثلاثة أيام . فلما تولى سليمان الخلافة أراد الانتقام من موسى لعصيانه أمره ، فأقبل يحاسبه حساباً عسيراً وطالبه بأموال جسام عجز موسى عن أدائها فجعل يعذبه ، ثم إن موسى استجار بيزيد بن المهلب وكان أثيراً لدى الخليفة الجديد ، وسوى الأمر بأن أفتدى موسى نفسه بمال عظيم يؤديه ما عاش . وظل موسى يستعين قومه من لخم وأحياء العرب على أداء ما التزم به حتى أدركه الموت فى وادى القرى سنة ٩٨ هـ . ولقد عدت نكبة موسى هذه من سيئات الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وكانت فى الحق كثيرة .

هذا هو الجانب الأعم والأشهر من سيرة البطل الفاتح موسى بن نصير . غير أن لهذه السيرة جانباً آخر لا يقل طرافة عما ذكرنا . فالرواية تصف موسى بالعقل والورع والتقوى والشجاعة ، وبأنه لم يهزم له جيش قط ، وتصفه ببلاغة العبارة والقدرة على قول الشعر الحسن وبالإحاطة بالمعارف السلطانية من حرب وإدارة وسياسية ، وتصفه فوق ذلك كله بأنه تابعى جليل روى الحديث عن تميم الدارى ورواه عنه هو آخرون . ولكن أسراً واحداً

هو سر نجاحه وعظمته ، ذلك حرصه على القيام بواجبه ، ففي سبيل الواجب قام بما قام به من الفتوح العظام ، وفي سبيل الواجب احتمل ما احتمل من الأذى والضرر .

قالوا : إن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى ، فقال له : « يا أبا عبد الرحمن ! في كم كنت تعتد ، أنت وأهل بيتك ، من الموالى والخدام ؟ أتكونون في ألف ؟ » فقال : نعم ! وألف ، ألف ، إلى منقطع النفس ! » قال : « فلم أقيت بنفسك إلى التهاكة ؟ أفلا أقت في قرار عزك ، وموضع سلطانك ؟ فقال : والله ! لو أردت ذلك ، لما نالوا من أطرافي شيئاً ! ولكني آثرت الله عز وجل ورسوله ، ولم أر الخروج عن الطاعة ! » .

أما بعد ، فقد يكون سليمان بن عبد الملك قد نال بطغيانه وجبروته من مال موسى وبدنه ، أما مجد موسى ، وعظمة موسى ، فلم يستطع سليمان بن عبد الملك أن ينال منهما منالاً ما

حديث

الفتية المغربيين من أهل لشبونة*

كان جغرافيو الأغريق يعتقدون أن الأرض المعمورة يحيط بها بحر عظيم سموه « أقيانوس » ، وقد تابعهم جغرافيو العرب في اعتقادهم هذا ، وأطلقوا على البحر الذي يحيط بالمعمورة أسماء مختلفة : منها البحر المحيط ، وبحر الظلمات ، والبحر الأخضر ؛ كما قسموه باعتبار الجهات الأربع إلى محيطات أربعة : شمالي وجنوبي وشرقي وغربي . والمحيط الغربي هو الذي تسميه الجغرافيا الحديثة بالمحيط الأطلسي أو الأطلنطي .

لم يجرؤ من القدماء على النفوذ إلى المحيط الغربي والإيغال فيه إلا الفينيقيون أهل مدينة صور ، وإلا أعقابهم القرطاجنيون أهل قرطجنة ، فهم الذين نفذوا إليه ، وركبوا ثبجه ، ولججوا فيه شمالا حتى الجزائر البريطانية ، وجنوبا حتى منعطف خليج غانة العظيم ، والملاح القرطاجني (هنو) القدح الممل في كثير من هذه الأسفار البحرية العظيمة .

ولكى يحتكر الفينيقيون هذا البحر ، ويستأثروا بخيرات جزائره وسواحله الأوربية والأفريقية ، ويمنعوا الأغريق من منافستهم فيها ، ملأوا أسباع الناس واسترهبوهم بأباطيل لفقوها عن هذا البحر وأذاعوها ، فقد صوروه بجرأ عظيم الأهوال عاتى الرياح ، يركبه ظلام حالك ، وتسبح فيه كائنات منكرة الأشكال ، وتعمر جزائره التنانين والأغوال والسعالى ، وتستقر في جوفه براكين تقذف بالنار والحلم والدخان ، وأنه نهاية المعمور ومنقطعه ، وأنه ليس فيه ولا وراءه مطعم لطامع .

ولقد عمل هذا التخويف والإرهاب عمله في ملاحى الأغريق وطلاب الاستعمار منهم ، فتحاموا ركوب هذا البحر الخوف ، وقصروا نشاطهم التجارى والاستعمارى على البحر

الأبيض المتوسط . على أن هذه الأراجيف لم تمنع الخيال الإغريقي من تناول هذا البحر والذهاب في تصوره كل مذهب . فلقد تغنى هوميروس بغروب الشمس في لجة هذا المحيط ، كما قرر أفلاطون في بعض حوارياته أنه كان في هذا المحيط الغربي جزيرة عظيمة تسمى « أطلنطة » ، وأنه كان بها دولة عظيمة غزت أراضي البحر الأبيض المتوسط ، ولم يثبت لها إلا أهل أثينا ، وأن هذه الدولة كانت ذات نظام جمهوري مثالي ، ثم يقول الفيلسوف : إن هذه الجزيرة انقضى أمرها بأن طغى عليها البحر فأغرقها ، ولم يبق منها إلا جزائر صغار ترى فوق سطح المحيط .

والواقع أن المحيط الأطلسي ظل لغزاً غامضاً يستثير أعجب الأخيلة وأغرب التصورات ، إلى أن تمكن العرب في القرن الثالث الهجري من أرض المغرب الأقصى والأندلس ، وأصبحوا فعلاً مشرفين على هذا الخضم العظيم ، وأنشأوا فيه الأساطيل الجارية لرد عادة أهل الشمال عن سواحلهم ؛ وعندئذ نجدهم يقدمون على ركوب البحر المحيط في غير ما خوف ولا وجل ، ويعرفون الشيء الكثير عن سواحله وجزائره ، ويصفون كل ذلك وصفاً لا بأس به في جملته .

ومن أعجب ما يروى عن عرب الأندلس في هذا الصدد حديث فتية من مدينة لشبونة ، ومن أهل القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي ، شاقهم الجهول من أمر المحيط الغربي ، فأحبوا أن يقفوا على مداه ، ويحلو الغامض من أسرارها ، فقاموا برحلة بحرية وعادوا منها بعد أهوال رأوها ، وقصوا حديث رحلتهم على أهل بلدهم .

ولقد أورد الشريف الإدريسي خلاصة حديثهم في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، قال :

« ومن مدينة لشبونة كان خروج المغربين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه ، وإلى أين انتهأؤه . . . ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغربين إلى آخر الأبد ، وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حمالاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول طاروس

الريح الشرقية (أى هبوبها ؟) ، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ
الموج كددر الروائح كثير التروث (الصخور التى لا يكاد يسترها الماء) قليل الضوء ، فأيقنوا
بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوماً ،
فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى
لها ، ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة ، فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية ، وعليها شجرة
تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم . فذبحوها ، فوجدوا لحومها مصرة لا يقدر أحد على أكلها ،
فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوماً ، إلى أن لاحت لهم جزيرة ،
فنظروا فيها إلى عمارة وحرث ، فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حتى أحيط
بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحلوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى
دار ، فرأوا بها رجالا شقراً زعروا شعور رؤوسهم ، شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ،
ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فيها فى بيت ثلاثة أيام ؛ ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل
يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم وفيهم جاءوا ، وأين بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ،
فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا
بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من
أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك
ضحك وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا
فى عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى .
ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا إلى
موضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الريح الغربية ؛ فعمر بهم زورق وعصبت أعينهم ، وجرى
بهم فى البحر برهة من الدهر ، قال القوم قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جىء
بنا إلى البر فأخرجنا ، وكتفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت
الشمس ، ونحن فى ضحك وسوء حال من شدة السكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس
فصحننا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فخلونا من وثاقنا وسألونا ،
فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدهم ؟ فقلنا : لا ،
فقال : إن بينكم وبين بلدهم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : واأسفى ! فسمى المكان

إلى اليوم « أسفى » وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب .

ويتم الإدريسى حديث هؤلاء الفتيّة فى موضع آخر من كتابه عند ذكر جزائر المحيط الأطلسى فيقول : « وفى هذا البحر أيضاً جزيرة الأخوين الساحرين اللذين يسمى أحدهما شرهام ؛ والثانى شرام . ويقال إنهما كانا بهذه الجزيرة يقطعان على المراكب التى تمر بهما بظلمهما ، ويهلكان جميع أهلها ويأخذان أموالهم ، فسخ الله بهما بظلمهما ، وبقيتا حجرين على ضفة البحر قائمين ، ثم عمرت هذه الجزيرة بالناس ، وهى تقابل مرسى أسفى ولهذا الجزيرة قصة غريبة أخبر عنها المغررون من أهل مدينة لشبونة بالأندلس حين أسقطوا إليها بمركبهم » .

ويؤخذ من سياق كلام الإدريسى أن هؤلاء الفتيّة كُتبت لهم السلامة وعادوا إلى بلدهم ، وحدثوا أهل لشبونة بما رأوا وعانوا فى رحلتهم ؛ ولكن أهل لشبونة لم يروا فى هؤلاء الفتيّة بعد كل الذى سمعوه منهم إلا رجلا مغررين مخاطرين ، وسموا الدرب الذى فيه دورهم بدرب المغررين .

* * *

ومهما يكن رأى أهل لشبونة فى هؤلاء الفتيّة ورحلتهم ، فإن ما قاموا به طريف حقاً ، ورحلتهم هى الأولى من نوعها بعد رحلات الفينيقيين القدماء . ومعالم قصتهم صحيحة صادقة من الوجهة العلمية . فالظاهر أنهم عندما ساروا أول الأمر أحد عشر يوماً متجهين شمالاً إنما أصبحوا فى محاذة إرلندة ، فلما ساروا بعد ذلك نحو الجنوب اثنتى عشر يوماً وبلغوا الجزيرة التى سموها جزيرة الغنم ، إنما بلغوا الجزيرة المسماة الآن بماديرا . ويذكر العلامة دافزاك نقلاً عن العالم الطبيعى برتلو أن بهذه الجزيرة كثيراً من العز تقيّات بنوع من عشب هذه الجزيرة هو السبب فى مرارة لحومها . أما جزيرة الأخوين الساحرين اللذين مسخا حجرين فهى الجزيرة التى تعرف الآن بجزيرة (لنسلوت) وبطرفها الشمالى صغرتان متقابلتان هما اللتان تحدث عنهما الفتيّة فى حديثهم ؛ وهذه الجزيرة هى فى أغلب الظن التى جرى للفتية مع ملكها الحديث الذى قصه الإدريسى .

وكما ذابت معلومات الفينيقيين والقرطاجنيين عن البحر المحيط وجزأره فى أوهام القدماء

من اليونان والرومان ، فكذلك ذابت معلومات هذه القصة في أوهام أوربي العصور الوسطى ، وظهر ذلك واضحاً في القرن الحادى عشر خاصة ، ولا أدل على ذلك من قصة رحلة منزعومة تضاف إلى راهب إارلندى يعرف بالقديس براندان .

كان هذا الراهب من أهل إارلندا ، وقد عاش في القرن السادس الميلادى ، وينسبون إليه أنه أراد أن يبلغ الجنة التى جعلها الله مباءة لصالحى القديسين ، والتى توهمها جزيرة من جزائر المحيط الأطلسى . فأعد سفينة شحنها بالزاد ، وركب فيها هو وسبعة عشر من أصحابه الرهبان ، ثم ضربوا بها فى عرض البحر ، فبلغوا جزيرة الغنم وجزيرة الطيور (لكثرة ما بها من طير الماء ، وقد وصفها الإدريسى) ، وعاینوا من العجائب والغرائب الشئ الكثير : من ذلك جزيرة جرداء طلّعوا إليها ، فلما أوقدوا بها ناراً لإصلاح طعامهم اهتزت بهم ، فأسرعوا إلى الفرار منها ، فإذا هى حوت عظيم راكد على سطح الماء . ومنها أنهم عاینوا طائراً هائلاً يخبطف الوحوش الكبار . ثم يعود الراهب وأصحابه من رحلتهم هذه إلى إارلندا ، ويقصون على قومهم ما رأوا وعاینوا .

ومع أن الراهب براندان من أهل القرن السادس الميلادى ، فإن قصة رحلته المذكورة لم تظهر إلا فى القرن الحادى عشر . وقد أبى من دونوا أخبار القديسين أن يسجلوا هذه القصة ، واعتبروها حديث خرافة ، والنواقع أن قصة الراهب الأارلندى ليست إلا قصة الفتية المغررين التى ذكرناها مع ما أضيف إليها من أخبار عجيبة أخذت من أسفار السندباد البحرى المشهورة فى قصص « ألف ليلة وليلة » ، وذلك كحكاية الحوت الذى ظنه الراهب جزيرة ، وحكاية الطائر الهائل الذى هو (الرخ) فى قصص السندباد .

* * *

أما بعد ، فقد جرى فى أوربا — فى القرن الماضى — جدل شديد بين المؤرخين ، مداره أى الشعوب الثلاثة أسبق إلى ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه : الجنويون أم الفرنسيون ، أم البرتغاليون ؟ ومن العجيب أنه لم يذكر من هؤلاء المؤرخين ذا كر أن هذه الشعوب الثلاثة قد سبقت إلى ركوب هذا المحيط لكشف غوامضه بمئات السنين ، وأن السابقين إلى ذلك كانوا أولئك « الفتيّة المغررين » من أهل لشبونة .

زرياب المغنى *

إذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفنى والاجتماعى ، فلا شك أن أنضر صفحة فى ذلك التاريخ المجيد وأعجبها قد تكون صفحة أبى الحسن على بن نافع المغنى المنقب بـ « زرياب » . فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة إلى حال الحضارة . وذلك بشيئين اثنين : تحبيب الموسيقى إليها ، وتنظيم حياتها اليومية .

فتيح المسلمون الأندلس فى العقد الأخير من القرن الأول الهجرى ، وانتشرت قبائلهم العربية والبربرية فى سهولها وحزونها ، ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثانى بداءة جفاة ، كلما اجتمعت كلمتهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الإحن والعداوات المنبعثة عن العصبية القبلية . فكأنهم لا يزالون ضاربين فى هضاب نجد وسهول تهامة ومفاوز إفريقية وشعابها . ثم أخذت شئونهم السياسية تستقر وتتسق بفضل مجهودات المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية : عبد الرحمن الداخل ، وهشام ، والحكم ، وعبد الرحمن الأوسط . أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه بداءة واضطرابا .

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الإسلامى فى ذلك الزمان ، فقد استبحر فيه العمران وبلغت المدنية الإسلامية فيه غايتها ، وتعلق فيه ذوو الدعة واليسار بأسباب الكمال من شئون الحياة بعد أن استكملوا الضرورى والحاجى منها على حد تعبير ابن خلدون . وقد ساعفهم فى ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً . فأما المعتدلون منهم فكانوا يستندون إلى أن الدين الإسلامى دين يسرىح من المؤمن أن يكون هيئنا لينا موفور الحظ من الظرف والكياسة ، غير فظ ولا غليظ القلب ، ولا ناس نصيبه من الدنيا . وأما المتطرفون فوجدوا فى تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويحرمون على لذة الحياة الدنيا ومتعها ، أيا كانت الطرق الموصلة إليها .

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة أرسقراطية ، مرهفة الأذواق ، رقيقة الطباع ، ترى في الموسيقى ومجالس الأنس والطرب وحفلات السمر خير ما ينفعون به غلة تلك الأذواق المزهفة والطباع المترفة . هذا هو السبب المباشر في تقدم صناعة الغناء في ذلك الزمان ، وبلوغها الغاية على أيدي إبراهيم بن المهدي ، وإبراهيم الموصلي ، وابنه إسحق . وهذا هو السبب كذلك في استفاضة مجالس الأنس والطرب لذلك العهد في مدن الشرق الإسلامي عامة وبغداد خاصة ، وفي بلوغ هذه المجالس درجة من التألق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء ، والجلساء ، والسمار .

من ذلك أن يكون الغناء قوامها ، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة ، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين ، وألا يحضرها إلا من كان مهذباً خفيف الروح ، حاضر البديهة ، قادراً على قول الشعر وارتجاله ، فضلاً عن تذوقه وروايته عند ما يقتضى المقام ذلك .

إلى هذا الشرق اتجه أمراء بني أمية الأندلسيون ، وهم أبناء خلايف دمشق ورساققتها ، يستهدونه فنانين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طباع العرب والبربر والمولدين ، وينظمونها جميعاً في نسق واحد . وقد أهدى المشرق إلى المغرب غير واحد من المغنين أمثال علون ، وزرقون . ولكن زريابا كان أعظم هؤلاء جميعاً وأبعدهم أثراً .

* * *

كان أبو الحسن علي بن نافع مولى للخليفة المهدي العباسي ، ولسمرة لونه ورقة شمائله لقبوه بزرياب ، تشبيهاً له بطائر أسود غرد يعرف عندهم بهذا الاسم . وقد تسكملت لزرياب كل أسباب النبوغ والتفوق موهوبها ومكسوبها ؛ فكان شديد الذكاء ، لطيف الحس ، عارفاً بالنجوم والأقاليم ، شاعراً فصيح الشعر . غير أنه كان إلى الغناء أميل وبه أشغف . وقد درسه علما في كتب الأقدمين من حكماء اليونان ، وعلماء على أستاذه إسحق الموصلي زعيم المغنين في ذلك الوقت ، ولشدة افتتان زرياب بالموسيقى كان تفكيره فيها لا يكاد ينقطع حتى أنه ليلهم « النوبة والصوت » وهو نائم فيهب من نومه مسرعاً ، ويقيد ما وقع له أو يلقيه على جاريته غزلان وهنييدة ، ثم يعود إلى مضجعه عجلاً ، ومن ثم قيل

لأنه كان يأخذ ألحانه عن الجن كما قيل في إبراهيم الموصلي نفسه . قالوا وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها . ولم يأل زرياب جهداً في أن يأخذ نفسه بالأدب الرفيع والسلوك العالى المصطلح عليه في البيئة التي كان يعيش فيها ببغداد ، بيئة البلاط وقصور الأمراء ورؤساء الدولة العباسية .

ويزكرون أن السبب في هجرة زرياب من المشرق إلى المغرب ، أنه غنى يوماً في حضرة هارون الرشيد ، فأخذ الخليفة بصناعاته وظرفه وطلب إلى إسحق أن يعنى به حتى يفرغ لسماعه . ولكن إسحق لم يلبث أن تحركت في نفسه عوامل الغيرة والحسد والحقد على تلميذه ، فخلا به وخيره بين الموت والحياة ، بين أن يقيم ببغداد فيعرض حياته للهلاك ومهجته للقتل ، وبين أن يذهب في أرض الله العريضة فينجو بحياته ، ووعد إذا هو اختار ثانى الأمرين أن يعينه على الرحيل بما شاء من المال وغير المال ، فاختر زرياب الرحيل عن المشرق بأسره ، ووفى له إسحق بما وعده به من المعونة .

وتذكره الرشيد بعد أن فرغ من شغله الذي كان منهمكا فيه ، وطلب إلى إسحق إحضاره فقال : « ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذلك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يعدله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقد التقصير به والتهوين لصناعاته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عنى ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمر المؤمنين ، فإنه كان به لم يغشاه ويفرط خبطه ، فينزاع من رآه » . يقول المقرئ « فسكن الرشيد إلى قول إسحق وقال : على ما كان به ! فقد فاندنا منه سرور كثير » .

خرج زرياب من بغداد يؤم المغرب ، فلما كان بأفريقية اتصل بصاحبها زيادة الله الأغلبى . ولكنه لم يطب له المقام بها ، فرحل عنها إلى المغرب الأقصى ، وهنا كتب إلى الحكم بن هشام ، أمير الأندلس المعروف بحبه للموسيقى ، يستأذنه في دخول الأندلس والصيرورة إليه ، فأذن له الأمير في ذلك من فوره . وعبر زرياب البحر إلى عدوة الأندلس

وبينا هو يتأهب للرحيل إلى قرطبة إذ سمع بوفاة الحكم ، فهم أن يعود أدراجه إلى المغرب لولا أن كتب إليه الأمير الجديد ، عبد الرحمن الأوسط ، يستقدمه ويعدده أن ينيله كل ما تصبو إليه نفسه من مال وجاه ، فقدم عليه زرياب . ويروون أن عبد الرحمن احتفل لمقدمه أعظم احتفال إذ خرج بنفسه من قرطبة لتلقيه . وما هو إلا أن سمع غناؤه وحديثه حتى شغف به ، فغمره بفضله وإنعامه ، وأجرى عليه من الرواتب والأرزاق الشيء الكثير ، حتى كان يركب بين يديه مائة مملوك . وقدمه الأمير على سائر المغنين ، وبلغ من شدة شغفه به أن جعل في قصره باباً خاصاً يستدعيه منه كلما أحب سماع غناؤه الرائع ، وحديثه العذب الطريف .

وقد لقي زرياب الجميل بالجميل ، وجرى على المعروف بالمعروف ، ولكنه قصد إلى ذلك من طريق غير مباشر ، قصد إليه من طريق النصيح والإخلاص للأندلس التي أصبحت له وطناً ، ولأهل الأندلس الذين أصبحوا قومه ومعه . فعكف على رفع مستوى الموسيقى الأندلسية ، وعلى النهوض بالمجتمع الأندلسي حتى يدانى المجتمع الشرقى ببغداد . وقد وفق فيما قصد إليه كل التوفيق .

* * *

يمكن القول بأن زرياباً نهض بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه ، وذلك بما أدخله على العود من إصلاح وتحسين ، وبما استن من طرق جديدة في إلقاء الغناء وتعليمه . فقد اتخذ لنفسه وهو بالمشرق عوداً جعله على الثالث من وزن العود القديم ، وصنع أوتاره من حرير لم يغسل بماء ساخن فأكسبها أنوثة ورخاوة ، واتخذ بمثلها ومثلها من مصران شبل أسد : « فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعارة بها ما ليس لغيرها » . فلما كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعة المقابلة للطبائع الأربع وترا خامسا يقوم مقام النفس من الجسد ، فاكسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة كما يروى للمقرى . واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدلا من صرهب الخشب ، « وذلك للطف قشر الريشة ونقاؤه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه » . أما من حيث إلقاء الغناء ، فقد رسم زرياب أن يبدأ في الإلقاء بالنشيد بأى نقر كان ، ثم يؤتى في أثره بالبسيط ، ويختتم

بالحركات والأهزاج . أما مذهبه في تعليم الغناء فيقول فيه المقرئ : « وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالتعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لينة أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت فلا يحذ متسعاً في الجوف عند الخروج على النغم ، فإن كان ألس الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبيتها في فمه ليالى حتى ينفرج فكاه . وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حجام ! أو يصيح آه ! ويمد بها صوته ، فإن سمع صوته بها صافياً ، ندياً ، قوياً ، مؤدياً ، لا تعثره غنة ، ولا حبسة ، ولا ضيق نفس ، عرف أن سوف ينبج ، وأشار بتعليمه ، وإن وجده خلاف ذلك أبعده » . هذه العبارة تشير في صراحة إلى أن زرياباً أنشأ بالأندلس في أوائل القرن الثالث الهجرى ما يصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهداً لتعليم الموسيقى .

ولم يكن زرياب أقل ابتكاراً في شئون الحياة اليومية منه في مجال الموسيقى والفن ، وهذا محل العجب من سيرته . فقد ابتكر لأهل الأندلس ألواناً من الطعام استطابوها ونسبوا بعضها إليه ، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلا من آنية المعدن . وهو أول من اجتنى لهم البقلة الشهية المعروفة بالهلبيون وكانوا لا يعرفونها من قبل ، وعلمهم أن يبسطوا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية فذلك أنظف لها وآنى لمنظرها ، وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة الأربعة ، فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقيل الملون شتاء ، ولقنهم إلى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل ، كما علمهم كيف ينظمون شعورهم ، تصفيفاً ، وتدويراً ، وإرسالا .

* * *

لا ندرى بالدقة متى توفي زرياب . والغالب أن وفاته كانت في إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وكما رزق زرياب الحظوة عند أهل الأندلس في حياته فقد رزقتها ذكراه عندهم بعد مماته . ذلك بأن مذهبه في الغناء ومارسهم لهم من أسلوب المديشة ظل باقياً متوارثاً فيهم حتى آخر أيامهم . فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من

تبقى من أهلها إلى بلدان إفريقية الشمالية انتقل إليها بانتقالهم مقدار غير قليل من صناعة زرياب وآدابه . يقول ابن خلدون عند ذكره زريابا « فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطما منها بأشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب حضارتها إلى بلاد العدو بأفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صباغة على تراجع عمرانها وتناقص دولها » .

ويقول المقرئ « وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف ، وفنون الآداب ، ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده أحد من أهل صناعته حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيهما سنفه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به » .

* * *

أما بعد ، فقد كان أهل رومية القديمة على عهد نبيرون يلقبون سرياً من سراتهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق ، لأنه كان عندهم مضرب المثل في ذلك .

أما أهل الأندلس فقد وصفو زريابا بأنه « معلم الناس المروءة » والمروءة عندهم كالإنسانية ، وهو لا شك أجمل أوصافه ، وأحقها بأن يحفظه عليه التاريخ ويذكره به .

حكيم الأندلس

عباس بن فرناس (*)

بما يوصف به العقل اليوناني القديم أنه عقل لطيف ، نفاذ ، بجاث ، شكاك ، غواص على حقائق الأشياء ، حريص على الوصول إلى أسرار هذا الوجود ونواميسه التي يقوم عليها نظامه ، معنى بفهم قوى الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الإنسان .

بهذه الخصائص العقلية بلغ الأغريق القدماء ما بلغوا من تقدم في أنواع المعرفة على اختلافها ، وأصبحوا المثل الأعلى في البحث العلمي الصحيح .

ومن الشخصيات العلمية الإسلامية التي يصح أن توصف بما يوصف به الأقدمون من علماء الأغريق من حيث الشغف بالبحث العلمي ، والمخاطرة في سبيل ذلك إلى أبعد حدود المخاطرة ، رجل أندلسي من أهل القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي ، اسمه عباس بن فرناس ، ويلقب بحكيم الأندلس .

وقد فسر اللغويون الحكمة بأنها عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وسموا من يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيماً ، ولكن الخوارزمي في كتابه « مفاتيح العلوم » يقول عند كلامه على الكيمياء : « والمحققون لهذه الصناعة يسمونها الحكمة على الإطلاق » . ولعل وصف عباس بن فرناس بالحكمة إنما جاء من اشتغاله بالكيمياء كما سترى ، فلقب بالحكيم كما لقب من قبله خالد بن يزيد بن معاوية بحكيم بنى أمية ، وذلك لبصره بالكيمياء خاصة .

* * *

كان أبو القاسم عباس بن فرناس من مولدى الأندلس ، أى إسباني الأصل ، وقيل بل كان من أصل بربرى ، أى أفريقي الأصل . وكان من موالى بنى أمية ، وكان أهله من

كورة تاكرنا الأندلسية . ثم انتقل إلى قرطبة ، وسكن منها الر بض الغربي . والظاهر أن ذلك كان في أوائل القرن الثالث ؛ وقد عاصر ثلاثة من أمراء الأندلس : الحكم الر بضى ، وابنه عبد الرحمن الأوسط ، وحفيده محمد بن عبد الرحمن (١٨٠ — ٢٧٣ هـ) واتصل بهم جميعاً وحسنت مكانته عندهم .

وفي هذا العصر اشتد إقبال المسلمين على علوم اليونان إلى درجة لم تعهد من قبل ولا من بعد ، فنقلت إلى اللغة العربية أمهات كتب الأغريق والسكندريين فى الفلسفة والطب والرياضيات والطبيعات . وناصر الخلفاء والملوك وأعيان المسلمين هذه الحركة العظيمة أيماً مناصرة ، وكان الخليفة المأمون زعيم أنصارها بالشرق ، كما كان الأمير محمد بن عبد الرحمن زعيمهم بالأندلس .

وإذا فقد نشأ أبو القاسم عباس بن فرناس فى جو مشبع بالروح الأغريقى ، وكان على حظ من صفاء الذهن ، ودقة الملاحظة ، وحب البحث العلمى ، والتوفر عليه دون سواء ، فلم يلبث أن هضم ما وصل إلى يده من تأليف الأغريق على كثرته ، واستطاع فى قليل من الزمن أن يرد ما هضم اختراعات وابتداعات تشرف عالم العصر الحديث فضلاً عن العصر الوسيط .

ويعد المؤرخون لعباس بن فرناس أموراً فى العلم كان أولاً فيها ، وأموراً لم يسبق إليها فى الأندلس على أقل تقدير . من ذلك أنه أول من فهم كتاب العروض للخليل بن أحمد وحل رموزه ، وعنه أخذه الناس فى الأندلس . قالوا : « أدخل بعض التجار كتاب « المثال » فى العروض للخليل ، فصار إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ولم يبن عليه ولا على أصحابه ولا فهموه ، وصار الكتاب مطروحاً فى داخل القصر يتلقى به الجوارى ، حتى إن بعضاً ليقول لبعض : صير الله عقلك كهقل هذا الذى ملأ كتابه من مفاعيلن ، مفاعيلن ؛ وبلغ خبره ابن فرناس ، فكتب إلى الأمير يسأله إخراج الكتاب إليه ، ففعل . ونظر فيه بحذقه فانفتح عليه وأدرك علم العروض منه ، وقال بفضل نظره إن هذا الكتاب يدل على أن ما قبله يفسره . فأرسل الأمير عبد الرحمن إلى المشرق يطلب تمامه فجاء إليه بكتاب « الفرش » فاستكمل به عباس نظره وفتحه على الناس ، وكان أول من

أخذ عنه علم العروض في الأندلس . ووصله الأمير عبد الرحمن على ذلك بثلاثمائة دينار وكساه .

وقالوا إنه أول من فك الموسيقى بالأندلس . ولا شك أن المراد بذلك أنه اهتدى إلى حل رموز كتاب يوناني قديم في الموسيقى ، على نحو ما صنع بكتاب العروض الآنف الذكر .

* * *

على أن مكانة عباس بن فرناس العلمية إنما تقوم على تمكنه من علوم الحكمة الرياضية والطبيعية . والحكمة الرياضية تشمل عندهم علم العدد ، والهندسة ، والهيئة ؛ ومن أدلة براعيته في هذه العلوم أنه صنع في بيته كهيئة السماء ، ركبها على منهاج الحكمة ، ومثل فيها أفلاكها ، وأقام فيها آلات تخيل إلى الناظر فيها أنها نجوم وغيوم ، وبروق ورعود ، وأراها كثيراً من عيون الناس مفتخراً عليهم بحكمته ؛ فذاع ذكرها في الناس وكثر حديثهم عنها ، من بين مطر له من عليه ، أو مزدر لعمله مستهزئ به .

وطلب إليه الأمير عبد الرحمن عمل آلة لرصد حركات الكواكب والنجوم تسمى عندهم « ذات الحلق » . ويقول أستاذنا العلامة المرحوم كرولنلينو : إن هذه الآلة مذكورة في كتاب الجسطى لبطليموس وفي كتاب ألفه برقلوس اليوناني أحد علماء القرن الخامس الميلادي ، وإنها تشتمل على سبع حلقات معدنية متحركة متداخلة ، ويقاس بها ما يقاس بالأسطرلاب المسطح ، وأنها تسمى بالفرنسية sphère armillaire . وقد عملها عباس بن فرناس ورفعها للأمير عبد الرحمن ، وبعث معها بهذه الأبيات :

قد تم ما حملتني من آلة أعياء الفلاسفة الجهابذ دوني
لو كان بطليموس ألهم صنعه لم يشتغل بجدول القانون
فإذا رآته الشمس في آفاقها بعثت إليه بنورها الموزون
ومنازل القمر التي حجبت معاً دون العيون بكل طالع حين
يمدون فيه بالنهار ، كما بدت بالليل في ظلماتهن الجون
وكلفه الأمير محمد عمل آلة لمعرفة الأوقات ، فعمل له آلة تعرف بها الأوقات بالليل والنهار بغير رسم ولا مثال ، وتسمى « المنقالة » ، ورفعها إليه وقد نقش عليها هذه الأبيات على لسان حال تلك الآلة :

ألا إنني للدين خير أداة إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهار ولم تبين كواكب ليل حالك الظلمات
بيمن إمام المسلمين محمد تجلت بي الأوقات للصلوات

وكما اشتغل عباس بن فرناس بعلوم الحكمة الرياضية فكذلك اشتغل بعلوم الحكمة الطبيعية . فهو أول من استخرج الزجاج من الحجر بالأندلس . واشتغل بالكيمياء ، وكان على حد تعبيرهم صاحب « نيرانجيات » . والنيرانجيات لفظ فارسي الأصل ، وفسروها بأن الغرض منها تمزيج القوى التي في جواهر العالم الأرضي لتحدث عنها قوة يصدر عنها فعل غريب .

ولكن لا شك في أن أكبر مظهر لحكمة ابن فرناس وجراته العلمية أنه حاول تطيير جثمائه فكان — إذا صح ذلك — أول طيار نعله في التاريخ . قالوا إنه كسا نفسه بريش قشاعم النسر على سرق الحرير ، ومد لنفسه جناحين على وزن وتقدير قدره فتهاى له أن استطار في الجو من ناحية الرصافة بقرطبة ، واستقل في الهواء ومكث فيه حتى وقع في مكان مطاره على مسافة بعيدة . وقد تأذى بذلك مؤخره لأنه لم يحسن الاحتيال لوقوعه ، ولم يقدر أن الطائر إنما يقع على زمكائه أى ذنبه ، فسها عن ذلك ولم يتخذ لنفسه ذنباً . وقد أفزع من رأى طيرانه من أهل الصحراء ، فكثر حديثهم عما عاينوا منه ؛ من ذلك قول مؤمن ابن سعيد ، وكان مغربى بهجو ابن فرناس :

يَظُم على العنقاء في طيرانها إذا ما كسا جثمائه ريش قشعم

* * *

ولما كثرت أعاجيب ابن فرناس ، وتعددت ابتداعاته جرى له ما يجري لكل مبتدع يفتجأ الناس بما لم يألفوا ، فكان الخاصة يغمزونهم ويرمونهم بالحق والسخف ؛ من ذلك قول مؤمن بن سعيد في هيئة السماء التي أحدثها عباس في داره :

قعدت تحت سماء لابن فرناس فخلت أن رحي دارت على رأسي
سماء أنوك سواها وحفها بحية ذات أنياب وأضراس
لها نجوم تنبي أن خالقها إذا نظرت إليها أحق الناس

يمسى ويصبح من شغل بصنعتها نبىّ همّ وتفكير ووسواس
كان الجدير بأن يرقى إليه بها راق فيدحو بها منه على الراس
وقد كان ابن فرناس كتب إليه مهازلا :

دب لسمائى يا خلق خالقها واستشعر الخوف من صواعقها
فرد عليه ابن سعيد بأبيات من نفس الوزن والروى أخش فيها .

أما العامة فكان سخطها أشد وأذاها أبلغ . فقد رمته بالزندقة والسحر والسكران ، وطعنت
في دينه ؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كتب بعضهم وثيقة بزندقته ورفعها إلى قاضى
الجماعة بقرطبة ، وشهد عليه بعضهم بأنه سمعه يقول مفاعيلن ، مفاعيلن ؛ كما شهد آخر بأنه
رأى الدم يفور من قناة داره ليلة كذا ، إلى دعاوى من هذا القبيل . وكان القاضى رجلا
حصيف العقل ، فنظر فيما اتهم به ابن فرناس نظرة تحقيق وتعقل ، واستشار فقهاء قرطبة
في الأمر ، فلم يجد بعد كل ذلك سبيلا إلى عقابه ، وأفلت ابن فرناس بجريرة الذقن
كما يقولون .

ولعمري إن العامة لمعدورة إذا هي نفرت من رجل عجيب جاء قبل أوانه بألف سنة
من الزمان .

قاض فاضل (*)

هو أحمد بن بقى بن مخلد قاضى الجماعة بقرطبة على عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ). كان أبوه بقى بن مخلد عالماً فاضلاً ورعاً زاهداً . وهو أحد الذين عرض عليهم القضاء فأبوا قبوله تخرجاً ، وذلك أن أمير الأندلس المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٧٥) أراد أن يوليه القضاء فأبى . فذهب إلى استكراهه فاعتذر اعتذاراً لطيفاً وقبل الأمير عذره وقد نشأ ابنه أحمد نشأة حسنة جميلة ، وعرف منذ حداثة سنه بالفضل ، ووسم بحب الخير . وكان أمير الأندلس عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠) يشاروه ويأخذ برأيه مع أن سنه إذ ذاك لم تكن تزيد على خمس وعشرين سنة . فلما تولى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الخلافة ولاه صلاة الجماعة بقرطبة ، ثم ولاه بعد ذلك قضاء الجماعة بها وأقره على الصلاة ، وذلك في سنة ٣١٤ هـ .

* * *

وكان منصب قاضى الجماعة بقرطبة أحد المناصب الثلاثة التى تعتبر أركان الحكم فى الأندلس على عهد بنى أمية ، وهى إمارة الثغر الأعلى بسرقسطة وإمارة الأسطول بالمرية وقضاء الجماعة بقرطبة . وربما كان قاضى الجماعة يأتى لمنزلة الدينية ومكانته الاجتماعية بعد الحاجب الذى كان عندهم بمنزلة رئيس الوزراء عندنا ؛ وكثيراً ما كانوا يلقبون قاضى الجماعة بالوزير القاضى تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقدره . وكان اختصاصه عندهم يشمل النظر فى الموارث والوصايا والتجبير والأحباس وأموال اليتامى وقضايا الطلاق ، وقد تجمع له فوق ذلك إمامة الصلاة العامة ، وهى صلاة الجمعة والعيدى وصلاة الاستسقاء ، كما كان الإشراف على الحسبة داخلاً فى اختصاصه . من أجل ذلك كانوا لا يسندون قضاء الجماعة إلا إلى كل من عرف بغزارة العلم والبراعة فى الفقه ، ووصف بالفضل والورع ونزاهة الضمير . ولعله لم يتول قضاء الجماعة بقرطبة رجل أجمع لتلك الخصال من أحمد بن بقى ، حتى لم يكن

اعتباره المثل الصالح للقاضي الشرعى فى عصر ازدهار الدولة الإسلامية بالأندلس .

* * *

كان ذا معيشة سهلة ساذجة ، « إذا طرقه ضيف ليلا لم يدبح له شيئاً من الطير ، وقال الليل أمان لها ، ويقتصر على العسل والسمن والبيض وما شا كل ذلك فيقربه إلى الضيف » . وكان متواضعاً ، سئل مرة عن نسبه وولائه فقال ولاؤنا لامرأة من أهل جَيَّان . وكان ولى عهد الدولة الحكم المستنصر يعجب من صدقه فى ذلك ويقول : لو شاء لادعى أشرف الأنساب ثم لا يجد فى ذلك مكذبا .

وكان رءوف القلب ، رفيق العقوبة إذا عاقب . جاءتته مرة امرأة تخاصم زوجها فجعلت تستطيل على زوجها بلسانها وتؤذيه بصلفها ، فنظر إليها ابن بقى وقال لها : أقصرى ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت المرأة شيئاً ثم عاودت الصلف ، فقال لها القاضي مرة أخرى : أقصرى ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت شيئاً ثم عاودت الصلف . عند ذلك عطف عليها أحمد بن بقى فجعل يقول لها : أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! ثم قال : ألم أخوفك من قبل هذا ؟ ولم تزد عقوبته للمرأة على ذلك .

وكان كثيراً ما يدرأ الحدود الشرعية بالشبهات يتعمدها سياسة منه للعامة ورفقاً منه بها . قالوا أنه المحتسب مرة برجل به رائحة الشراب ، فقال القاضي لكتابه : استنكهه ! ففعل ، فقال : نعم ! عليه رائحة الشراب . فظهر بوجهه الكراهية لذلك ، ثم قال لآخر من كان حاضراً مجلسه : استنكهه أنت ! ففعل ، فقال : أجد رائحة ولا أدرى إن كانت رائحة مسكر أم لا ؟ فتهلل وجه القاضي وأمر بتخلية سبيله .

* * *

ومع أنه كان رءوف القلب رفيق العقوبة يرى الرفق والتجاوز فى كثير من المواطن أبلى من العنف والمؤاخذه ، فإنه كان فى صميم واجبه القضائى مثال الدقة والدأب والاستقصاء . كان لا يوقع شهادته فى وثيقة حتى يقرأها من أولها إلى آخرها . من ذلك أن صديقاً له أرسل إليه مرة وثيقة كتبها على رجل بمال ليشهده عليها . وقد ذكر فى الوثيقة سبباً يجعلها واهنة . فلما قرأها ابن بقى وتبين له ما فيها من الوهن كره ألا يوقع عليها فيسخط

صديقه ، وكره أن ينبه المشهود عليه إلى وهنها . فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال للمشهود عليه : أتشهدنى على أن لفلان عندك كذا وكذا مثقالاً إلى أجل كذا وكذا ؟ قال نعم ! فعقد شهادته على هذا اللفظ بعينه لا غير .

وكان جم العناية بأمر الوثائق خاصة ، شديد التعقب عليها . وكانت الوثائق يحررها رجل اسمه محمد بن إبراهيم بن الحباب كثير الزهو والاعتداد بعمله ، فغاظه تعقب القاضى عليه وقال : من أين يتعاملى ابن بقى أنه أعلم بالوثائق منى ؟ وبلغ قوله القاضى . فانتهاز فرصة عرضه عليه وثائق ، واستيفرغ جهده فى التعقب عليها حتى أخذ مواضع أبانها له وأمره بتغييرها ، فغيرها وأتاه بها . فانتقد عليه فيها مرة أخرى . فأرسل إليه ابن الحباب يقول : إني أقر لك أنك أعلم بها منى وأشهد بذلك ، فدعنى من كثرة هذا البحث والكشف وإلا حلفت ألا أكتب وثيقة ؛ فتركه ابن بقى بعد ذلك وسامحه .

* * *

وكان من عادة ابن بقى فيما يتخاصم عنده فيه أن ينفذ الظاهر البين ، ويستعمل الأناة والبؤدة فيما التبس عليه منه ، حتى تظهر له الحقيقة أو يصير المتخاصمان إلى التصالح والتراضى . وربما جر ذلك التمسك والتهمل فى القضايا المشتبهة إلى تأخير الأحكام زمناً طويلاً قد يضجر الخصوم . وقد عيب عليه ذلك فى حضرة الخليفة الناصر وبما عرف به من لين الجانب ، فقال : أعوذ بالله من لين يؤدى إلى ضعف ، ومن شدة تبلغ إلى عنف ؛ ثم جعل يذكر فساد الزمان واحتيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشتبهة التى لا تتبين له حقيقتها ولا يكشف له وجهها ، ثم قال : قد اشتبه على عمر بن الخطاب رضى الله خصومة قوم طال نظره فيها ، فكره أن يحكم مع الاشتباه فأمرهم بإبداء الخصومة من أولها .

ومما يصدق مذهبه هذا فى التوقف عند الشبهات أنه رفعت إليه خصومة وقعت بين الحاجب محمد بن موسى — والحاجب عندهم كما قدمنا بمنزلة رئيس الوزراء عندنا — وبين رجل اسمه يحيى بن إسحق . وكانت شهادة الشهود فى مصلحة الحاجب . ولكن القاضى اصطنع الأناة ولم يعجل الحكم لشبهة وقعت فى نفسه . فأرسل إليه الحاجب يقول : « قد عرفت محبتى لك ، وشحى بجميع أسبابك ، وقد دار عندك على يحيى بن إسحق

ما قد علمت من الخاصمة ، وقد شهدت عليه عندك البيعة العدول ، وتأيت عن الحكم عليه .
فقال القاضي للرسول : « تبلغ الحاجب عن السلام وتقول له : إن محبتنا كانت لله ولوجهه ،
ويحيى بن إسحق وغيره في الحق سواء ، وقد دخل على ارياب ، ولا والله ما أحكم على يحيى
ابن إسحق بشيء حتى يتضح عندي أمره بنور كاتضاح الشمس في الدنيا ، فإنه لا يحيرني
أحد من يحيى بن إسحق إن جافاني الخصومة بين يدي الله » . فأدى الرسول هذه المقالة
للحاجب وهو ساكت لا يقول شيئاً . وجعل بعض من حضر من الوزراء يقع في القاضي
ويبدى ويعيد في ذلك . فتحول الحاجب إليه أخيراً وقال له : « يا أخى ! القاضي والله رجل
صالح ، ولا نزال بخير ما كان هو وشبهه بين أظهرنا .

والله ما زاده فعله عندي إلا محبة واعتقاداً » .

قالوا : وكان أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر يثق به ويحله ويعرف حقه ولم يعزله عن
القضاء حتى توفي سنة ٣٢٤ عن أربع وستين سنة .

(*)

بين خليفة وقاض

أما الخليفة فهو أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله الذى استوى على عرش الأندلس خمسين سنة (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) تعد بحق أزهى عصور الأندلس ، ومن أمجد العصور الإسلامية على الإطلاق . تولى والأندلس على أسوأ حال : شمل ممزق ، وقتن ضاربة أطنابها ، وعدو يتحفز لينقض عليها من فوقها ومن أسفل منها . فما زال بالفتن حتى قطع دابرها ، وبالأعداء يجاهدون تارة بنفسه ، وأخرى بأبرع قواده ، حتى خضد شوكتهم ، وكسر شرهم ، وأنزلهم على حكمه .

ولما رأى القياث أمر الخلافة العباسية بالمشرق ، واستفحال أسر العبيديين بالمغرب ، استقر في نفسه أنه أحق بلقب الخلافة من العباسيين والعبيديين جميعاً ، لأنه أجمع منهم لشروطها فأعلن خلافته في سنة ٣١٦ هـ وبايعه الشعب بالخلافة طائعاً راضياً . ثم إنه رفع للعلم والحضارة بالأندلس مناراً عالياً . وعنى بالبنين والعارة فشيّد مدينة الزهراء التي كانت تضرب بروعتها الأمثال . وطار صيته في الخاقين وازدلفت إليه ملوك أوربا ، وقدمت عليه وفودهم طالبة موادعته وموادته ، فكان بحق أوحد ملوك العالم في عصره .

وأما القاضي ، فهو أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي ، أصله من فخص البلوط في شمالى قرطبة ، ولد في العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ، ونشأ وتفقّه بالأندلس على عبيد الله ابن يحيى بن يحيى الليثي وأمثاله ، ثم رحل إلى المشرق حاجاً وطالباً للرواية ، على عادة كثير من علماء الأندلس في ذلك الزمان ، واجتمع في رحلته بمجموعة من علماء المشرق ، وظهر فضله هناك . ومن سمع عليهم بمكة : محمد بن المنذر النيسابورى ، سمع عليه كتابه المؤلف في اختلاف العلماء ، المسمى « بالأشراف » ، كما روى بمصر كتاب « العين » للخليل عن أبي العباس بن ولاد ، والشعر القديم عن أبي جعفر بن النحاس . ثم عاد إلى وطنه ، وقد

استحكمت سنه وكملت تجاربه وتمت ثقافته ، وأصبح معدوداً في كبار فقهاء الأندلس وثقاتها في العلم ، وقد صنف كتباً في علوم الفقه والكلام والتفسير ، وكان يغلب عليه التفقه بمذهب داود الظاهري ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فلما تولى القضاء كما سيجيء ، كان لا يقضى إلا بمذهب مالك ، لأنه المذهب الذي كان عليه العمل بالأندلس ، على أنه كان مع ذلك واسع الأفق في مسائل الفقه ، ميالا إلى الاجتهاد ، غير ملتزم للتقليد ، يشير إلى ذلك قوله :

عذيرى من قوم إذا ما سألتهم دليلا أجابوا : هكذا قال مالك
فإن زدت قالوا : قال سحنون مثله وقد كان لا تخفى عليه المسالك
فإن قلت : قال الله ، ضجوا وأعولوا على وقالوا : أنت خصم مباحك

وكما كان منذر فقيهاً متبحراً في الفقه ، كان خطيباً مفوهاً وواعظاً جهير الصوت بليغ العبارة . قريب الدمعة ، حسن الترتيل ، قوى التأثير في سامعيه ، وكان فوق ذلك شاعراً ، وشعره من قبيل شعر العلماء ، وقد أورد المقرئ في كتابه نفع الطيب ، مساجلات شعرية جرت بينه وبين أبي على القالى وغيره من الأدباء . وكانت فيه مع جده وورعه ، دعابة ربما اتخذ بها من لا يعرف باطنه ، فإذا أراد النيل من دينه تكشف له عن أسد ورد لا يرام حماه .

* * *

والظاهر أن منذر بن سعيد كان يحيا في قرطبة حتى سنة ٣٣٩ حياة فقيه يدرس العلم ويصنف الكتب ويساجل العلماء والأدباء ، دون أن يلي للسلطان عملاً ، مع فضله وتقدم سنه . لذلك لم يكن الناصر يعرفه شخصياً على نحو ما يعرف السلطان كبار رجال دولته . اللهم إلا أن يدعى في زمرة الفقهاء إلى الحفلات الرسمية ، التي كثيراً ما كانت تعقد في البلاط على عهد الناصر . ثم عرضت ظروف نهبت الخليفة إلى مكانة منذر وفضله وخطره ، ورفعته في طرفه عين إلى مكان الصدارة من رجال الدولة . ففي عام ٣٣٩ قدم قرطبة وفد عاهل القسطنطينية ، يحمل إلى الناصر تحفاً وهدايا ، ويرغب في توثيق أواصر الود والصداقة بين الناصر والعاهل البيزنطى . وقد أراد الخليفة أن يستقبل هذا الوفد في بعض مجالس الزهراء أخص استقبال وأعظمه . وقد أتى المقرئ في كتاب « نفع الطيب » على وصف

ذلك الخفل بالتفصيل . قال : « وتقدم الناصر إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده بإعداد من يقوم من الخطباء ويقدمه أمام إنشاد الشعراء ، فتقدم الحكم إلى أبى على القالى البغدادي ، ضيف الخليفة وأمير الكلام ، وبحر اللغة ، أن يقوم ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع وبهت ، فسا وصل إلا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد ، وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء ، قام بدرجة من مراقبة أبى على ووصل انفتاحه بكلام عجيب ، بهر العقول جزالة ، وملاً الأسماع جلالة . وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه . وأقبل على ابنه الحكم فسأله عنه ، ولم يكن يثبت معرفته ، فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطي ، فقال والله لقد أحسن ما شاء . وأراد الخليفة مكافأته والانتفاع بمواهبه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بمدينة الزهراء . ثم حدث بعد قليل من الزمن أن توفي قاضي الجماعة بقرطبة ، فولى الخليفة منذراً قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .

وهكذا نشأت الصلة بين الخليفة الناصر لدين الله وبين القاضي منذر بن سعيد . نشأت من مناسبة عارضة أعجب فيها الخليفة بالقاضي والقاضي بالخليفة . غير أنه سرعان ما وقعت الوحشة بين الخليفة وقاضيه ، وذلك لاختلاف وجهة نظر كلٍّ إلى الأمور .

أما الخليفة فكان ينظر إليها نظرة ملك عظيم ربما جانبه الصواب في تصرفاته على غير قصد منه ، ولكنه يجب مع ذلك أن يعرف له حقه من التبجيل والتكريم ، أما القاضي فكان يرى أن واجبه يحتم عليه أن يجري في تصرفاته على أساس العدالة المطلقة ، مهما علا مكان المتقاضى إليه ولو كان الخليفة نفسه .

قالوا إن الناصر احتاج إلى شراء دار في قرطبة لإحدى نساته ، فوقع استعجاسه على دار واسعة ذات مسقعات وافرة ، وكانت لأيتام في حِجر القاضي . فأرسل الخليفة من قومه بقدر ما طابت نفسه ، وأرسل ناساً أمرهم بمداخلة وصي الأيتام في بيعها عليهم ، فذكر أنه لا يجوز البيع إلا بأمر القاضي منذر ، فأرسل الخليفة إلى القاضي في بيع هذه الدار فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الوهي الشديد ، ومنها

الغبطة ، فأما الحاجة فلا حاجة بهذه الأيتام إلى البيع ، وأما الوهي فليس فيها ، وأما الغبطة فهذا مكانها . فإن أعطاهم أمير المؤمنين ما تستين به الغبطة أسرت وصيهم بالبيع وإلا فلا . فنقل جوابه إلى الخليفة ، فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً في أن يغير القاضي رأيه . ولكن القاضي لم يغير رأيه ، ثم إنه خاف أن تنبعث من الخليفة غريزة تلحق بالأيتام ضرراً ، فأمر وصي الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها ، ففعل ، فكانت قيمة الأنقاض أكثر مما قومت به للسلطان . عند ذلك أرسل الخليفة إلى القاضي منذر يسأله عما دعاه إلى نقض الدار ؟ قال أخذت فيها بقوله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » مقوموها لم يقوموها إلا بكذا ، وقد قبض في أنقاضها أكثر من ذلك . وبقيت القاعة والحمام ، ونظر الله للأيتام ، فلم يسمع الخليفة إلا أن يقر القاضي على ما عمله ، وقال : « نحن أولى من انقاد إلى الحق ، فجزاك الله عنا وعن أمانتك خيراً » .

وهكذا أذن الخليفة للحادث أن يمر بسلام ، وإن كان أبقى في نفسه شيئاً من الموجدة على القاضي الذي تحدها على هذا النحو الذي لم يعهده . ثم سرعان ما وقع حادث آخر كان أشد من الحادث الأول وأدهى . لقد كان الناصر بطبعه ميالاً إلى العمارية ، مشغولاً بتشديد البنيان يرى أن ذلك من أبهة الملك والدليل الباقي على فخامة الدولة ، وينسبون إليه أنه القائل :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ملك محته حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضل شأنه أخفى يدل على عظيم الشأن
ولقد أقبل على عمارية الزهراء أيما إقبال ، وأنفق من أموال الدولة في تشييدها وزخرفتها ما أنفق ، وهي لا تعدو في حقيقة أمرها أن تكون مجموعة من القصور الفاخرة مخصصة للنزلة وسكنى خدمه وحشمه وحرسه ، وكان ربما أشرف بنفسه على شئون البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة ثلاث جمع متواليات . فاشتد ذلك على خطيب المسجد الجامع بالزهراء وإمام الصلاة فيه ، ورأى خروجاً من تبعة التقصير فيما أوجب

الله على العلماء من تنبيه الغافل وتذكير الناس ، أن يلقى على الخليفة درساً قد يكون ثقيلاً على نفسه ، ولكن فيه شفاء له من علة الإسراف ، ورد إلى طريق الصواب . ورأى أن يكون ذلك على ملاء من الناس وفي المسجد الجامع بالزهاء نفسها . وعلم أن الخليفة سيشهد صلاة الجمعة بعد طول انقطاعه عن شهودها ، فأعد خطبة قوية ضمنها كل ما كانت تجيش به نفسه من المعاني . فلما كان يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة اعتلى المنبر ، والخليفة حاضر والمسجد غاص بالمصلين ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » إلى قوله « قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » ثم مضى في ذم تشييد البنيان ، والاستغراق في زخرفته ، والإسراف في الإنفاق عليه ، بكل كلام جزل ، وقول فصل ، تلا قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين » وراح يحوف من الموت ويحذر من فجاءته ويدعو إلى الزهد في هذه الدار الفانية ، ويحض على الإعراض عنها ، ونهى النفس عن اتباع الهوى ، فأسهب في ذلك كله وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقه ، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله ، حتى أذكر من حضر من الناس وخشعوا ورقوا وبكوا وضجوا ودعوا ... وأخذ الخليفة من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكى وندم على تفریطه .

غير أن الخليفة وجد على منذر لغلظ ما قرعه به فشكا ذلك لولده وولى عهده الحكم بعد انتهاء الصلاة وانصراف الخطيب ، وقال : والله لقد تعمدي منذر بخطبته ، وما عني بها غيري فأسرف على ، وأفرط في تقريري وتأنبي ولم يحسن السياسة في وعظي ، فزعر قباي ، وكاد بعصاه يقرعني ، ثم استشاط غيظاً عليه ، فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة ، فجعل يلتزم صلاتها خلف صاحب الصلاة بقرطبة ويحجائب الصلاة بالزهاء .

هذه كل العقوبة التي نال بها الخليفة الخطيب الذي تجاوز الحد في وعظه وإرشاده . ولقد قال له الحكم : فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك واتخاذ غيره مكانه ؟ ولكن الخليفة زجره وقال له « أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ، يعزل لأرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون . . . بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله ، فما أظننا نعتاض منه أبداً » .

ثم إن الجفوة تأكدت واشتدت بين الخليفة والقاضي ، وودى العهد لو أزالها أو خفف من حدتها ، فقيل إنه اعتذر إلى الخليفة عما قال منذر وقال يا أمير المؤمنين : إنه رجل صالح وما أراد إلا خيراً ، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية ، لعذرك ، ويريد بالبنية هنا القبة التي بناها الفاصر بالزهراء واتخذ قراميدها من فضة . وبعضها مغشى بالذهب ، وجعل سقفها نوعين : صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة ، يستلج الأبصار شعاعها . فلما قال له الحكم ذلك ، أسر ففرشت بفرش الديباج . وجلس فيها لأهل مملكته . ثم قال لقرايته ووزرائه : أرايتم أم سمعتم ملكاً كان قبلي صنع مثل ما صنعت ؟ فقالوا لا والله يا أمير المؤمنين ! ، وإنك لأوحد في شأنك ! فبينما هم على ذلك ، إذ دخل منذر بن سعيد واجهاً ناكساً رأسه ، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرايته ، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تتمكن من قيادتك هذا التمكن ، مع ما آتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ! فاقشعر الخليفة من قوله ، وقال له انظر ما تقول ! كيف أنزلني منازلهم ؟ قال : نعم ! أليس الله تعالى يقول « ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون » : الآيات . فوجم الخليفة ، ونكس رأسه ملياً وجعلت دموعه تنحدر على لحيته ، ثم أقبل على منذر وقال له : « جزاك الله عنا وعن الدين خيراً فالذى قلت هو الحق » ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قراميدها تراباً على صفة غيرها .

وهكذا أقر الخليفة للقاضي بأنه على الحق فيما قال . وزال ما كان في نفسه من الموجدة عليه .

ولكن بقي أن يرضى القاضي عن الخليفة . ولم يكن ذلك بعيداً . فقد قطعت الأندلس في آخر مدة الناصر (سنة ٥٣٥٠ هـ) فأمر منذراً بالخروج للاستسقاء ، فخرج ، واجتمع له الناس في مصلى الربض ، وصعد الخليفة في أعلى مصانعه المرتفعة ليشارك الناس في الخروج إلى الله . وأبطأ القاضي حتى اجتمع الناس ، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرعاً مخبتاً ، وقام ليخطب . فلما رأى خشوع الجمع وإخباتهم رقت نفسه وغلبته عيناه ، فبكى حيناً ، ثم

افتتح خطبته فقال : « يا أيها الناس : سلام عليكم ! » ثم سكت ووقف شبه الحصر ، ولم يكن من عادته ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض ، لا يدرون ما عراه ، ثم اندفع في خطبته ، فبهز القلوب ، وأبكى العيون ، وكان الخليفة أشد الحضور وجلا وخشوعا ، وأغزرم بكاء وأحرم دعاء ، فلما رأى القاضي منه ذلك تهلل وجهه وقال : « قد أذن الله بالسقيا . إذا خشم جبار الأرض ، فقد رحم جبار السماء » قالوا وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا .

وتوفي الخليفة الناصر في سنة ٣٥٠ أما القاضي منذر فكانت وفاته في سنة ٣٥٥ في خلافة الحكم المستنصر . وقد ظل حتى وفاته على قضاء الجماعة بقرطبة والخطابة والصلاة بجامع الزهراء ، كما رسم الناصر .

وإن الإنسان لا يدري بأى هاتين الشخصيتين هو أشد إعجاباً ؛ أبالخليفة في نبهه ، وسعة احتماله ، وإذعانه للحق عند وضوحه ، أم بالقاضي في عدالته ، وصراحته ، وشجاعته وشدة إخلاصه لدينه وواجبه . ألا حيا الله تلك النفوس الكبار فعلى مثلها تصالح الدول وتستقيم أمور الناس ؟

١ - الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي (*)

لقد وجد كثير من كبار الشعراء على مختلف العصور في الحوادث العامة المعاصرة لهم أو السابقة عليهم مادة لقراءتهم ، ومسرحاً لخيالهم ، فاتخذوا منها موضوعات بنوا عليها قصائدهم ومسرحياتهم . فعل ذلك هوميروس في إلياذته ، وشكسبير في مسرحياته ، والمتنبي في سيفياته ، وشوقي في اجتماعياته وسياسياته . فهل للمؤرخ أن يعد شعر هؤلاء الشعراء مصدراً من مصادر التعريف بهذه الحوادث ؟ وإذا جاز له ذلك ، فإلى أى مدى يكون اعتماده على الشعر في تاريخ الحوادث المذكورة وتصويرها ؟ إن الأمر ليس سهلاً كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، فالشاعر ينظر إلى الأشياء بعين الخيال دائماً ، وهو بحكم فنه الرفيع ذاتي في تناوله الحوادث ، فهو يزنها ويحكم لها أو عليها تبعاً لما تبعث في نفسه من عاطفة وتثير من إحساس . أما المؤرخ فبحكم صناعته واقعي النظر إلى الحوادث ، يصورها كما هي في الواقع ، أو كما يعتقد أنه حالها في الواقع على أقل تقدير ؛ وينبغي أن يضبط عاطفته جهد طاقته ، فلا يجعل لها على قلبه سلطاناً ، وأن يقيّد بالواقع كل التقيّد ، يسبح في محيطه مهما يكن كثيفاً ؛ فإن خلق فوقه فلكى يتمكن من رؤيته والإحاطة به لا أكثر ولا أقل . وإذا فبين الشاعر المؤرخ والمؤرخ المختص تباين شديد على ما يظهر . ولكن يظهر أن التباين بينهما ليس تاماً ، فهناك أساس مشترك بينهما ، هو الواقع والحقيقة ؛ كلا الشاعر والمؤرخ في سرّ أمره يرجع إلى الواقع ويغترف من بحره . وليس الاختلاف بينهما إلا اختلافاً بين أسلوبيهما في التعبير عن الحقيقة والواقع . فالمؤرخ يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، ويعنى بمادتها وجسمها ، إذا صح هذا التعبير ، فهو يوقتها ويعلمها ، ويرد بعضها إلى بعض ، جامعاً الصديق في كل ذلك شعاره ومبدأه ، متحاشياً الخاط في القياس أو الاستنباط . أما الشاعر فلا يقصد إلى الحوادث قصداً مباشراً ، وإنما يتناولها من بعيد جداً ، يتناولها مصعدة مقطرة متبلورة ، إن صح هذا التعبير . يتناولها من حيث تأثيرها في نفسه ؛ ومبلغ

تأثر نفس الشاعر بحادث ما واهتياجه له رهن بمقدار تأثر البيئة التي يعيش فيها بهذا الحادث واهتياجها له . فالشاعر يسجل أثر الحوادث في المحيط الذي يعيش فيه . والشاعر الحق هو الذي يعد ترجمانا صادقا لإحساسات البيئة التي وجد فيها . ولتمثل لذلك بشعر أبي الطيب المتنبي فالمتنبي يمجّد سيف الدولة في قصائده السيفيات ؛ ولعله في قرارة نفسه يعتقد أن سيف الدولة من حيث رقعة ملكه وسعة موارده ، لا يزيد على أن يكون أميراً إقطاعياً من أمراء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، وقد يكون أقل شأنًا وخطراً من أمراء بني بويه شرقاً ، وخلفاء الأندلس غرباً . وهو لا شك يعلم أن في سيف الدولة عيوباً لا تنشق رؤيتها على مثله ؛ ولكن مع ذلك يفرض النظر عن عيوبه ويضفي على سيف الدولة حللاً منشرة من مدائح . ذلك بأنه إنما أراد أن يصور رأي الناس لعهد في هذا البطل وفي وقائعهم مع الروم دفاعاً عن الثغور الإسلامية ؛ في حين أن هذا البطل وهذه الوقائع ليست في نظر المؤرخ المدقق شيئاً كبيراً بالقياس إلى أبطال المسلمين الذين جاهدوا الروم قبل سيف الدولة وبعده ، ولا إلى الوقائع العظيمة التي جرت بينهم وبين قياصرة بيزنطة . وناحية أخرى من شعر المتنبي ، ذلك أنه يمدح الأفراد ويهمل الجماعات أو يذمها أبرح الذم ، يمدح سيف الدولة ويهمل أهل الشام ، ويمدح كافورا الإخشيدى ويذم المصريين ، حتى ليكاد يلحقهم بالسوام المهمل . ولقد كنا نقرأ كل ذلك فنهز رؤوسنا ونقول شاعر يريد الافتنان والإغراب . ولكن الحقيقة أن المتنبي لم يرد افتناناً ولا إغراباً ، وإنما هو من حيث يريد أو لا يريد ، يصور ما لحق نفوس المسلمين عامة وأهل الشرق الأدنى خاصة من ضعف وفقر ، انتهى بأن طمع فيهم الروم أولاً والصليبيون أخيراً ، فغزّوهم في عقر دارهم ، وتغلبوا على حوزتهم حقبة طويلة من الزمان . فهل يقال بعد ذلك إن شعر المتنبي لا يجدى على المؤرخ لأنه شاعر كثير الذهاب مع الخيال ؟ كلا ثم كلا ! فالمتنبي بأسلوبه الشعري الخاص قد سد نقصاً في كتب التاريخ ، ولا غنى للمؤرخ الحديث عن ديوانه عند ما يؤرخ الشرق الأدنى في القرن الرابع الهجري .

وما يقال عن المتنبي يمكن أن يقال عن كل شاعر آخر كبير تصدى لتسجيل الحوادث العامة في شعره . على أنه ليس كل شاعر بمستطيع أن يتناول الحوادث على نحو ما تناولها المتنبي أو شكسبير ، فالقدرة على تصفية الحوادث وتقطيرها وبلورتها لم توهب إلا لبقارة الشعراء وخولهم فحسب .

ونحن نعتقد أن من هؤلاء أبا القاسم بن هاني الأندلسي . وقبل أن نفصل القول في ذلك نعرف القارئ بهذا الشاعر تعريفاً موجزاً .

هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدى الأندلسي ، يقال إنه من ولد المهلب بن أبي صفرة القائد الأموي المشهور ، ولقب بالأندلسي للترفة بينه وبين ابن هاني الحكمي الذي هو أبو نواس . كان أبوه هاني من قرية من قرى المهديّة بأفريقية ، وكان شاعراً أديباً ، ثم انتقل إلى الأندلس ونزل البيرة وقيل قرطبة ، وولد له ابنه محمد صاحب الترجمة بأحد هذين البلدين سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢٦ على خلاف في ذلك ، وإن كان التاريخ الأول هو الأرجح عندنا . ونشأ محمد بقرطبة وتعلم بها وحقق علوم عصره وخاصة اللغة والأدب والفلسفة ، ثم انتقل إلى إشبيلية ونزلها واتصل بصاحبها واختص به ؛ غير أنه سرعان ما نبت به إشبيلية والأندلس عامة ؛ ذلك بأن ابن هاني عرف بحرية الفكر ، واتهم بمذهب الفلاسفة ، ورمى بالغلو في التشيع ، هذا إلى استهتار ، وفساد في السيرة ، واعوجاج في الطريقة . وكانت الأندلس أيامئذ حديثة عهد بخلافة سنية جديدة ، أقامها الناصر ليعني بها على الخلافة العباسية المضطربة ، ويتحدى بها الخلافة الفاطمية الشيعية التي ظهرت في شمال إفريقيا ؛ وكانت الدولة الأندلسية فوق ذلك واقعة تحت نفوذ فقهاء المالكية ؛ فكانت الفلسفة والمشتغلون بها محل مقت الخاصة والعامة على السواء . ولقد بلغ من ذلك أن أحرقت كتب الفيلسوف الأندلسي ابن مسرة علناً في شوارع قرطبة . من أجل ذلك اعتزم ابن هاني الهجرة إلى عدوة المغرب حيث الدولة الفاطمية الجديدة ، وهي دولة قامت على دعاية باطنية واسعة النطاق ، تتسع لكل مفكر أياً كان اعتقاده ونوع تفكيره .

كانت إجازة ابن هاني إلى عدوة المغرب في السنة السابعة والعشرين من حياته ، أي في سنة ٣٤٧ على تقدير من يقول إنه ولد سنة ٣٢٠ ، أو سنة ٣٥٣ على رأي من يجعل مولده سنة ٣٢٦ هـ ، وعلى كلا الأمرين لقي ابن هاني جوهر الصقلي ، إما في حلقته الحربية الأولى على المغرب الأقصى ، أو رحلته الثانية إليه بقصد تمهيد أموره قبل أن يسير المعز إلى مصر لفتحها ؛ وقد مدح ابن هاني جوهر لأول التقائه به بقصيدة لم يجزه عليها القائد

الكبير إلا بمبلغ زهيد من المال لم يرض الشاعر ؛ وسأل عن رجل بالمغرب يكون أكرم منه ، فدل على جعفر بن علي بن حمدون صاحب كورة الزاب بأفريقية ، فشد رحاله إليه ونزل عليه وعلى أخيه يحيى بن علي ، ومدحهما بغرر قصائده ، فكافأه على ذلك بالأموال السنوية ؛ وعلا صيته ، وأحل شعراء المغرب لعهدده على الإطلاق ثم نى خبره إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، فاستهده من جعفر فسيره إليه مع تحف وهدايا كان أبو القاسم أنفسمها في نظر الخليفة . وربما كان بدء اتصال ابن هانيء بالمعز حوالى سنة ٣٥٤ ، وانقطع ابن هانيء من ذلك الوقت حتى وفاته لمده المعز وكبار رجال دولته ، وجعل يشيد بمجد الدولة الفاطمية ويهجو أعداءها . فلما أزمع المعز الانتقال إلى مصر سنة ٣٦١ بعد فتح جوهر لما خرج ابن هانيء لتشيعه ، قالوا ثم استأذنه في العود إلى المغرب ليأخذ عياله ويلحق به ، فأذن له في ذلك . وعاد ابن هانيء وتجهز ثم تبع الخليفة ، فلما كان ببرقة استضافه رجل من أهلها ، فنزل عليه في رفاق ؛ فيقال إنهم عربدوا عليه في مجلس أنس فقتلوه ، وقيل في موته غير ذلك . ومهما يكن من شيء فقد كانت وفاته في سنة ٣٦٢ بالغاً من العمر اثنتين وأربعين سنة أو ستاً وثلاثين سنة تبعاً لسنة ميلاده كما تقدم . ويأبى الدكتور زاهد على المهندي الذي نشر ديوان ابن هانيء من سنوات إلا أن يجعل لأمويى الأندلس يداً في موته ، مع أن كل الروايات الواردة في موته لا تشير إلى شيء من ذلك ، ويقنأى الدكتور فساد سيرة الشاعر التي كانت السبب الأول في موته غير الطبيعي

ولقد أجمع نقاد الشعر ورواته على أن ابن هانيء أعظم شعراء المغرب على الإطلاق ، وأنه عندهم نظير معاصره المتنبى عند أهل المشرق . ولما بلغت وفاته المعز أسف لذلك كثيراً ، وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدر لنا ذلك .

ومع أن كل الشواهد تدل على أن ابن هانيء كان مبكر الشعارية ، ومن الشعراء المكثرين ، وأن قريحته كانت وقادة ، وطبعه سخياً بالشعر ، فإن ما وصل إلينا من شعره ليس بالشيء الكثير . فلم يصلنا إلا شعر السنوات التسع الأخيرة من حياته ، إذا أخذنا بقول من يجعل حياته ستاً وثلاثين سنة فقط ، أو شعر الخمس عشرة سنة الأخيرة ، إذا قلنا

بالرأى الذى يجعلها اثنتين وأربعين سنة . وعلى كلا الأمرين لم يصلنا شيء ألبتة من شعره الذى قاله وهو فى الأندلس ، مع أن الأندلس وطنه الأول ، فيها ولد ، وفيها نشأ ، وفيها تعلم ، وفيها ترعرع ، وفيها ظهر ذكره . وبأشبيلية استمتع بصحبة ملكها وعاملها بنى أمية ؛ فأين غرامياته ، ووجدانياته ، وإخوانياته ؟ بل أين مدائح فى صاحب أشبيلية الذى رعاه مارعاه ثم هيا له سبيل الهجرة إلى المغرب ؟ لا شيء من ذلك ألبتة . ويفسر الدكتور زاهد على الهندى ذلك النقص فى ديوان ابن هانى تفسيراً عجيباً ، فيحمله على أن الشاعر لم يشتهر فى وطنه ، بل اشتهر فى المغرب ، وأن هذا حال أكثر الفضلاء « لأن الرجل فى وطنه لا يكون معروفًا ، فاذا اغترب عرف فضله ، وقد يما قالوا ليس لنبى كرامة فى وطنه » (مقدمة الديوان ص ٢٠) ولكن ابن هانى عرف بالأندلس فعلا ، وقال الشعر فى ذلك الطور من حياته ؛ وأكبر الظن أنه اصطحب نسخة أشعاره الأندلسية ، فأين ذهب ذلك ؟ ثم إنه لم يصلنا كل شعره الذى قاله بعد هجرته إلى المغرب . ونستشهد على ذلك بحادث واحد : فى سنة ٣٦٠ خلع جعفر بن على وأخوه يحيى وعشيرتهما ثوب التشيع ونكثا ببيعة المعز ، وخرجوا من المغرب بعد أهوال ، ولحقا بالحكم المستنصر الأموى بالأندلس ، فاهتزت الأندلس لمقدمهما وتقبلتهما بأعظم القبول . فإذا عرفنا أن هذين الأميرين لهما من الأيادى على ابن هانى ما لهما فهل يعقل أن يمر هذا الحادث دون أن يترك فى نفس ابن هانى أثراً يظهر فى شعره إن قليلاً وإن كثيراً ؟ ومع ذلك فليس فى ديوانه شيء عن ذلك الحادث الخطير من الناحية العامة ، ومن ناحية ابن هانى خاصة ! إن السبب الصحيح فى ضياع الجانب الأندلسى من شعر ابن هانى ، والشعر الذى قاله فى حادث ابنى على هو أن جامع ديوانه أراد ألا يثبت من شعر الشاعر إلا ما قاله فى الدولة الفاطمية فقط . وإذا فنحن بإزاء ديوان شعر شيعى لشاعر شيعى إسماعيلى ألم فيما وصل إلينا من شعره بكثير من حوادث عصره وصورها فى شعره . فلننظر إلى ما تناوله من تلك الحوادث لنرى كيف ألم به ، وكيف صوره .

٢- الناحية التاريخية

من شعر ابن هانيء الأندلسي (*)

نصير للقارىء العصر الذى عاش فيه ابن هانيء الأندلسي ، فنقول : ولد شاعرنا نحو سنة ٣٢٠ هـ وتوفى سنة ٣٦٢ هـ ؛ فقد عاش إذاً فى صميم القرن الرابع الهجرى ، وهو عصر حافل بالأحداث الجسام التى وقعت فى العالم الإسلامى ، كما كان عصر تبدل واضح فى علاقة الشرق الإسلامى بالغرب الأوروبى المسيحى . وحسبنا فى هذا المقام أن نقول فى وصف العالم الإسلامى لذلك العهد إنه كانت تنقسمه ثلاث دول متقاطعة ، وتتوزعه ثلاث خلافت متنافسة إلى حد بعيد : أولاها الدولة العباسية بالشرق ، وكانت أحوالها قد صارت إلى اضمحلال وفساد لغلبة الترك والديلم على خلفائها واستبدادهم بالأمر دونهم ، مما أضعف السلطة المركزية ببغداد ، وأضاع هيبة الخلافة ، وذهب بروفقها ، وجر إلى تجزؤ الدولة إلى دويلات عدة كان بأصها بينها شديداً . ثم الدولة الأموية بالأندلس ، وكانت حالها إذ ذاك على النقيض من حال الدولة العباسية . كانت فى عصرها الذهبى ، عصر عاهليها العظمين : عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر ؛ وقد قامت فيها خلافة سنية ابقعتها الناصر عند ما رأى ما آلت إليه الخلافة العباسية من الاضمحلال والفساد . ثم الدولة الفاطمية التى قامت بأفريقية فى آخريات القرن الثالث الهجرى ، وسرعان ما عم نفوذها شمال أفريقيا كله تقريباً ، ووقع الصدام بينها وبين الدولة العباسية فى مصر والشام والحجاز ، وبينها وبين الدولة الأموية الأندلسية فى المغرب الأقصى .

وكان القرن الرابع الهجرى زمن تبدل فى العلاقة بين الشرق الإسلامى والغرب الأوروبى المسيحى ، فقيه نبتت وقويت فكرة الحرب الصليبية فى أوربا عامة وعند أباطرة الروم خاصة . وكان السبب فى ذلك ضعف الدولة العباسية ، حتى لقد أقدم الروم على غزو الشام ، وطمعوا فى امتلاكها والزحف منها إلى نفس الحجاز . على أن عدوان الروم فى الشرق على البلاد الإسلامية كان يعاصره عدوان مثله فى الغرب من الفواطم على بقية ملك الروم فى جزيرة صقلية .

عاش ابن هانيء في ذلك العصر ، وانغمس في البيئة الفاطمية السياسية كل انغماس ،
 وصور في شعره نواحي الحياة السياسية الفاطمية ، وعلاقة الدولة العبيدية بالعباسيين والأمويين
 والروم ؛ وهو في أثناء ذلك كله يورد البيت أو البيتين يضمنهما شيئاً من تعاليم الشيعة
 الإسماعيلية لذلك العهد .

يصور ابن هانيء المعز الفاطمي خليفة مهيأ ، حكيماً ، يضع الندى في موضعه ، والسيف
 في موضعه ، نافذ الأمر في أقطار المغرب .

ملك أناخ على الزمان بكل كل فأذل صعباً في القياد إجموحاً
 يعضى المنايا والعطايا وادعاً تعبت له عزماته وأريحاً
 قل للعجاجة الملوك تغنموا سلماً ، كفى الحرب العوان لقوحاً
 بعيونكم رهج الجنود قوافلاً بالأمس تنقل الدم المسفوحاً

وهو يلقي ضوءاً على النظام الذي جرت عليه الدولة الفاطمية في عهدها الأفريقي ، وهو
 النظام الإقطاعي الذي عم الشرق والغرب في العصور الوسطى ؛ وذلك واضح في قصائده
 التي امتدح بها رجالات الدولة الفاطمية ، فيقول في جعفر بن علي صاحب الزاب :

سد الإمام بك الثغور وقبله هزَمَ النبيُّ بقومكَ الأحزابا
 أنتم ذوو التيجان من يمن إذا عد الشريف أرومة ونصابا
 إن تمثّل منها الملوك قصورك فلطالما كانوا لها حجابا

ويقول في أخيه يحيى بن علي :

وسيد سادات إذا مارأيته عرفت يمانىَّ النّجار متوجّاً
 تألق في أوضاحه وحجوله فلم ترعيني منظرّاً كان أبهجاً
 نحا المغرب الأقصى بسطوة بأسه فغادره رهواً وقد كان مرتججاً

ويقول في أبي الفرج الشيباني ، ذا كراً بلاءه في التمكين للدولة الفاطمية شرقاً وغرباً :

تشوّق المشرق الأقصى إليك وما تركت في الشرق من مأثورة عجب
 وكم تخلف في أوراس من سير سارت بذكرك في الأسماع والسكيب

قد كنت تملؤه خيلاً مضمرّة يحملن كل عتيد البأس والغضب
 كن كيف شئت بأرض المشرقين تكن بها الشهاب الذي يعاود على الشهب
 فأنت من أقطع الأقطاع واصطنع المعروف فيها ولم تغلم ولم تحب
 ويقول في نظام الجيش الذي دخل به جوهر مصر :

وقد رتبت فيه الملوك مراتباً فمن بين متبوع وآخر يقيم
 تسير على أقدارها في عجاجة ويقدمها منه العزيز الممنع
 فهذا وصف عمال لهم أحساب وأنساب ، وبأس وسطوة ، وليسوا مجرد عمال إداريين
 بالمعنى المألوف .

ويصف بحرية الدولة الفاطمية ، فيقول في الأسطول وفي استعماله النار الإغريقية
 في حرب الروم خاصة :

لك البر والبحر العظيم عبابه فسيان أغمار تخاض ويبد
 أما والجواري المنشآت التي سرت لقد ظاهرتها عدة وعديد
 قباب كما تزجي القباب على المها ولكن من ضمت عليه أسود
 أطاع لها أن الملائك خلفها كما وقفت خلف الصفوف ردود
 وأن الرياح الذاريات كتائب وأن النجوم الطالعات سعود
 مواخر في طامى العباب كأنها لعزمك بأس أولئكك جود
 من القادحات النار تضرم للصلى فليس لها يوم اللقاء خود
 إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج كما شب من نار الجحيم وقود
 فأقواهن الحاميات صواعق وأنفاسهن الزافات حديد
 يشب لآل الجاثليق سعيها وما هي من آل الطريد بعيد
 يعنى بآل الطريد بنى أمية الأندلسيين .

ويقول في ضخامة الجيش الذي فتح به جوهر مصر :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع وقد راغى يوم من الحشر أروع
 غداة كأن الأفق سد بمثلها فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

تسير الجبال الجامدات لسيده وتسجد من أدنى الخفيف وتركع
إذا حل في أرض بناها مدائنًا وإن سار عن أرض ثوت وهي بلقع

ويجلولنا ابن هانيء ناحية هامة من تاريخ المغرب لعهد ، فيذكر لنا وجود المذهب
الخارجي في المغرب الأقصى وإفريقية في ذلك الزمن ، وأن الخوارج كانوا يعملون لحساب
الدولة الأموية ، ويبين جد الخليفة المعز وعماله في قتال هذا المذهب المناقض للتشيع من جهة
والمشايخ لدولة معادية من جهة أخرى ؛ فيقول في أخذ جعفر بن علي قلعة حصينة كانت
بأيدي الخوارج بإقليم الزاب .

حرورية ما كبر الله خاطب عليها ولا حياء بها ملكاً وفد
وكانت شجلاً للملك سقين حجة وما طيب وصل لم يكن قبله صد
وعادت بهم حرب الأزارق لاحقاً وإن لم يكن فيها المهلب والأزد

ويقول في حرب أبي الفرج الشيباني مع خوارج المغرب الأقصى :

كل السيوف اللواتي جردت كذب وهو الجرد للسيف الحقيقي
لم يجهلوا ما ألاق في التشيع من تحريض شارية أو بأس شاري
وما يذلل من أهل العناد لهم وما يدارى من الدين الأباضي
من يصطلي حر نار أنت موقدها وهي الحرور على الشعب الحروري

هذا من حيث أحوال الدولة الفاطمية الداخلية ، فأما من حيث علاقاتها الخارجية ،
فالشاعر يبدي القول ويعيده في بيان العداوة بين الفواطم والأمويين وهو متأثر في ذلك
بعوامل بعضها شخصي كما يؤخذ من قوله يصف فراره من بنى أمية إلى إفريقية ؟

ولو علقته من أمية أحبل لب سنام من بنى الشعر تامك
ولما التقت أسياها ورماحها شراعاً وقد سدت على المسالك
أجزت عليهم عابراً وتركها كأن المنيا تحت جنبي أرائك
وما نموا إلا قديم تشيعي فنجى لبيباً شدة المتدارك

وبعضها عام راجع إلى ما كان بين الأمويين والفاطميين من العداوة فيقول :

وأمية تحفى السؤال وما لمن أودى به الطوفان يذكر نوحا ؟

بهتوا فهم يتوهمونك بارزاً والتهاج مؤثلقاً عليك لموحا

لبسوا معايبهم ورزء ققيدم كاللابسات على الحداد مسوحا

وقد يجمله فرط تمصبه للفواطم على أن يصف الأمويين بالجن وعدم البصر بالحرب :

وما عرفت كرا الجياد أمية ولا حملت بزالقنا وهو شابك

ولا جردوا نصلاً تخاف شباته ولكن فولاذاً غدا وهو آئك

ولم تدم في حرب دروع أمية ولكنهم فيها الإماء العوارك

٣ - الناحية التاريخية

من شعر ابن هاني الأندلسي (*)

ومن العجيب أن ادعاء ابن هاني جبن أموي الأندلس على بطلانه ، يكرره داعية فاطمي آخر ، هو الرحالة أبو القاسم بن حوقل المغربي المعاصر لابن هاني ؛ فيقول في كتابه « صورة أقاليم الأرض » . « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هم في يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ، ومراس الأنجاد والأبطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحملها في نفسها ومقدار جباياتها ، ومواقع نعمها ولذاتها » . والشاعر والجغرافي كلاهما يرميان إلى غرض واحد ، هو حمل المهر على غزو الأندلس ؛ ولكن المعز كان أبعد منهما نظراً ، فلم يتورط في حرب جديفة مع الأندلس ، بل صرف قوته إلى المشرق ، على ما هو معروف .

وليست حملة الشاعر على الأمويين بأقل من حملته على العباسيين ؛ وهو متأثر في ذلك بالفكرة السياسية الشيعية القائلة بأن الخلافة حق لأبناء علي بن أبي طالب دون غيرهم فيقول مخاطباً بني العباس :

أبناء نقلة ما لكم ولمعشر هم دوحه الله الذي يختار ؟
ردوا إليهم حقهم وتنكبوا وتحملوا فقه اسقحم بوار
يلهيهمو زمر المثاني كلما الهاكم المثني والمزمار

ويعرض باستخزاء الخلفاء العباسيين وغلبة الأعاجم عليهم .

فقد سئمت بيض الطي من جفونها وكانت متى تألف سوى الهام تسام
وقد غضبت للدين باسط كفه إليهن في الآفاق كالميتظلم
وللعرب العرباء ذلت خسودها وللمسترة العمياء في الزمن العمى

ولملك في بغداد أن رد حكمه إلى عضد في غير كف ومعصم
إلى شلو ميت في ثياب خليفة وبضع لحام في إهاب مورم
فإن يكن العبد اللئيم نجاره فما هو من أهل العراق بالأم
سوام رناع بين جهل وحيرة وملك مضاع بين ترك وديلم
ولما غلب عاهل الروم نقفور فوقاس الثاني على الثغور الإسلامية ، وأوغل في الجزيرة
ونازل أنطاكية ، واستولى أسطوله على قبرس ، وعجز سيف الدولة الحمداني عن مدافعتيه
لا شغاله بحرب الطامعين في ملكه من جهة مصر والعراق ، كان لذلك أثر عميق في نفوس
المسلمين عامة ، لم يخفف منه إلا ضغط جيوش المعز الفاطمي على قوى الروم بصقلية . وفي
سنة ٣٥١ استولت تلك الجيوش على قلعة طبرمين من أيدي الروم ورمطة في سنة ٣٥٣ ؛
وفي عام ٣٥٥ عقد صلح بين المعز وبين الامبراطور نقفور فوقاس ، وقد تجاوزت أقطار العالم
الإسلامي بأصداء هذه الهزائم وتلك الانتصارات ؛ وقد سجل ابن هاني في شعره تلك
الأصداء ، فيقول في وصف إلحاح الروم على مدن الشام ، وعجز المشاركة عن مدافعهم :

مالى رأيت الدين قل نصيره	بالمشرقين وذل حتى حرفا ؟
هم صبروا خدماً تسوس أمورهم	يا للزمان السوء كيف تصرفا !
عبدان عبدان وتبع تبع	فالفاضل المفضول والوجه القفا
يا ويلكم أفسالكم من صارخ	إلا بشعر ضاع أو دين عفا ؟
فمدينة من بعد أخرى تستبي	وطريقة في إثر أخرى تقتفي
حتى لقد رجفت ديار ربيعة	وتزلزلت أرض العراق تخوفا
فالشام قد أودى وأودى أهله	إلا قليلاً والحجاز على شفا
أيسر قوماً أن مكة غودرت	بمجر جيش الروم قاعاً صفصفا ؟
أو أن ملحود النبي ورمسه	بمدارج الأقدام ينسف منسفا ؟
فتربصوا فالله منجز وعده	قد آن للظلماء أن تتكشفا
هذا المعز ابن النبي المصطفى	سيذب عن حرم النبي المصطفى

ويقول في مدح المعز وفي الفتح الذي تم له على الروم ، ويصف كيف تلقى المعز نبأ ذلك الفتح :

يوم عريض في الفخار طويل ما تنقضى غرر له وحجول
مسحت ثغور الشام أدمعها به ولقد تبل الترب وهي همول
وجلا ظلام الدين والدنيا به ملك لما قال الكرام فعول
لله عينا من رأى إخبائه لما أناه بريدها الأجفيل
وسجوده حتى التقى عفر الثرى وجبينه والنظم والأكليل
لو أبصرتك الروم يومئذ درت أن الإله بما تشاء كفيل
أنت الذي ترث البلاد لديهم فالأرض فالسجود دليل

* * *

وقد يكون أهم من كل ما تقدم ، تلك الناحية من شعر ابن هاني التي تصف عقائد التشيع الإسماعيلي في العهد الأفريقي من حياة الدولة الفاطمية^(١) . وابن هاني شديد الحمية للتشيع ، فهو عنده المذهب الحق ، فيقول في مدح أبي الفرج الشيباني :

ركن لعمرك من أركان دولتهم وعروة من عرى الدين الحنفي
كل السيوف اللواتي جردت كذب وهو المجرد للسيوف الحقيقي
وعنده أن الأدب الحق واخلق الحق هو الأدب الشيعي واخلق الشيعي :

لله من علوى الرأي منتسب إلى العلى واثلي الأصلى مرئ
شيعي أملاك بكر إن هموانتسبوا ولست تلقى أديبا غير شيعي
ويتعرض ابن هاني لفنظرية الإمامة عند الإسماعيلية . فيقول بضرورتها :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها فلا بد فيها من دليل مقدم
إذا كان تفريق اللغات لعلة فلا بد فيها من وسيط مترجم
وآية هذا أن دحا الله أرضه ولكنها لم ترس من غير معلم

(١) راجع مقدمة الدكتور زاهد على لديوان ابن هاني ص ٥٢ — ٥٨ .

وإمامة الإمام لا تثبت بالاجتهاد ، ولكن بالنص ممن قبله :
وما ذاك أخذاً بالفراسة وحدها ولا أنه فيها من الظن مضطر
ولكن موجوداً من الأثر الذى تلقاه عن حبر ضنين به حبر
والإمام مظهر نور الله :

وما كنه هذا النور نور جبينه ولكن نور الله فيه مشارك
والإمام موئل علم التأويل ، وهو العلم الذى تعرف به معانى القرآن الحقيقية :
قد كاد ينذر بالوعيد لطول ما أصنى إليك ويعلم التأويلا
وعلم التأويل مقصور على الإمام مكتوم عن العامة :
إذا كانت الأبواب يقصر شأوها فظلم لسر الله إن لم يكتم
والإمام معصوم من الخطأ :

من كان سيمًا القدس فوق جبينه فأنا الضمين بأنه لا يحجل
وابن هانى يعبر فى رأى الدكتور زاهد على عن معنى التوحيد عند الإسماعيلية بقوله
مخاطباً الخليفة المعز :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
يقول الدكتور إن الإسماعيلية تنزه الخالق عن الصفات مطلقاً ، وتوقعها على المبدع الأول
وهو الأمر والكلمة . ولما كان الإمام قائماً مقام الأمر والكلمة فى هذا العالم ، فجميع
صفات البارئ واقعة عليه ، فلا عجب أن أطلق الشاعر « الواحد القهار » على المعز . ولكن
يظهر أن قول الشاعر : « ما شئت لا ما شاءت الأقدار » يضعف هذا التفسير ، لذلك عاد
الدكتور فمقب على تفسيره المذكور بقوله إن الشعراء كثيراً ما يبالغون فيما يقولون . . .
وقد قيل : « أحسن الشعراء كذبه » فليكن إذاً هذا القول الأخير هو وحده الذى يعتذر
به عن إسراف الشاعر وغلوه .

نتبين من كل ما تقدم أن ابن هانيء عرض في شعره لأهم حوادث العالم الإسلامي في عصره : صور النظم الأساسية للدولة الفاطمية ، وبين من الوجهة الشيعية علاقة هذه الدولة بالدول المعاصرة لها ، ثم ألم بطائفة هامة من عقائد الشيعة الإسماعيلية . وكأني به ، يقول : إن السر العظيم في قوة الدولة الفاطمية وسرعة تكونها ، إنما هو في سياستها الحكيمة التي جرت عليها : سياسة العدل والإحسان والنظام في الداخل ، والانتصار لقضية الإسلام العامة بإزاء أعدائه في الخارج ، وإن فواطم إفریقیة كانوا بنائين ولم يكونوا هدامين كالقرامطة والحشيشية والملاحدة الذين ينتمون إلى المذهب الإسماعيلي . وليت شعري هل يستطيع أكثر المؤرخين تعمقاً لفهم الحوادث ، أن يصل إلى أعق وأصدق مما وصل إليه هذا الشاعر ؟

بنو فراس بن غنم (*)

يروى أنه لما تواترت الأخبار على الإمام على بن أبي طالب باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد بعد وفاة صفين ، قام على المنبر ضجراً بتناقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرأي ، فخطب الناس خطبة قوية جاءت فيها هذه العبارة : « أما والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم » وهذا العدد الذي تمناه الإمام على قليل جداً بالنسبة إلى جيشه الذي بلغ في وفاة صفين خمسين ألف مقاتل على أقل تقدير . فن بنو فراس هؤلاء الذين يعدل الرجل الواحد منهم خمسين رجلاً من أصحاب الإمام ؟

قال ابن أبي الحديد في شرحه على كتاب « نهج البلاغة » . « قال القطب الراوندي : بنو فراس بن غنم هم الروم » . ويخطئ ابن أبي الحديد بحق هذا التفسير ويقول : الصحيح أنهم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حى مشهور بالشجاعة ، منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان ، ومنهم ربيعة بن مُكْدَم حامى الظعن حياً وميتاً ، ولم يحم الحريم وهو ميت أحد غيره . عرض له فرسان من بني سليم ومعه ظعان من أهله يحميهم وحده ، فطاعنهم ، فرماه أحدهم بسهم أصاب قلبه ، فنصب رمحه في الأرض واعتمد عليه وهو ثابت في سرجه لم يزل ولم يمل ، وأشار إلى الظعان بالرواح ، فسرن حتى بلغن بيوت الحى ، وبنو سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه ويظنون حياً ، حتى قال قائل منهم إني لا أراه إلا ميتاً ولو كان حياً لتحرك ؛ إنه والله لما نزل راتب على هيئة واحدة لا يرفع يده ولا يحرك رأسه ، فلم يقدم أحد على الدنو منه حتى رموا فرسه بسهم فشب من تحته ، فوقع وهو ميت وفاتتهم الظعان .

* * *

ومما يجرى مجرى الموازنة بين بني فراس وأشباههم ، ما يروى من أن المنصور بن

عامر الأندلسي كان في غزاة له فوقف على نشز من الأرض فرأى جيوشه قد ملأت السهل والجبل ، فأعجبه ذلك ، والتفت إلى مقدم المعسكر ، ويعرف بابن المصحفي ، وجري بينهما هذا الحوار :

المنصور — لا يعجزنا أن يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة ؟
ابن المصحفي — يطرق ساكتاً .

المنصور — وما سكوتك ؟ أليس في هذه الجيوش ألف مقاتل ؟
ابن المصحفي — لا !

المنصور (متعجباً) — أليس فيهم خمسمائة رجل من الأبطال المعدودين ؟
المصحفي — لا !

المنصور (مغضباً) — أففيهم مائة رجل من الأبطال ؟
ابن المصحفي — لا !

المنصور — أففيهم خمسون من الأبطال ؟
ابن المصحفي — لا !

عند ذلك استشاط المنصور غضباً وأمر بمقدم المعسكر فأخرج على أقبح صفة . فلما توسطوا بلاد العدو وتضاف الجمعان ، برز علج من صفوف الأعداء شاك في سلاحه يكر ويفر وهو ينادي : هل من مبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتجاولا ساعة فقتله العلج . فصاح المشركون وذل المسلمون ، وكادت تكون كسرة . فقيل للمنصور ، مالها غير ابن المصحفي ! فبعث إليه ، فخر . فقال له المنصور : ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم ؟ قال : بعيني جميع ما جرى ! قال فما الحيلة فيه ؟ قال وما الذي تريد ؟ قال أن تسكني المسلمين شره ، قال : نعم ، الآن !

ثم قصد ابن المصحفي إلى رجال يعرفهم ، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد نشزت أوراكاها هزالا ، وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس . فقال له ابن المصحفي : ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم ؟ قال : قد رأيته ! فماذا ترى فيه ؟ قال : أريد رأسه الآن ! قال نعم !

فحمل الرجل القربة إلى رحله ، ولبس لأمة حربيه ، وبرز إليه ، فتجاولا ساعة ، فلم ير الناس إلا المسلم خارجا يركض ولا يدرون ما هنالك ، وإذا الرجل يحمل رأس العليج ، فألقى الرأس بين يدي المنصور .

عند ذلك قال ابن المصحفي للمنصور : أخبرتك أنه ليس في عسكريك من مثله ألف ، ولا خمسمائة ، ولا خمسون ، ولا عشرون ، ولا عشرة . فرده المنصور إلى منزله وأكرمه .

* * *

وبعد ، فيقال إن عدة المسلمين في جميع أنحاء العالم تبلغ اليوم زهاء ثلثمائة مليون من الأنفس . ترى كم فيهم من يشبه بني فراس ، ويشبه هذا الفارس الأندلسي المغوار؟ لسنا نجيب عن هذا السؤال الدقيق . ولكننا ، ونحن في مستهل عام هجري جديد ، نبتهل إلى المولى عز وجل أن يكثر فيهم أمثالهم ، أو أن يجعلهم جميعاً على شاكلته بني فراس ، وما ذلك عليه سبحانه بعزيز .

قرطبة الإسلامية

تقع بين الجبل المنسوب إليها وهو جبل قرطبة من ناحية الشمال ، وبين الوادي الكبير من ناحية الجنوب . وتحيط بقعة خصبة غنية بالمراعي والكروم وشجر الزيتون وغير ذلك مما يوجد في هذه المنطقة من الزروع والثمار .

وهي مدينة عادية قديمة ، لا ندرى أوليتها على التحقيق ، غير أنها ورد ذكرها في الحرب البونية الثانية . ونبه اسمها على عهد الروم والبيزنطيين ، ثم اضمحل شأنها زمن القوط الذين اتخذوا طليطلة قاعدة للمكهم .

فتحتها عنوة مغيث الرومي ، أحد رجال طارق بن زياد ، وذلك بعقب وقعة البحيرة التي كانت في سنة ٩٢ هـ . واتخذها والي العربي السموح بن مالك الخولالي قاعدة لأمانة الأندلس وانتقل إليها من إشبيلية سنة ١٠٠ هـ وما يدل على سوء حال المدينة عند فتح العرب لها ما كتب به السموح إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز « يستشير ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض في الشتاء عامة ، فإن رأى أمير المؤمنين بنيان سور المدينة فعلت ، فإن قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرم . فيقال إن عمر أمر ببنيان القنطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن ، إذ لا يجد له صخرأ ، فوضع يداً فبنى القنطرة في سنة إحدى ومائة » (أخبار مجموعة ص ٢٤) .

هكذا ابتدأ العهد العربي الإسلامي من حياة قرطبة وهو أزهى عهدها على الإطلاق . بلغت فيه قرطبة من النمو والازدهار ما عفى على تاريخها القديم والحديث ، فقد تتابع أمراء العرب وملوك بني أمية وخلفاؤهم على عمارتها وتوسعتها وتجميلها ، حتى أصبحت في القرن الرابع الهجري أعظم مدن المغرب الإسلامي قاطبة ، ومن أمهات العواصم الإسلامية ، وكانت تعدل في اتساعها أحد جانبي بغداد .

اتخذها السمع بن مالك كما قدمنا قاعدة وبنى جسرها ورم سورها ، وابتنى عبد الرحمن الداخل قصرها ومسجدها الجامع ، كما ابتنى في شمالها قصر الرصافة لنزله خاصة وزاد عبد الرحمن الأوسط في مسجدها الجامع ، وجر إلى قرطبة الماء العذب من الجبل الشمالى في أنابيب الرصاص ، وزاد عبد الرحمن الناصر في المسجد وابتنى الزهراء غربى قرطبة ، وزاد الحكم المستنصر في المسجد الجامع وجهه وخممه ، وأتم بناء الزهراء ؛ فلما كان زمن المنصور بن أبى عامر زاد في مساحة المسجد الجامع وبنى الزاهرة والعاصرية شرقى قرطبة ، كما عقد جسراً آخر على الوادى الكبير . وبذلك بلغت قرطبة في القرن الرابع المجرى أو العاشر الميلادى غاية اتساعها وعمرانها . ويفصل للمقرى في كتابه « نفع الطيب » الكلام على هذا العمران وذلك الاتساع فيقول « أحصيت دور قرطبة التى بها وأرباضها ، أيام ابن أبى عامر فكانت مائتى ألف وسبعين داراً . وهذه دور الرعية . وأما دور الأكابر والوزراء والكتّاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار سوى مصارى (أى غرف) الكراء ، والحمامات ، والخانات وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون حانوتاً » . وينقل المقرى كذلك « إن عدة مساجد قرطبة عند تنهايتها فى مدة ابن أبى عامر ألف وستمائة مسجد ، والحمامات تسعمائة حمام » ويقول « إنها تحمدق بها البساتين ، والزيتون ، والقرى ، والحصون والمياه ، والعيون ، من كل جانب ، وبها المحرث العظيم الذى ليس له فى بلاد^(١) الأندلس نظير ، ولا أعظم منه بركة » .

أما الشريف الإدريسى الذى تثقف فى قرطبة فى أوائل القرن السادس ، فيقول فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » « وهى فى ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضاً ، بين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات . . . ومدينتها الوسطى هى التى فيها باب القنطرة وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً » . ويستفاد من كلام الشريف الإدريسى أن مركز قرطبة « مدينتها الوسطى » هى ما يعرف « بالقصبة » أو « المدينة » وهى التى فيها المسجد الجامع وقصر الأمارة ، ثم امتدت غرباً فبنى الناصر مدينة الزهراء ،

(١) هو محرث السكناية الممتد جنوبى قرطبة على الضفة اليسرى للوادى الكبير .

وانصلت العمارة بينها وبين « المدينة » فنشأ ما يعرف بالجانب الغربي ، كما امتدت من ناحية الشرق فبنى ابن أبي عامر مدينة الزاهرة وانصلت العمارة بين المدينة المتوسطة وبينها ونشأ ما عرف بالجانب الشرق ، فهذه هي المدن الخمس التي كانت تتألف منها قرطبة الإسلامية ، والتي يشير إليها الإدريسي في عبارته المتقدمة .

لقد جمع الشاعر ما امتازت به قرطبة الإسلامية من المعالم في قوله :
بأربع فاقت الأمصار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنقتان والزهراء والعلم أعظم شيء وهو رابعها
ولم يعد هذا الشاعر الحقيقة التاريخية في سرد معالم قرطبة على النحو المذكور فانتبع هذا الترتيب في الكلام على هذه المعالم .

١ — أما القنطرة القديمة ، بناها الروم على نهر الوادي الكبير ، ثم تهدمت قبيل الفتح العربي للأندلس ، فبناها السمع بن مالك كما تقدم القول . ثم تهدمت أجزاء منها بعد ذلك . فرمها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل وأنفق في ذلك أموالا عظيمة ، وأشرف على بنائها بنفسه ، وقد شاهدها الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري ووصفها في كتابه بالضخامة والمثانة وبأن أقواسها سبع عشرة وبأن تحتها في قاع النهر أرحاء يديرها انصباب ماء النهر ، ولا تزال هذه القنطرة قائمة إلى اليوم على الهيئة التي وصفها الإدريسي ، وكانت تلك القنطرة واسطة الاتصال بين قرطبة والأرباض الجنوبية ومن ثم عناية ولالة الأمور الأمويين بأسرها .

أما المسجد الجامع فهو أعظم معالم قرطبة وأشهرها « وليس له مثيل في مساجد المسلمين بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً » كما يقول الإدريسي . وكان قبل الفتح العربي للأندلس كنيسة يقال لها كنيسة القديس فنسنت . ويحكى مؤرخو العرب في تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد نفس القصة التي يحكونها في تحويل كنيسة القديس يوحنا إلى الجامع الأموي المشهور بدمشق . فيقولون إن الفاتحين استولوا أول الأمر على نصف الكنيسة وحولوه إلى مسجد جامع لهم ، فلما جاء عبد الرحمن الداخل ورأى ضيق المسجد بالمصلين ساوم نصارى قرطبة في النصف الآخر الذي بأيديهم ، واشتراه منهم بثمن ارتضوه ، وفوق ذلك أجاز لهم إعادة

الكنائس الأخرى التي هدمت وقت الفتح . ثم بنى عبد الرحمن الداخل المسجد من جديد من أخماس الغنائم ، وذلك سنة ١٧٠ هـ . ولقد تتابع ملوك بني أمية وخلفاؤهم على المسجد بالزيادة في مساحته ، وتنميقه وزخرفته فزاد فيه عبد الرحمن الأوسط زيادة كبيرة من الناحية القبليّة المواجهة للنهر ، وبنى الأمير محمد مقصورته ، ومد الأمير عبد الله بين القصر وبينه ساباطا مسقوفا يمر منه من القصر إلى المسجد . وابتنى الناصر المثنى ذات الدرجين المعروفة بالصومعة وبالمئذنة . على أن أبدع أجزاء المسجد وأروعها الزيادة التي زادها الخليفة الحكم المستنصر في المسجد من الجهة القبليّة ، لاسيما الحراب والمنبر والمقصورة ، وقد استعان الحكم في زخرفة هذا الجزء بصانع يوناني ماهر في الزخرفة بالفسيفساء ، أرسله إليه الإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس مع مقادير ضخمة من الفسيفساء ، وكان ذلك بطلب من الحكم نفسه أسوة بما صنعه جده الوليد بن عبد الملك عندما أراد تجديد الجامع الأموي بدمشق . فلما كان زمن المنصور بن أبي عامر ، ورأى ضيق المسجد بالمصلين لقوافد البربر من المغرب زاد في المسجد من الجهة الشرقية زيادة بلغت ثلث مساحة المسجد كله ، وبذلك كمل المسجد وأصبح أكبر وأخفم مساجد العالم الإسلامي ، وكان طوله ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ متراً وكان ثلث مساحته صحناً مكشوقاً ، وبقية المسجد مسقوفة ويشتمل على أكثر من ألف سارية تجعل المسجد أشبه بغابة من النخيل — وقد أورد ابن عذاري في تاريخه تفاصيل طريفة عن الزيادة التي زادها ابن أبي عامر كما أورد إحصاء لما كان المسجد يشتمل عليه من عدد السواري والثريات والمصابيح ، وما كان مرتباً له من مقادير الزيت والشمع والبخور ، وعدد أئمنه ، ومقرئيه ، ومؤذنيه ، وسدنيّه ، وخدامه ، وهو شيء كثير (ج ٢ ص ٣٠٨) ومع أن المسجد قد حول إلى كنيسة بعد استيلاء الأسبان على قرطبة ، فإنه برغم ذلك وبرغم القدم ، لا يزال حافظاً لروعة وجلاله القديمين .

والكلام على « الزهراء » يقتضى أولاً التعريف بقصر الإمارة بقرطبة .

لقد كان حكام قرطبة من القوط ينزلون قصرأ يقع غربي كنيسة القديس فنسنت ، فلما صارت قرطبة قاعدة إمارة الأندلس عقب الفتح العربي ، اتخذ أسراء العرب هذا القصر

مقرّاً لهم ، فلما جاء عبد الرحمن الداخل جدد ببناءه في سنة ١٦٨ وانتقل إليه من قصر الرصافة ، وأصبح القصر من ذلك الحين مقرّاً لأسماء بنى أمية يديرون منه شئون الأندلس كلها ، كما كان جانب منه مدفناً لمن يتوفى منهم . وقد تأنق الأمويون في بناء مجالس هذا القصر وتنسيق مبانيه ومن هذه المجالس فيما يروى المؤرخون « السكامل » ، والروضة ، والبديع ، والمعشوق ، والتاج . . . الخ » وكان يحيط بكل القصر سور مانع فيه أبواب كبار منها باب الجامع الذي كان مقابلاً للمسجد الجامع .

فلما كان زمن عبد الرحمن الناصر ورأى أن القصر أصبح واغلا في مدينة يتكاثر سكانها وتزايد مساحتها أحب أن يفتح لنفسه وحرمة ودواوينه وخدمه وحشمه وحرسه ، مكاناً خارج قرطبة يخطط فيه مدينة خاصة على نحو ما صنع المنصور العباسي عند ما اختط المدينة المدورة ببغداد ، فشرع في سنة ٣٢٥ هـ في بناء مدينة الزهراء ، وقد سماها باسم جارية كانت حظية لديه ونقش صورتها على بابها فيما يروى ، ثم انتقل الناصر إلى مدينته الجديدة في سنة ٣٤٧ وقد توفى الناصر ولم يكن قد تم بناؤها . فأتتها من بعده ابنه الحكيم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) فكان بناءها استغرق نحو أربعين عاماً .

وتقع مدينة الزهراء غربى قرطبة بخمسة كيلومترات في منحدر من الأرض بين جبل العروس من جهة الشمال والوادي الكبير من جهة الجنوب وكانت على شكل مستطيل عظيم طوله ١٥٠٠ متر وعرضه ٧٥٠ متراً ، وقد أفاض المؤرخون ، لاسيما المقرئ ، في وصف مدينة الزهراء وما اشتملت عليه من قصور وروضات وبساتين ، وما كانت تضم من حرم وخدم وحشم وحرس ، وما أنفق عليها من أموال جسام أثار إنفاقها اعتراض المعترضين ونقد الناقدين من علماء قرطبة . ووصفها الشريف الإدريسي ، وقد دب إليها الخراب فقال « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة ، مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى على الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأوسط يوازى على الثلث الأسفل ، وكل ثلث منها له سور ، فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط بساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الديار والجامع » ثم يقول « وهى الآن خراب وفى حال الذهاب » .

ويرجع اضمحلال الزهراء ثم خرابها الذى تشير إليه عبارة الإدريسي إلى أمرين :

(١) اتخذ المنصور بن أبي عامر ، عند ما استبد بأمر الأندلس ، مدينة اختطها شرقي قرطبة في بعض منعطفات الوادي الكبير وسماها « الزاهرة » فكان ذلك مما أدخل « الزهراء » وأدى إلى اضمحلال أمرها ، (٢) ثم الفتن الكبيرة التي كانت قرطبة مسرحها من مطلع القرن الخامس والتي أطاحت بالدولة الأموية وأدت إلى تخريب الزاهرة والزهراء وضمحلل قرطبة والأندلس بوجه عام .

ولقد دلت أعمال الحفر والتنقيب التي أجراها علماء الآثار الإسبان في مطلع القرن الحالي في موقع الزهراء ، على أن ما ذكره مؤرخو العرب عن فخامة الزهراء وروعة بنائها لم يكن مبالغاً فيه .

* * *

لقد بلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عهودها ، أي في القرن الرابع الهجري ، نحو نصف مليون نسمة على تقدير المستشرق الكبير دوزي وكانوا يتألفون من عناصر شتى من العرب والمولدين والبربر والصقالبة ، وظهر في أيام الفتن التي وقعت في أواخر الدولة الأموية عنصر السودان ، وكان إلى جانب هؤلاء جميعاً جاليقان من النصارى واليهود لها شأن في الحياة الاقتصادية والعامة بقرطبة . ولم تكن هذه العناصر مؤلفة بل كانت مختلفة الأهواء . وأظهر ما كان هذا الاختلاف في الفتن والاضطرابات السياسية . ثم إن أهل قرطبة على وجه العموم كانوا طبقتين عامة وخاصة . أما العامة فكانوا السواد الأعظم من السكان وكانوا يتألفون غالباً من أرباب الحرف والصناعات . وكان فيهم نزوع عجيب إلى الشغب ، وميل شديد إلى الفتنة وينقل المقرئ عن ابن سعيد قوله فيهم « إلا أن عامتها أكثر الناس فضولاً ، وأشدهم تشغيلاً ، ويضرب بهم المثل بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشجيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ، حتى أن السيد أبي يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها ، كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال مثل الجل : إن خفت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلت به به صاح ، ما ندرى أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجنّبهم ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شراً من عامة العراق !! »

وعلى العكس من العامة كانت الخاصة أو الطبقة الأرستقراطية من أهل قرطبة ، وكانت تتألف من أعيان الدولة ورجال القصر من عرب وبربر وصقالبة ، يسكنون منيات بديعة

تحيط بها الحدائق والبساتين إما في أطراف المدينة أو في أرباضها ، كما تتألف من كبار التجار ذوى الثراء الواسع والمتجر العريض ، ومن العلماء والفقهاء والأدباء ومن لهم ميل إلى العلوم والمعارف ، ويصف المؤرخون هذه الطبقة بأجل الصفات وينعتونهم بأحسن النعوت ، وهم المعنيون بقول الإدريسي « وفصائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستر ، وإليهم الانتهاء في السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى في الملابس والمراكب ؛ وعلو الهمة في المجالس والمراتب ، وجيل التخصّص في الطاعم والمشارب ، مع جميل الخلائق ، وحيد الطرائق !! »

* * *

لا شك أن قرطبة الإسلامية كانت مجالا لحياة عامة قوية نشطة كالتى نجدها في بغداد والقاهرة والقسطنطينية في العصر الوسيط ، ففي مجال التجارة كانت أسواقها حافلة بشقى العروض الصادرة والواردة ، يقوم على تصريفها طائفة من التجار المياسير الذين لهم اتصال تجارى وثيق بالممالك المطيفة بالبحر الأبيض المتوسط . وفي مجال الدبلوماسية والعلاقات الدولية كانت قرطبة كثيراً ما تقابل السفارات والوفادات مع أكبر الممالك الأوربية ، لا سيما القسطنطينية ورومية وجرمانيا ، فضلا عن الممالك الإسبانية المسيحية الشمالية . وكثيراً ما كان قدوم وفود هذه الممالك فرصة طيبة لأن تعقد لهم حفلات استقبال فخمة في قصر قرطبة أو في مدينة الزهراء . وقد ألم المقرئ بوصف بعض هذه الحفلات في شئ من التفصيل . كما أنه قلما كان يمر عام دون أن تشهد قرطبة عرض الجيوش الأندلسية عند تحركها للغزو ، أو عند عودها مظفرة منصوره .

ومن حيث مظهر الحياة الدينية كان لأهل قرطبة في مسجدهم الأعظم مناظر فخمة متنوعة طوال العام ، ففي كل يوم جمعة كان الأمير أو الخليفة في الغالب يؤدى فيه فريضة الجمعة ، ويؤديها معه عدا رجال الدولة وأعيان الناس ، ثلاثة آلاف من لابسى القلانس ، وكان هؤلاء المقلسون هم الذين لهم حق الفتيا في الأحكام والشرائع في القرى التى تقع خارج قرطبة ، كل في قريته . فكانوا يأتون يوم الجمعة إلى قرطبة للصلاة مع الخليفة ، والتسليم عليه ، ومطالعة بأحوال بلدهم . ولكن المسجد كان أحفل ما يكون ، وأبهى ما يكون ،

في ليالى شهر رمضان والعيدىن ، إذ يلتج بقصاده وعماره ، ويغمره فيض من سنا ثرياته ، وشموعه ، ومصاييحه ، وتتعطر أرجاؤه بشذا ما كان يطلق فيه من البخور والطيوب .

* * *

بيد أن ناحية هامة من هذه الحيوية العجيبة ، وذلك النشاط الجم ، نلاحظها في بيئة العلماء ، والفلاسفة ، والأدباء ، بيئة العلم الذى هو أعظم شىء وهو رابع معالم قرطبة كما رتبها الشاعر في بيتيه المذكورين في مطلع هذا المقال . لقد استبحال المسجد الجامع جامعة تزخر بالطلاب الذين وفدوا إليها للأخذ عن أئمة اللغة والبيان والفلسفة والأدب . وازدانت قرطبة بنخبة من الطراز الأول من العلماء والمفكرين خلدها التاريخ في صحائفه ، أمثال ابن عبد ربه وأبى على القالى ، وابن زيدون ، وابن حزم ، وابن رشد ، وابن ميمون ، وكانت الراهبة الشاعرة السكسونية « هرزفيتا » شديدة الإعجاب بقرطبة ، وكانت تسميها « جوهرمة الدنيا » كما ذكر العلامة دوزى .

وكان لأهل قرطبة ولع شديد بالكتب وغرام باقتناء النادر منها حتى عدت قرطبة أكثر بلدان الأندلس كتباً وحتى كانت الكتب من أروج متاجرها . ولقد سن لهم هذه السنة الحيدة ملوك بنى أمية وخلفاؤها لاسيا الحكم المستنصر الذى جمع في مكتبته الآلاف المؤلفة من الكتب المصنفة في مختلف العلوم والفنون والآداب . وينقل المقرئ في كتابه نفع الطيب « أنه جرت مناظرة بين يدى يعقوب المنصور الموحدى ، وكانت بين الفقيه أبى الوليد بن رشد والوزير أبى بكر بن زهر ، وكان الأول قرطبياً والثانى إشبيلية ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفصيل قرطبة ما أدري ما تقول ، غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية ، فأريد بيع كتبه ، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها . وإن مات مطرب بقرطبة ، فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية » . ونقل المراكشى عن ابن فياض أنه « كان بالر بضع الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط السكوفى ، هذا ما فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها ! » .

* * *

ظلت قرطبة عاصمة الأندلس وأم مدائن المغرب الإسلامى ثلاثمائة سنة (١٠٠-١٤٠٠ هـ)

لفتة نحو الأندلس (*)

هناك في القسم الجنوبي من إسبانيا ثلاث مدن عظام هن « قرطبة » ، وإشبيلية ، وغرناطة . فإذا ما عرجت على جبل طارق سفينة رائحة أو غادية ، وكان بعقبها بعد يومين أو ثلاثة سفينة أخرى تقصد قصدها ، فكثيراً ما يغم المتشوفون الميطلعون من أهل السفينة الأولى فرصة ما بين الميعادين فيزورون « المثلث » ، وما المثلث هنا إلا خطوط موهومة ثلاثة تصل بين المدائن الثلاث .

ولقد أسعدني الحظ فزرت ذلك المثلث منذ عام وبعض عام زيارة باحث مستفيد ، لا زيارة راكب مجتاز .

وأنا امرؤ عاش بالذاكرة والذكرى والخيال في تلك المدائن منذ أعوام طوال ، ولكني لم أظفر بالعيش فيها حقاً إلا تلك المرة ، وذلك ما أرجو وآمل أن يكون بداية عهدى بها لا آخره .

طوفت في أنحاء قرطبة ، وأشبيلية ، وغرناطة ، وشهدت معالمها ، وقت في دمنها وآثارها ، واتصلت بأهلها بقدر ما يسمح الخاطر المشغول والوقت المحدود ، فخلصت من كل ذلك إلى أن هذا الثلاث لا يزال أبلغ ما يعبر عن مقاطع التاريخ الأندلسي الثلاثة : الخلافة ، والطوائف ، وغرناطة .

أما قرطبة فإنها بنهرها المتحدر الوئيد ، وجسرها العجيب ، ومسجدها الفخم ، وزهرائها الدارسة ، وأزقتها الصاعدة الهابطة العربية الأسماء ، وأهلها الذين يغلب عليهم حسن السمات وتمام الوقار ، تصور لعين الباحث المتأمل سذاجة عصر الخلافة وقوته ، وفخامته وروعته . كما ترمز باجتماع المسجد والقصر إلى اجتماع الدين والسياسة في النظام السياسي الإسلامي ، وهو اجتماع كان مدار الدولة الإسلامية نشوءاً ، واكتمالاً ، وهرماً ، وزوالاً .

زالت الخلافة ، وانفرط عقد الدولة ، وعاد أمر الأندلس جاهلية كما بدأ . سيف ودرع ، وشعر وسجع ، وطاس وكاس ، وجارية وغلाम . تلك معالم الحياة العامة على عهد الطوائف ، عهد ابن عباد ، وابن جهور ، وابن حجاج ، وعهد ابن زيدون ، وابن عبدون ، وابن عمار ، وعهد سيف ، وولادة ، واعتماد ، وقر . فإن شئت أن تتمثل ذلك العصر ، وتنشق عبيده ، وتحس نشوته ، فجل جولة في طرق إشبيلية ، وقف وقفه بفناء قصرها ، واغش أنديتها في أى وقت شئت من نهار أو ليل ، فستجدها على طول العمر ، وتقادم العهد ، لا تزال أصرح البلدان ، وأجملها ، وأطربها ، وأنقها . فهى بلد الرياض الضاحكة ، والقصور الفاعمة ، والبيوت الشرقية الوادعة ، وبلد الرقصة الفلمنكية الرشيقة ، واصطراع الإنسان والثيران الذى يحيل القلوب فى الصدور ، ثم هى بلد ذوات الحسن والخفر من النساء .

* * *

ولكن وأسفاه ! فما برحت لذة هذه الدنيا إلى ألم ، ونعيمها إلى بؤس ، وفرحها إلى حزن . وما برح ثمر الخلاف مرأ مريراً ، وعاقبة التفريق ويلاً وثبوراً . لقد أسلم الإسلام بالأندلس الروح إلا ذماء استبقته غرناطة إلى أجل مسمى .

فى غرناطة تجمع ما كان متفرقاً فى طول الجزيرة وعرضها ، من حرص على الخلاف ، وتهافت على الترف .

أما الخلاف فلا يزال أثره ملحوظاً فى حى البيازين ، بأزقيته الضيقة ، وبيوته العابسة ، وأهله المعروفين بحدة الطبع وشكاسة الخلق . وأما الترف فحسبك دليلاً عليه قصر الحمراء بأسواره وأبراجه ، وردهاته وأبهائه ، وغرفته ومقاصيره ، وسقفه المرفوعة ، وعمده المنصوبة . وتزاويقه المونقة ، وتهاويله الرائعة ، ومياهه الجارية ، ورياضه الناضرة . فهو صنع قوم تعجلوا فى الدنيا جنة الآخرة ، فالتوى عليهم القصد ، وانعكس الغرض .

خلاف وترف ! ألا لقد حق قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

مسجد قرطبة ، وقصر إشبيلية ، وحمراء غرناطة ! كم فيك من عظات وعبر ! ولكن أين
من يتعظ ويعتبر ؟ أما أنا فأشهد لقد رأيت ، وفكرت ، واعتبرت . . . ولكن من أنا ؟
فلما قضيت حق القلب والفكر من المدائن الثلاث ، آذنتها بالرحيل ، وأنا على مثل
حال الشريف الرضى حين قال :

ولقد وقفت على ديارهم وطولها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لعب نضوى ولج بعذلى الركب
وتلفت عيني فذ خفيت غنى الطلول تلفت القلب
وانطلق القطار بي وبأصحابي نحو مدريد ، فودعت حر الجنوب واستقبلت
برد الشمال .

دير الاسكوريال ومكتبته(*)

الاسكوريال اسم يطلق على بناء ضخيم فخم يضم ديرا وكنيسة ، وقصرا ومدفنا كانا لملوك الأسبان . وهو يبعد عن مدريد بنحو أربعين كيلومتراً ، ويقوم على رابية موحشة قاحلة من ربي جبل وادى الرملة ، ويقال إن مساحة الأرض التى يشغلها البناء تبلغ بضعة أفدنة ، وأن للبناء خمسة عشر مدخلا وبه سبعة أبراج وما لا يقل عن اثنى عشر ألفاً بين نافذة وباب . شيده عاهل الأسبان فيليب الثانى وفاء لنذر نذره والحرب قائمة بينه وبين فرنسا ، وقضى فى تشييده وإحكامه إحدى وعشرين سنة وأنفق فى ذلك القناطر المقتطعة من الذهب والفضة فجاء من أضخم وأعظم ما بنى الإنسان وهو من قبيل المنشآت الشخصية الهائلة التى لا ييسر القيام بها إلا فى أزمان الاستبداد والجبروت فهو يشبه من هذه الناحية هيكل بعلبك وكثيراً من مباني المصريين القدماء .

زرت الاسكوريال لثمان سنين خلت ، وقضيت أياماً معدودات باحثاً منقبا فى مكتبته القيمة ، وكنت أقسم الأيام المذكورة قسمين فأجعل للاسكوريال النهار ولمديره الليل ، ذلك بأن نهار الاسكوريال وإن يكن متاعاً للنفس أى متاع ، فإن ليله لا يطاق وحشة ، وسكوناً ، ورهبة ، وشدة برد وبخاصة إذا كان الزمن شتاء .

والكنيسة أفخم أقسام الاسكوريال ، ففى وحدها تستغرق أكثر من خمس الأرض التى تقوم عليها جملة البناء ، وبها الشئ الكثير من روائع الفن على هيئة قباب ، وتماثيل وصور أبدعتها ريشة أعظم مصورى الأسبان أمثال الجريكو وفلسكويز . ويقع أسفل الكنيسة مما يلى الحراب مدفن الأسرة التى ملكت الأسبان عصراً طويلاً ، وهو مدفن رهيب هابط فى الأرض ينظم نواويس ضخماً من المرمر فيها رفات الملوك الغابرين مرتبة ترتيب عجيبهم إلى هذه الدنيا وخروجهم منها ، وأحدثها وآخرها ناووس كان أعد لجنان الملك الذى خلع منذ سنوات .

وفوق الرواق الرئيسى للمكتبة تقع مكتبة الأسكوريال الشهيرة ، وهى قسمان ، قسم أوربى عام يشتمل على مجموعة الملك الذى أنشأ الأسكوريال وماضم إليها من مكاتب الأديرة والسكنائس ، والمدن ، والمكاتب الخاصة . وهذا مأذون بزيارته للأجانب ، وقد زرته فى حجة بعض رهبان الدير .

والقسم الآخر عربى مخطوط ولا يؤذن لأجنى أن يدخله ، وكل من أراد الاطلاع على بعض كتبه فينبغى أن يطلب ما يريد الاطلاع عليه إلى الراهب الخيصى بذلك القسم فيحضر له ما أراد فى الغرفة الخاصة بالمطالعة . ورهبان الدير يحفظون عادة بالزوار ولا يقصرون فى إحضار الكتب التى يريدونها .

يحتوى القسم العربى المذكور على نحو ألفى كتاب عربى مخطوط بعضها فى غاية النفاسة ومعدوم النظير ، أذكر من ذلك على سبيل المثال قطعة من قاموس عربى يونانى ألف فى القرن السابع الهجرى ، وكتاب الأنساب لابن الكلبي ، ونسخة من ديوان أبى تمام برواية أبى على القالى ومرتبطة ترتيبا يختلف عن ترتيب النسخة المطبوعة .

وهذه المجموعة العربية هى البقية الباقية من مجموعة أكبر منها ترجع على أرجح الأقوال إلى أصليين :

(١) بقايا المكاتب الأندلسية القديمة التى سلمت مما أصاب آثار مسلمى الأندلس من الضياع والتلف فى حروبهم مع الأسبان . وقد جمع شتات هذه البقايا فيما يقال فيليب الثانى وخلفاؤه من بعده وأودعوها ناحية من الأسكوريال .

(٢) مكتبة الأشراف الحسينيين من سلاطين مراکش (٩٥١ — ١٠٦٩ هـ) وذلك أنه فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى وقعت فتنة بين مولاي زيدان سلطان مراکش (١٠١٢ — ١٠٣٨) وبين أخيه أبى فارس الشائر عليه ، واضطر مولاي زيدان إلى التحول عن مراکش — فاستأجر سفينة فرنسية تحمله هو وأهل بيته وكتبه من بعض ثغور المغرب الأقصى إلى أكادير ، فلما حصل بأكادير ، وقع خلاف بينه وبين ربان السفينة على مبلغ الأجرة المستحقة ، فما كان من الربان إلى أن انسل بالكتب تحت جنح الليل يؤم مرسيليا .

فلما كان ببعض الطريق عرضت له سفينة أسبانية غصبتها الكتيب وانطلقت بها إلى أسبانيا وكان خاتمة مطاف تلك الكتيب أن أودعت هي أيضاً دير الأسكوريال .

كانت مكتبة الأسكوريال أول الأمر من أعظم مكاتب أوروبا كثرة كتيب ونفاضة قيمة ، ولكن شبت النار في مباني الأسكوريال كلها في عام ١٧٦١ م فاحترق من المكتبة نحو ثلاثة أرباعها وسلم الربع فقط ولا تزال آثار الحريق ماثلة فيما سلم حتى اليوم .

وأول من درس محتويات القسم العربي ووضع لها فهرساً باللاتينية راهب ماروني اسمه ميخائيل الفزيري ، وذلك في منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٩ — ١٧٥٣) وقد ظل ذلك الفهرس الدليل المعتمد للمكتبة إلى أن شرع في أواخر القرن التاسع عشر المستشرق الفرنسي هر تويغ درنبورغ في وضع فهرس جديد بالفرنسية . وقد ظهر الجزء الأول من الفهرس المذكور في عام ١٨٨٤ وظهر الثاني في عام ١٩٠٥ ثم توفى هذا المستشرق قبل تمام عمله . غير أن الجزء الثالث من فهرسه ظهر أخيراً في عام ١٩٢٧ بإشراف مستشرق فرنسي آخر هو الأستاذ ليثي بروفنسال .

وقد أخبرني قيم المكتبة الأب ملخور أنطونا أنه هو وزملاءه يعدون فهرساً علمياً مظلولا للقسم العربي من مكتبة الأسكوريال ، ولكن أرجح أنه لم ينشر منه شيء حتى الآن .

تلك مكتبة الأسكوريال التي يقال إن حكومة مدريد نقلتها من الدير إلى مكان آخر حريز خوفاً عليها من أخطار الحرب القائمة بينها وبين الخارجين عليها في هذه الأيام .

بلاد عربية تحتضر فيها العروبة (*)

لست أقصد أيها القارئ الكريم بتلك البلاد إلا المغرب الإسلامي الذي يمتد من حدود مصر شرقا إلى أمواه المحيط الأطلسي غربا ، ومن سواحل بحر الروم شمالا إلى مجاهل السودان جنوبا ، والذي تنزله من الخلائق من لا يحصهم سوى خالقهم ورازقهم .

* * *

كان المغرب ولا يزال ميدانا عظيما من ميادين الصراع الأزلَى الأبدى العنيف بين الشرق والغرب ، فيه تصالوت وتطاحنت قرطجنة الشرقية السامية ورومية الغربية الآرية ، فكتب الفوز للثانية على الأولى . وعبر المغرب قرونا عدة وهو قطر روماني حائل اللون لم ترسخ فيه المدنية الرومانية ولا تقرر في أصولها . فلما نهض الشرق نهضته الكبرى في ظل الإسلام والعروبة ، وطما سبل الفتوح العربية وعب عبابه ، وغلب الغرب تجاهه على أسره ، عاد المغرب أرضا شرقية ولكن في صورة جديدة قوامها العروبة والإسلام ، غير أن النزاع القديم بين الشرق والغرب لم ينقطع ، ففي أخريات العصور الوسطى تهاوت جموع الصليبيين على المغرب فلم تثبت لهم به قدم وباءوا بخسران مبین . ثم تجدد الصراع في العصر الحديث ، فكتب الفوز مرة أخرى للغرب على الشرق ، وأصبح المغرب بجمليته مستعمرات أوربية ، ووقف الأمر عند ذلك حتى اليوم .

وفي أثناء تلك المحاولات والمساجلات نبغ بالمغرب رجال أصبحوا مضرب الأمثال في البطولة والشجاعة والتضحية ، منهم في الزمن القديم هملكار ، وأسدروبال ، وهنيبال ، ومنهم في العصر الوسيط عقبة ، والكاهنة ، وكسيلة ، وحسان ، وموسى بن نصير ، ويوسف ابن تاشفين ، وعبد المؤمن بن علي وسلالاته العظيمة من أمراء الموحدين ، ومنهم في العصر الحديث الأمير عبد القادر الجزائري ، والسيد السنوسي الكبير ، والأمير عبد الكريم

(*) مجلة الرابطة العربية ، في ١٤ أبريل سنة ١٩٣٧ والعجيب أن الأحداث الجارية الآن في تونس وصراكش تدل على أن مضي ستة عشر عاما لم يغير شيئا من الحال التي يصفها هذا المقال !

الخطابي بطل الريف وقرى أسبانيا وفرنسا ، والذي لا تزال وقائعه مع هاتين الدولتين معقوداً غبارها بأرجاء المغرب الأقصى ، وصداها يدوى في الإسماع .

وينبغي أن ننبه إلى أن المغرب أصبح غداة الفتح العربى أرضاً عربية ، وإن شئت الدقة في القول فقل إن أجزاءه الشرقية استحوطت أرضاً عربية ، في حين أن أجزاءه الغربية أصبحت وقد استعربت ، وقديماً قسم القدماء عرب الجزيرة نفسها قسمين عربية ومستعربة فلم يقدح ذلك في عروبة من استعرب ولا وجد فيه غضاضة على نفسه .

لقد صار المغرب عربياً بأمريين : بهجرة العرب إليه واستعراب البربر أنفسهم . أما الهجرة فابتدأت بالجووع التي تدفقت على المغرب من الجزيرة في القرنين الأول والثاني الهجريين وانتهت بهجرة العرب الهلالية في القرن الرابع ، وأما الاستعراب فتم باعتناق البربر الإسلام وتكلمهم العربية وارتباطهم بالفاطميين برباط الصهر والزواج بحيث لم يبتدىء القرن الرابع حتى كانت قد استعربت قبائل البربر الكبرى أمثال كقامة وزتانة وضمهاجة ، وأصبح جميع سكان المغرب من عرب وبربر يداً واحدة على كل من دام بلادهم إبان الحروب الصليبية والزمن الحديث كما سبقت الإشارة . وبتمام هذه الوحدة الرائعة أمكن ازدهار المدنية الإسلامية في ربوع المغرب ، وعدت القيروان وتونس وقاس ومراكش مواطن للثقافة الإسلامية العربية وغدا جامع الزيتونة وجامع القرويين من مدارس الإسلام الجامعة ، ونبع بالمغرب من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة عدد عظيم يشار إلى نفر منهم بالبنان . وتعدى أثر هذه الثقافة الإسلامية العربية إلى صقلية فكان لقاحاً هياً إيطاليا للنهضة الأدبية العظيمة التي ظهرت بها في القرن الخامس عشر الميلادي .

ذلك القطر العربي أخذ نجم حياته المسبقة النشطة القوية المثمرة في الأفول منذ وضع الترك العثمانيون أيديهم عليه في القرن السادس عشر مع استثناء المغرب الأقصى . فلما عجز الترك أنفسهم عن الدفاع عن أطرافهم في القرن التاسع عشر تداعت بل تعاوت ذئاب الاستعمار الأوربي على المغرب . فالتقت أسبانيا لقيات من المغرب الأقصى ، وتحاملت فرنسا على الجزائر وتونس ومراكش فازدردتها ازدراءً . ثم انقضت إيطاليا على طرابلس بغيك وعدوانا فاستولت عليها بعد أن أبلى أهلها عذراً .

ولا يظن القارئ أن الاستعمار الأوربي دخل المغرب وهو يريد أن يسوسه على أساس الاحتفاظ بتقاليده وعاداته وإنماء موارده وترقية مرافقه والنهوض به لخير أهله واكتساب مودتهم وصدقاتهم ثم الجلاء عن بلادهم فيكون بذلك قد أسدى إلى الإنسانية يداً عظيمة ومنة باقية على الزمن . كلا ثم كلا ! إن خطته التي جرى هي محور شخصية تلك البلاد وإفناؤها في الدول المستعمرة بهدم مقوماتها الجوهرية من لغة ، ودين ، وعزة قومية . وللأسف في الوصول إلى تلك الغاية طرق شتى : منها أنه يعمل على عزل المغرب عن سائر العالم العربي بتضعيب أسباب الاتصال بين المغرب والأقطار العربية الأخرى ، وتشديد المراقبة على العربي الذي يدخل المغرب فلا يسمح له بالاتصال بالأهلين إلا بقدر معلوم ، وطريقة أخرى أبلغ في الوصول إلى الغرض الاستعماري المنشود هي القطع بين حاضرمغرب وماضيه وذلك بإضعاف اللغة العربية ونشر لغة المستعمرين ، والحد من الثقافة الإسلامية والتمسكين للثقافة الأجنبية ، ومن ثم ذلك التهاك الذي نلاحظه على ترجمة الكتب العربية القديمة الخاصة بتاريخ المغرب وأدبه وفقهه إلى لغة المستعمرين وخاصة الفرنسية وذلك ليقراً أهل المغرب تاريخهم وماضيهم باللغة الفرنسية دون العربية . وطريقة ثالثة هي تحجيب الجنس الأجنبي إلى نفوس المغاربة وإثارة العرة الجنسية البربرية في نفوس البربر ، وما نبأ الظهير الذي صدر في صراكش بوجوب اتباع العرف البربري في دور القضاء ببعيد .

أما العمل على إماتة العزة القومية فحسبنا التدايل عليه بأمرين أو ثلاثة . فنذ سنوات ست احتفلت فرنسا في نفس المغرب بمرور مائة سنة على فتحها الجزائر وخمس سن سنة على فتحها تونس ، ومن عهد قريب نقلت رفات المارشال ليوتي قاهر المغرب الأقصى إلى صراكش ودفنته بها باحتفال مشهود . هذا ولا تغفأ إيطاليا منذ استولت على طرابلس ترنو بعينها غرباً وشرقاً وتعرض بأنها وارثة الرومان القدماء في البحر الأبيض المتوسط فينبغي أن يؤول إليها ميراث الرومان في هذا البحر كاملاً غير منقوص .

الحق أن العروبة والإسلام ماتا في الأندلس بالسيف ، أما في المغرب فإنهما يقضيان صبراً ، إلا أن يتوجه أهل المغرب إلى الله بقلوبهم وعزائمهم ، ويقداركهم الله بنصره ورحمته « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

فهرس الموضوعات

صفحة

تقدمة وإهداء ٥

القسم الأول : عصر الدولة العباسية

أبو العباس « السفاح »	١
هارون الرشيد بين التاريخ والقصص	٨
أم الحسين : السيدة زبيدة	٢٣
بين هارون الرشيد وشرلمان	٣٠
الرشيد وأبو نواس	٣٧
مع أبي نواس الزاهد	٤٧
كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري	٥٤
أبو العلاء السياسي	٦١
ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء المعري	٦٩
السلطان يمين الدولة محمود الغزنوي	٧٨
١ — الفردوسي	٨٣
٢ — الفردوسي (تتمة)	٩١
سيرة أحمد بن طولون لأبي محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي	٩٩
من مواقف البطولة الإسلامية في القتال	١٠٦
كتب الحسبة وفائدها في وضع المعجمين الوسيط والكبير	١١٤
ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامي ساعدت على نمو العربية وانتشارها	١٢٢
أثر مصر في الأحداث الإسلامية حتى آخر العصر العباسي الأول	١٣٠



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



32101 073830018

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م